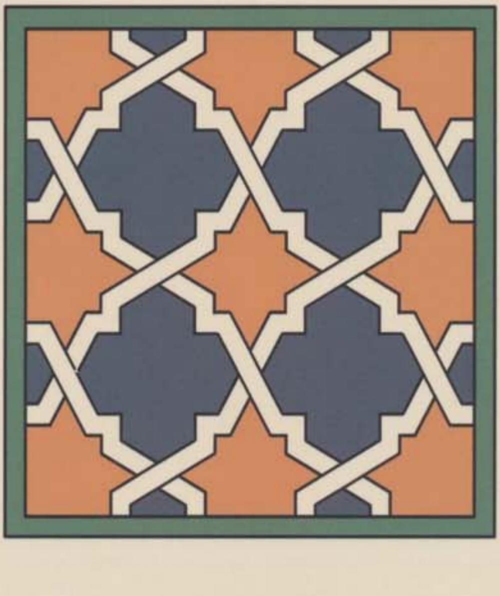
ليلى العبيدي

الفلك في الإسلام



دار الساقي

ليلى العبيدي

الفلك في الإسلام

دار الساقي
بيروت ـ لندن

الفلك في الإسلام

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

خطوط العناوين: علي عاصي

الطبعة الأولى ٢٠١٠

ISBN 978-1-85516-511-3

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ (٠١)
e-mail: info@daralsaqi.com

الإهـداء

إلى التي تذوّقتُ من مِلح عرقها حلاوةَ الحياة.

إلى أمّ الزين في فِرْدَوسها الجميل.

المحتويات

تقديم

إنّ البحثَ في مسائل الدين من خارج دائرة الكفر والإيمان من شأنه أن يكشفَ النقابَ عن وجهِ الدين السمح الجميل. ووجهُ الدين السمح الجميل كثيراً ما يتشكل أنشودةً للحياة الدنيا تروم الحياةَ في ظلّ الودّ والحبّ والتسامح والوئام، وتنبذ الشدّةَ والزمتَ والعنفَ والنظرَ الضيّقَ الذي لا يسمح للمقولة بأن تكون. ولا يمكن الوصولُ إلى ذلك الوجه إلاّ بتحرير البحث ممّا يعترض سبيله من عراقيل كثيراً ما تتشكّل رقابة ذاتية أو خارجية تسعى إلى كبت الكلمة وتوجيه المقولة الوجهة التي تروم.

في هذا الإطار، إطار البحث العلميّ الذي تحرّر من العراقيل، يتنزّل الفكَهُ في الدين. والفكَهُ في الدين مشروعُ المادّةِ الضخمةِ والنفس الطويل، بعضه في القرآن بصدد الإنجاز، وبعضه في قصص الأنبياء وما انتقاه من الموروث الشعبي المفسّرون آتٍ لا شكَّ فيه، وبعضه في الحديث النبويّ تحقق في هذا البحث ويخرج اليوم على الناس كتاباً، كتابَ الفكَهِ في الحديث النبويّ، فيرسم لغيره معالمَ الطريق.

وقد جاء الكتاب يفتح في هذا المجال باباً ويُسهم بجُرأة في بحث مسألة الفكَه الذي ارتبط فيه ارتباطاً وثيقاً بالحديث النبويّ، ثاني علوم المسلمين تدويناً وأهمّية. وكثيراً ما ارتبط الفكَهُ بالأدب مادّةً وبالثقافة الشعبية نوعاً. وقد ذهب في الناس على مرّ الأيّام أن الفكَه والحديث النبويّ لا يلتقيان، إذ ينتمي

الأوّل إلى باب الهزل والنادرة والضحك، وينتمي الثاني إلى عالم الدين المتّسم بالجدّ والصرامة حتى التزمّت. ولكنّ الحديثَ، مثله مثل سائر مكوّنات الخطاب الديني، لا يخلو من فكَهٍ، بل إنّ الفكَهَ فيه كثيراً ما يؤدي دوراً فعّالاً في تسهيل عملية التخاطب ويضطلع بوظائف تقوم سنداً لنشره وتعليمه، فتصبح العلاقة بينهما وطيدة، وهو ما يُكرّسه هذا الكتاب.

وقد قام الكتابُ في منهجه على العودة إلى مجاميع الحديث يستنطقها وينتقي منها ما هو على علاقة بالفكَه. ما احتوى منها ضَحِكَ والضَّحِك وما احتوى بَسَمَ وابتسم وبَسمة وتبسُّمَة، وما احتوى مشتقّاً من مشتقّات الهزل أو المزح أو النادرة، وما احتوى أخبار الأقلّيات من مغفّلين وحمقى وأعراب وقضاة، وما احتوى المشاهد الباعثة على الضحك، وما احتوى صراعاتٍ بين ضرائر أو صبية، وما احتوى لعب الصبيان والحبش، وهلمّ جرّاً. . . ثمّ كان الانتقاء سبيلاً إلى استغلال المادّة الضخمة ودرسها تفكيكاً وتأليفاً، وتنظيمها تنظيماً مُحكماً، وفقَ محاورَ، جُعلت النواةُ فيها جميعاً الرسول، وأُقيمت له فيها علاقاتٌ. هنا معَ اللّهِ، وهناك مع الأهل، ثمّ مع الزوجات، ثمّ مع الأعراب، ثمّ مع الأصحاب، ثمّ مع أهل الكتاب، ثمّ مع الصبيان، ثمّ مع عجائز المسلمين. وقد باحت كلّ المحاور بسرّها فإذا العلاقاتُ التي يربطها الرسول فيها بتلك المجموعات يُسيّرها الفكَهُ ويحكمها. ولكنّ هذا لم يحمل البحث على الإفراط في الحكم ولم يُسبّب فيه المبالغة الشديدة. بل ظلّ بحثاً علميّاً صرفاً فلم يخلص إلى أنّ الفكَهَ قوامُ الحديثِ ولا هو سَحبَ تلك النتائج الخاصّة بالحديث على الثقافة العربية الإسلامية لتصبح فكَهاً خالصاً. كان الحذر العلميّ في الكتاب يُزيّن الأحكام. فالفكَهُ قائمٌ في الحديث، ولكنّه فيه وجهٌ من وجوهه ليس غيرُ. وهو قائمٌ في الثقافة، ولكنّه فيها وجهٌ من وجوهها ليس غيرُ. وهو هنا وهناك الوجهُ الجميلُ الناصعُ الذي حُجبَ في سبيل إبراز وجهٍ آخر كان قاتماً.

هنا ينقلبُ الحديثُ في الفكَه حديثاً حضارياً، صراعاً بين كائن السنّة الثقافية، وما كان يمكن أن تكون. كان وراءَ غيابِ الفكَهِ سلطةٌ مارسها أولو الأمر من المسلمين، وعلماؤهم في الدين وفقهاؤهم الأبرارُ، فانقلب الدينُ الذي كان مع الرسول يُسراً عسراً شديداً، لغايات اجتماعية، جعلت المسلمين تبعاً لمتفقّهين. لقد كانت الشخصيةُ المثالُ الأنموذجُ كما تشكّلت في الأحاديثِ المتن شخصيةً فكِهَة، لا تتحرّج في معالجة أمور الدين والدنيا بطريقة واعية ذكية، أساسها المزاح والضحك والهزل أحياناً، فتسهم في وضع أسس الدين اليُسر. ولكنّ هذه الصورة التي رسم ملامحها المخيال العربي الإسلامي في بدايات تاريخه الثقافي، كثيراً ما غُيِّبَت في الثقافة العالمة وسُكت عنها.

وهنا ينقلب الحديثُ في الفكَه حديثاً في أنتروبولوجيا الثقافة. فإذا الفكَهُ هنا فضاءٌ رحبٌ في عالم المقدّس ذاته. هنا ترى اللّهَ ضاحكاً مبتسماً، وتراهُ متعجّباً ساخراً مازحاً. وهنا ترى الرسول يضحكُ حتى تبدو نواجذُه، يسامرُ زوجاتِهِ ويلاعبُهنّ، أو يُسابق الأطفالَ أو يمازحُ الأصحابَ أو يُفاكِهُ الأعرابَ. وهنا ترى الناسَ من حوله، بدواً وأعراباً وصحابةً ونصارى ويهوداً ونساءً وعجائزَ وأطفالاً، يعيشون الفرحَ والسرورَ، ويمزحون ويلعبون ويتفكّهون. فكان يغتنم هذا الجوّ ليعلّمهم القرآنَ والحكمةَ وتعاليمَ الدين الجديدِ. تلك هي بعضُ وظائف الفكَهِ، ترفيهٌ وتعليمٌ.

وهنا ينقلب الحديثُ في الفكَه حديثاً في المعرفة بالذات والآخر، وأحياناً دراسةً في علم النفس. هنا ترى الرسولَ عارفاً بنفسياتِ الناس، مُطّلعاً على دين اليهود ودين النصارى، إذا ما وافقا دينَ الإسلام.

كان يبحثُ في كلّ موقف عن فرصةٍ سانحةٍ للفكَهِ، كان يدعو إلى حياة بسيطة قوامها الإخاء وحسن العشرة وصلة الرحم والعدل والمساواة والسعادة التي لا تكون إلا إذا استقبل المؤمن الحياة بالفرح والضحك والمزح واستقبل

الحياة الأخرى بمثل تلك الأمور. كان يرى أنّ سعادة المرء في قدرته على التواصل مع الغير.

تلك هي بعضُ وظائف الفكَهِ، حذقٌ وسبر لأغوار الذات البشريّة ومنهجٌ في التعامل الاجتماعيّ.

وقد استقام البحث كتاباً معبّراً عن منهجٍ واضح جريء، كان وليد الاطّلاع الشامل والتأثر باتجاهات حديثة في البحث وبمدرسة تستعمل اللغة سبيلاً إلى استنطاق النصّ وإنْ في ظلّ التلاعب باللفظ لفضح خبايا النصّ. والتلاعبُ باللفظ، على علاته، بلاغةٌ من بلاغةِ الكلم. والكتابُ بحثٌ دالٌّ على دقةٍ في ذلك المنهج، فجاءت الأخبارُ فيه موثقة والأحاديثُ مُخرجة والآيات مضبوطة والعناصرُ موصولة بعضها ببعض.

وهو كتابٌ طريفٌ. طريفٌ في عنوانه. طريفٌ في مضمونه. طريفٌ في طريقة بحثه. كان واللّهِ فكَهاً خالصاً. فهو على الجدّ الذي احتواه يداعبُ القارئَ دُعابةً خفيفةً. ويروي له من القصص التي احتواها الحديثُ أجملها. فتتعرّى الأشياء وتظهر العلاقات عاريةً إلاّ من فكَهٍ.

وحيد السعفي

أستاذ الحضارة والأديان المقارنة

بالجامعة التونسية

المقدّمة

كثيراً ما انبنت الثقافة على ثنائيّات لئن بدت أطرافها متقابلةً متضادّةً فهي في جوهرها يُكمّل بعضُها بعضاً وتُشكّلُ ائتلافاً. إنّ النورَ لا يكون إلاّ إذا كانت الظلمةُ. وإنّ الخلقَ لا يستقيم إلاّ إذا كان العماءُ. وإنّ العدلَ لا يقوم إلاّ إذا قام الجورُ. وكذلك الجدُّ يرتبط وجوده بوجود الهزلِ ضرورةً. ولكنّ الدراسات تسير في اتجاه واحد، فلا تهتمّ إلاّ بما في الثنائيات من أطراف إيجابية، وتُهمل أطرافها التي تبدو لها سلبيّة. لذلك غلبَ النورُ الظلمةَ، وطغى الخلقُ على العماء، وبزّ العدلُ الجورَ، وفَضَلَ الجدُّ الهزلَ.

إنّ الإنسان لا يرى في الثقافة إلاّ صورتها النيّرة، فيهتمّ بالنور لأنّ النورَ من عالم الربّ. ويهتمّ بالخلق لأنّ الخلقَ صياغتُه. ويهتمّ بالعدل لأنّ العدلَ مطمحُ البشرية. ويهتمّ بالجدّ لأنّ الجدَّ أساسُ الثقافة العالمة حسب ما شاع في الناس، وإنْ قام الجاحظ طاعناً في ذلك، قارناً الجدَّ بالهزل، فأخذ الهزلُ عنده مكانةً عليّةً: ومتى أُريدَ بالمزحِ النفعُ، وبالضحك الشيءُ الذي وُضع له الضحكُ، صار المزحُ جدّاً، والضحكُ وقاراً»[1].

إنّ الهزل ـ وإنْ رفع الجاحظ من شأنه ـ لم يستطع أنْ يُصبح في الثقافة العالمة ندّاً للجدّ. فالدراساتُ القديمةُ والحديثةُ كثيراً ما أهملت كلّ ما تعلّق بالهزلِ. ولا يرسخ في الأذهان بعد دراسة المدوّنة النثرية والشعريّة في الثقافة

---

(١) الجاحظ، **البخلاء**، ص ١٩.

العربيّة الإسلاميّة إلاّ بعض النصوص الفكرية والأشعار التي تتّسم بالجدّية. فالجاحظ مثلاً قد أمتعنا بنوادره في البخل ولكنّنا نعرفه أكثر من خلال آرائه الاعتزالية وحجاجه المتواصل واهتمامه بمسائل البيان والتبيين ونبوغه في عِلْمَي الكلام والحيوان. أمّا الشعر فإنْ اهتممنا فيه بالتجديد عند عمر وهو يغازل النساء أو يعرض لهنّ في موسم الحجّ، أو عند أبي نواس وهو يصف كأساً ويروي قصّة خمرة، فإنّ الصور الغالبة عليه ـ في الوعي وفي اللاوعي ـ صور صعاليك وفتوّة وغزوات وحروب وفخر ورثاء ومديح وكلام كجلمود صخر حوشيّ.

١ ـ في اختيار الفَكَهِ موضوعاً

إنّ اختيارنا الفَكَهَ موضوعاً للبحث يمثّل محاولةً منّا للإسهام في الاهتمام بهذا الجانب الذي لم يحظ في الثقافة العربية الإسلامية بمنزلة رفيعة ومكانة تليق به. لقد وجّهت اهتمامها بصفة غالبة إلى مظاهر الحياة الجدّية من سياسة ودين وعلوم إسلامية، فهمّشت النادرة والفكاهة والملحة والمزاح ومظاهر الهزل والضحك، وإنْ احتوت كلّ ذلك في خفايا الكتب وفي مختلف مجالات الحياة، كما سنرى ذلك في عملنا من بعدُ.

والفَكَهُ الذي اخترناه موضوعاً يقوم في اللغة بديلاً للهزل والمزاح لأنّه يعني مثلهما اللعب والضحك والدعابة(٢)، ولكنّه يتجاوزهما إلى غير ذلك من المعاني ممّا يُضفي على عملنا صبغة أوسع وأشمل. فالفَكَهُ طريقة في الحياة وتصرّف مع الناس ومزاج عام، إذ هو طيبة النفس(٣)، واستعمال مُلَح الكلام

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة هزل: «الهزل نقيض الجدّ، ورجل هزّيل كثير اللعب، والهُزالة الفُكاهة، والهزل واللعب من واد واحد»؛ ومادة مزح: «المزح الدعابة، ونقيض الجدّ، والمُزَّح من الرجال الخارجون من طبع الثقلاء».

(٣) «فَكِهَ الرجلُ فهو فَكِهٌ إذا كان طيّب النفس مزّاحاً؛ وقد فَكِهَ فَكَهاً وفَكاهَة»، ابن منظور، **لسان العرب**، مادة فكه.

لإطراف الأهل والأحبّة وإحراز عجبهم أو تعجّبهم[٤]، وهو كذلك دالّ على الفرح والتمتّع بما منّ الله به من نِعَم[٥].

فالفَكَهُ إذن جامع لأغراض متعدّدة يدخل فيها الهزل والمزح والتعجّب والطرافة والتمتّع والتنعّم والفرح والدعابة واللعب والضحك وطيبة النفس. إنّه مفهوم شامل، تسهم كلّ المظاهر التي ذكرناها في بلورته وتدلّ عليه. فالضحك مثلاً يخدم الفَكَهَ خدمة كبيرة لأنّه هو التعبير الفيزيولوجي عنه. وللضحك مراتب دقيقة الوصف[٦] تتطوّر حسب طبيعة المُضحك، وفيه أنواع كثيرة تتفرّع حسب مظاهر الفَكَه أو الحقل الدلالي للفَكَه: «هناك ضحك السرور والرضى، وهناك ضحك السخرية والازدراء، وهناك ضحك المزاح والطرب، وهناك ضحك العجب والإعجاب، وهناك ضحك العطف والمودّة، وهناك ضحك الشماتة والعداوة، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة، وهناك ضحك المقرور، وضحك المشنوج، وضحك السذاجة، وضحك البلاهة، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطرار»[٧].

إنّ الضحك يَحْدُثُ استجابةً للفَكَهِ، فيغدو الفَكَهُ بذلك ظاهرة متعدّدة الزوايا، متنوّعة التجلّيات، أشبه بصورة أخذت لأفراد العائلة مجتمعين، فيهم

---

(٤) «وفكّههم بمُلَح الكلام تفكيهاً أطرفهم بها؛ وفَكِهَ كفرح ومنه تعجّب كتفكّه وبه تمتّع، فهو فَكِهٌ وفاكِهٌ يُحدّث صحبه فيُضحكهم»، الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مادة فكه.

(٥) استعمل القرآن الفكه في هذا المعنى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، **المطففين** ٨٣/ ٣١؛ ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾، **يـــس** ٣٦/ ٥٥؛ ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾، **الدخان** ٤٤/ ٢٧.

(٦) انظر مراتب الضحك في: الثعالبي، **فقه اللغة وسرّ العربيّة**، ص ١٠٥: «التبسّم أوّل مراتب الضحك، ثمّ الإهلاسُ وهو إخفاؤه [...]، ثمّ الافترار والانكلال وهما الضحك الحسن [...]، ثمّ الكتْكَتَة أشدّ منهما، ثمّ القَهْقَهَة والقَرْقَرَة والكَرْكَرَة، ثمّ الاستغرابُ، ثمّ الطَّخْطَخَة [...]، ثُمَّ الإهْزاقُ وهي أنْ يذهب به الضحك كلّ مذهب».

(٧) عباس محمود العقّاد، **جُحا الضاحك المُضحك**، ص ٧.

طويل القامة والقصير، وبدين الجسم والنحيل، وصغير السنّ والكبير، وفيهم الواقف والجالس، والضاحك والمبتسم، والمتجهّم والعابس. فالصورة جمعت اختلافات عديدة ومع ذلك فقد قامت تعبيراً عن فكرة واحدة تتمثّل في إبراز عالم عائلة واحدة يؤلّف بين أفرادها الودّ والرابط الأسري(٨). كذلك يبدو لنا الفَكَهُ، صورة عائليّة تجمع بين أنواع عديدة ومظاهر مختلفة من التبسّم والتهكّم والسخرية والكوميديا، ومن ثمّ تُسهم هذه الأنواع الفرعية في نحت ظاهرة الفَكَهِ الكلّية(٩).

وقد شاع الفَكَهُ في العرب منذ أقدم العصور، فسمّت به أبناءها، فجعلت الفاكِه للرجل وفُكَيْهة للمرأة(١٠)، مثلما شاعت فيها أسماء من موادّ أخرى على علاقة بنفس الحقل الدلالي، منها بسّام من بسم وضحّاك من ضحك(١١). فالاصطلاح(١٢) ـ عند العرب وعند غيرهم ـ دالٌّ على شيوع اللفظ وانتشاره بين الناس وتفضيلهم له على غيره لأنّه يحتوي معاني فَكِهة مَرِحة.

---

(٨) انظر توسيعاً لهذه الفكرة كتاب: شاكر عبد الحميد، **التفضيل الجمالي، دراسة في سيكولوجية التذوّق الفنّي**.

(٩) ليس غرضنا عرض الأجناس الأدبيّة، لذلك نكتفي بالإحالة على بعض الدراسات: حمادي صمّود، **بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ**؛ عبد الملك مرتاض، **فنّ المقامات في الأدب العربي**، في: **مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم**؛
T. Todorov, «L'origine des genres littéraires», in *Problèmes de littérature arabe; Théories des genres,* (Collectif).

(١٠) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة فكه.

(١١) «ولفضل خصال الضحك عند العرب تُسمّي أولادها بالضحّاك وببسّام وبطَلْق وبطليق»، الجاحظ، **البخلاء**، ص ١٨.

(١٢) «الاصطلاح عبارة عن اتّفاق قوم على تسمية شيء باسم بعد نقله من موضوعه الأوّل لمناسبة بينهما كالعموم والخصوص، أو لمشاركتهما في أمر أو مشابهتهما في وصف أو غيرها»، التهانوي، **كشّاف اصطلاحات الفنون**، مادة اصطلاح.

٢ ـ في اختيار الحديث مدوّنةً

كثيراً ما نقرأ في الأخبار التي احتوتها كتب التراث أنّ الرسول «كان من أفكه الناس»[١٣] مع الصبية والأهل والأصحاب. فأردنا أنْ نتتبّع ذلك بالدرس، وقد بدا لنا أنّ هذه القولة ترفع من شأن الفَكَهِ وتنزّله منزلة رفيعة إذ اختارت له الرسول مثالاً وأنموذجاً. ولما كان الحديث النبويّ في الثقافة العربية الإسلامية هو المرجع الرسميّ المعتمد في أقوال النبيّ وأفعاله وصفاته وخُلقه وتصرّفاته، اخترناه مدوّنةً نتتبّع فيها مسألة الفَكَهِ ونتناوله بالدرس. فإذا ثبت لنا أنّ الفَكَهَ كان قد ساد الحديثَ مثلما ساده الجدُّ، ثبت لنا بالضرورة أنّ الإسلام لم يكن ترهيباً وتزمّتاً وطقوساً وعبادةً متواصلة، بل كان أيضاً فُسحة للترويح عن النفس وطرفة ونادرة ومزاحاً وضحكاً، وثبت لنا أيضاً أنّ الفَكَهَ لم يكن مقابلاً للمقدّس أو منافياً له ومرفوضاً، بل كثيراً ما يكون في خدمته إذا لم يكن أحد مكوّناته أصْلاً.

إنّ الحديثَ هو السنّة. والسنّة في الإسلام تُقارب القرآن وتضاهيه وتساويه أحياناً. وهي «تنزل عليهم (= الأنبياء) بالوحي كما ينزل القرآن إلاّ أنّها لا تتلى كما يُتلى القرآن، وقد استدلّ الإمام الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمّة على ذلك بأدلّة كثيرة ليس هذا موضع ذلك»[١٤]. فإذا كانت السنّة على هذا القدر من الأهمّية، وقاربت القرآن أو ضاهته أو ساوته، كانت لنا منطلقاً لوضع الأحكام ومجالاً لبحث إشكالية الفَكَهِ في الدين المقدّس.

ذلك ما دفعنا لاستنطاق نصوص الحديث. وقد اخترنا الكتب التسعة[١٥]

---

(١٣) انظر مثلاً: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة فكه؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٦، ص ٥٢؛ البيهقي، **دلائل النبوّة**، ج١، ص ٣٣١؛ الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٤.

(١٤) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص ٤.

(١٥) انظر قائمة المصادر والمراجع في عملنا، قسم المدونة.

مدوّنةً، استجلاءً لكلّ مظاهر الفَكَهِ. فإذا كان صحيح البخاري وصحيح مسلم قد حظيا بالتبجيل والتكريم وكثُر الوثوق بهما واعتبرا أكثر المجاميع تمثيلاً لعهد الرسول، فإنّ سُننَ أبي داود وسُنن الترمذي وسُنن النسائي الكبرى وسُنن الدارمي وسُنن ابن ماجة ومُسند أحمدَ وموطّأ مالك، وإنْ اشتركت مع الصحيحيْن في ما احتوياه، فقد وفّرت من المادّة ما غاب منهما. فالمجاميع احتوى بعضها ما لم يحتوه غيرُه، وأسهب بعضها في ما اختصر الآخر. فاستنطقناها جميعاً، بالبحث في أسفارها وبالاستئناس بما وفّرته الإعلامية من وسائل كانت لنا خير مساعد على حصر المادة. وقد حصّلنا بذلك مادّة وافرة غزيرة تفوق بأشواط ما يُمكن أنْ تجود به هذه الدراسة فرأينا ألاّ نُحمّلها إلاّ وسْعَها فانتقينا من المادّة ما يُناسبها، وفق ترتيب يُغطّي مُختلف مواقف الرسول ويشمل جميع الفئات ويتطرّق إلى شتّى مظاهر العلاقات الاجتماعية. وقد مكّننا هذا الترتيب من انتقاء ما يسمح بدراسة الفَكَهِ دراسة شاملة، وذلك من خلال التعرّض لأهمّ العلاقات التي تربط بين الله وعباده، وبين الرسول وعباد الله، وبين عباد الله في ما بينهم. وقد سمحت لنا هذه الدراسة برصد طبيعة العلاقات التي سادت المجتمع الذي وصفته الأحاديث واعتبرته مجتمع الرسول والإسلام الأوّل، وسمحت لنا أيضاً بالوقوف على وظائف الفَكَهِ كما تجلّت لنا في تلك الأحاديث.

ولما كان هذا هو هدفنا من عملنا، ركّزنا اهتمامنا على متون الحديث وبناها التركيبية والفنّية والقصصية، معتمدين التفكيك والاستنطاق، باحثين عن المعنى المصرّح به أو المسكوت عنه، وعمّا يخدم غرضنا في الدلالة على شيوع الفَكَهِ أو عدم شيوعه، وما يحظى به من منزلة هامّة أو لا يحظى به بمثل تلك المنزلة. فأهملنا ـ وفق هذا التوجّه ـ الاهتمام بسلاسل الرواة في الأسانيد، والبحثَ في مسائل الجرح والتعديل، والصحّة والخطأ، والقوّة والضعف، والمرفوع والموقوف والغريب والموضوع. فهذه أمور هامّة في حدّ

ذاتها، اهتمّ بها غيرنا وأسهب فيها[١٦]، ولكنّها لا يتّسع لها بحثنا ولا تخدم غرضنا. ذلك أنّ دراسة الظاهرة الاجتماعية دراسة شاملة لا تفرّق بين الأخبار الصحيحة والكاذبة، والأحاديث المرفوعة والموضوعة، أو القوية والضعيفة. وقد يُعبّر الحديث الذي عدّ كاذباً أو موضوعاً أو ضعيفاً أكثر من الحديث الذي عدّ صحيحاً أو مرفوعاً أو قويّاً عن الظاهرة التي نحن بصدد معالجتها.

كان اهتمامنا بالأحاديث يقتضي النظر فيها من حيثُ احتواؤها الفَكَهَ أو عدم احتوائها له. والفَكَهُ في الحديث لا يتجلّى في اللفظ وحده بل هو موجود في المعنى أيضاً. فكم من حديث احتوى لفظ ضَحِكَ أو بَسَمَ أو مَزَحَ أو عَجِبَ أو لَعِبَ أو لَهَا، وهو لا يُفيد في معناه الفَكَهَ ولا يُثير في النفس ضَحِكاً أو تبسّماً. فاستوجب عملنا استنطاق المتن كلّه للبحث عن المقام الضاحك أو المقال الناطق بذلك نطقاً صريحاً أو ما يُثير في النفس لذّة ومتعة. وحاولنا عند العثور على الفَكَهِ في هذا الحديث أو ذاك، أنْ نتبيّن وظائفه ونضبط استعمالاته المختلفة ونفهم الإطار الاجتماعي الذي كان يُكرّسه.

٣ ـ عناصر البحث

اعتبرنا بحثنا وحدة متكاملة، فجعلناه قسماً واحداً ذا فصول شديدة الارتباط في ما بينها، لأنّ كلّ فصل منها يمثّل وجهاً من وجوه المسألة ذاتها، وهي الفَكَهُ في الحديث النبويّ. وقد اعتبرنا الفَكَهَ فنّية من فنّيات الخطاب، فكانت وجوهه المختلفة التي خصّصنا لكلّ وجه منها فصلاً وسائطَ لتمرير ذلك الخطاب. وهذه الفصول جعلناها ستّةً هي التالية:

---

(١٦) انظر مثلاً: ابن قيم الجوزية، **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**؛ ابن عراق الكناني، **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**؛ محمد ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمّة**؛ محمد حمزة، **السنة النبوية، إشكالية التدوين والتشريع**؛ محمد حمزة، **علوم الحديث**.

الفصل الأوّل: في الفَكَهِ

وهو فصل جعلناه مدخلاً إلى دراسة المسألة فعرضنا فيه أهمّ مظاهر الفَكَهِ في الثقافتين الغربية والعربية الإسلامية. لم تكن غايتنا في هذا الفصل التأريخ للفَكَهِ ولا ضبط ما كُتب فيه وما قيل، بل محاولة رصد وظائفه والإلمام بالأسباب الثقافية والدينية التي كانت وراء اختياره فنّاً من فنون الخطاب مرّة، أو رفضه والدعوة إلى القطع معه مرّة أخرى.

الفصل الثاني: الفَكَهُ من عالم الله

وهو فصل جمعنا فيه الأحاديث التي مكّنتنا من القول إنّ الفَكَهَ من أصل إلهيّ. والأحاديث في هذا الغرض كثيرة، بدا الله فيها يضحك ويفرح ويعجب ويسخر. وقد شكّلت هذه الأحاديث عند علماء المسلمين مجالاً للبحث والدراسة عالجوا فيه مشكلة التشبيه أو التنزيه عنه. وقد حاولنا رصد مظاهر هذا الفَكَهِ والبحث في وظائفه المختلفة التي كانت الغاية منها السعي إلى ربط علاقة ودّ ويُسر بين الله وعباده، ونشر مبادئ الدين التسامح، والاقتداء بأعمال الله وإقامتها نموذجاً في الأرض.

الفصل الثالث: الفَكَهُ والدينُ اليُسرُ

وهو فصل في فَكَه الرسول الخاصّ بنشر دين اليُسر بين الناس، فيسمح إذا ما خالف المسلم تعاليم الدين بكفارة تكاد تكون رمزاً لا غير. ويتمّ ذلك في كلّ مجال يطغى عليه ضحك الرسول ومزاحه وحتى سخريته من شخصيات اشتهرت بالشدّة مثل عمر. فيُصبح في هذا الإطار الصوُم خفيفاً على المسلم، والجنّة في متناول يديه، والكفارة شيئاً من التمر يمنحه الرسول نفسه لمن كُتبت عليه الكفارة.

الفصل الرابع: الفَكَهُ في حضرة الأهل

وهو فصل جعلناه صورة لما شاع عن الرسول أنّه كان من أفكه الناس مع

أهله. وقد جمعنا فيه وحلّلنا الأحاديث التي بدت العلاقة فيها بين محمد وزوجاته علاقة ودّ ومداعبة بالكلمة اللطيفة والإشارة الخافية والمزاح الذي لا غاية له غير إقامة عالم من البهجة والسرور في بيت الرسول.

الفصل الخامس: الفَكَهُ اللعبُ

وهو فصل جمعنا فيه الأحاديث التي بدا فيها الرسول شخصاً فَكِهاً يُلاعب الأطفال ويُجاري البدو والأعراب في سذاجتهم السمحة ويُمازح العجائز. هنا يغيب عالم الدين والتعليم والتقوى ليبرز محمد بشراً يأكل كما يأكل الناس ويمشي في الشوارع ويلعب ويلهو.

الفصل السادس: الفَكَهُ في حضرة الصحابة

وهو فصل بدا فيه الرسول مُحباً لصحابته، حريصاً على أنْ يوفّر لهم كلّ ما من شأنه أنْ يجعل حياتهم أرفه وأجمل. كان يسمح لهم بالمزاح في ساحة الوغى، ويُمكّنهم من متعة الزواج عام الفتح، فيشعرون بالرفق واليُسر. وكانوا يمزحون فيضحك ويمزح فيضحكون، فيبدو الفَكَهُ فضاءً للجميع يُؤتون فيه ما يشاؤون مقتدين في ذلك بالرسول.

وقد ختمنا بحثنا بعد هذه العناصر التي عبّرت عن منهجنا في الاختيار والتحليل بخاتمة أردناها فضاءً للتأمّل في ما صارت إليه الأمور في عالم الدين. كان الدين ـ كما تجلّى لنا ذلك في الأحاديث ـ سمحاً يسيراً فَكِهاً، ثمّ أصبح تزمّتاً وعُنفاً وانغلاقاً على النفس. فتساءلنا عن أسباب هذا الانقلاب الذي أثّر في الثقافة العربية الإسلامية، فتوقّف عطاؤها، وتجمّدت فيها الأفكار وأصابها الركود.

الفصل الأوّل

في الفَكهِ

استأثر الفَكَهُ باهتمام الثقافات المتنوّعة والحضارات المختلفة، فدرسه الفلاسفة والعلماء والأدباء والفنّانون، وزخرت به أعمالهم قديماً وحديثاً، حتى غدا إطاراً للتفلسف وعلماً راسخاً وفنّاً في الرواية والمسرح وشكلاً من أشكال الفنون التشكيلية، وضرباً من ضروب العلم والإبداع والخلق.

١ ـ الفَكَهُ في الثقافة الغربية

١ . ١ ـ التنظير المؤسّس للفَكَهِ: اليونان هم الأصل

لقد عايشت الثقافة الغربية الفَكَهَ منذ سقراط لمّا اصطنع في تعليمه الفلسفي شخصية الساذَج الحذِق واختفى وراء قناع التجاهل والتواضع. كان يسأل تلاميذه أسئلة ساذَجة اتّخذت نسق البداهات التي استقرّت في أذهانهم. ثمّ كان ينقض تلك البداهات ببداهات أخرى. فيُصيب الدوارُ التلاميذ. عندها يسعفهم بأسئلته الإنكارية التي تحمل إجابات منطقية. كان سقراط يستعمل هذه الطريقة في التعليم وهذه البراعة التربويّة ليُحارب السفسطائيّة ويُرشد تلاميذه إلى الحقيقة.

كانت طريقة سقراط في التهكّم تبدو كاذبة، إلاّ أنّها كانت تصطنع الزيف الموقوت للوصول إلى اليقين السرمديّ. وقد شبّه شوبنهور هذا الأمر في ما بعد بقوله: «إنّ الضحك شبيه بقياس منطقيّ تكون القضية الكبرى فيه مؤكّدة،

ويتمّ الوصول إلى القضية الصغرى فيه، أي غير المتوقّعة، وإلى حدّ ما، من خلال الحيلة أو المغالطة، وتكون نتيجة هذا التركيب الجديد بين القضيّتيْن، الكبرى والصغرى، هي الضحك»[(١)].

كان سقراط أنموذجاً خاصّاً للتهذيب عن طريق استعمال الحيلة والمغالطة بأسلوب تهكّمي بنّاء. فهو لم يكن مُهرّجاً يُضحك الآخرين، ولم يكن يسخر من عيوبهم. لكنّه كان في الوقت نفسه مراوغاً، يُبطن غير ما يُظهر، ويُظهر غير ما يُبطن. كان يتهكّم، ولكنّ تهكّمه لم يكن عدوانيّاً، بل كان محاورة بين الفَكَهِ والتوليد الذي يقتضي استخلاص الحقيقة الكامنة في الخصم وتبديد ما يغشاها من ضباب بفضل التوجيه السليم. وكانت المحاورة تتمّ في إطار من التفكّه يُضفي عليها ضرباً من الاتّزان والهيبة. لم يكن سقراط يُسرف في الضحك بل كان يُخطّط محاوراته بشكل يسمح «بنوع من الضحك الأدبي المهذّب، ضحك يسرّ ولا يضرّ لأنّه ليس عدوانيّاً»[(٢)].

وقد وجد أفلاطون في شخصية سقراط أفضل مساعد على تمرير أفكاره حول الضحك والتفكّه، رغم أنّه قام أحياناً معارضاً له عندما تعلّق الأمر بتشييد جمهوريته وبنائها على أسس صحيحة جادّة. كان واعياً بالآثار الخطيرة التي يُحدثها الضحك فلم يغفل عن التحذير منه وذكر مضارّه. وقد وضع في حسبانه على نحو خاصّ قدرة الضحك على تخريب الوضع الراهن في الجمهورية وإفساده النظام فيها، وكذلك «قوّته الهائلة على تحويل خطوط الدفاع القويّة للسلطة إلى مجرّد أبنية هشّة»[(٣)].

---

(١) مذكور في: A. Schopenhaur, *The world as will and idea*, p. 91. شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك**، ص ٩٤.

(٢) شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك**، ص ٦٨. وقد نقله عن:
B. Sanders, *Sudden Glory: Laughter as a subversive history*, p. 93.

(٣) شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك**، ص ٦٥.

كان الفَكَهُ حسب رأيه ألدّ أعداء السلطة. وكانت السخرية عنده سلاحاً يقوم بدور «محكمة القانون». فكان يرى ـ بناءً على ذلك ـ أنّ التحكّم في انفعالات الناس أهمّ من التحكّم فيهم. وما دام الضحك انفعالاً وجب على «حكّام الجمهورية» أنْ يتصدّوا له حتى لا يتجاوز حدّه فينقلب إلى ضدّه ويصبح وبالاً على هؤلاء الحُكّام، يعمل عملاً مضادّاً لعملهم.

وقد عمل أفلاطون في جمهوريته على خلق حواجز منيعة بين الخاصّة والعامّة حتى يتمّ الفصل بين المجموعتين، لأنّ في اختلاطهما مساساً بمصالح السادة وأصحاب السلطان ومناصبهم. وقد أدان في **الجمهورية** الشاعرَ هوميروس الذي صوّر الآلهة تضحك سخرية من هيفياستوس، لأنّ الآلهة لا يمكن أن تنزل إلى مستوى البشر وتشاركهم الحياة(٤).

أمّا أرسطو فقد رفع من شأن الفَكَهِ، ونظّر له تنظيراً ما زال مفعوله سارياً بين الناس، وجعله أحد وجهَي التأليف في الشعر وهو الخاصّ بالكوميديا. وقد قرن بين الكوميديا والتراجيديا في فصل شهير من كتابه **فنّ الشعر**، وفصل بينهما فصلاً واضحاً. كان الفَكَهُ عنده أساس الملهاة التي هي «محاكاة للأراذل من الناس، لا في كلّ نقيصة، ولكن في الجانب الهزليّ الذي هو قسم القبيح، إذ الهزليّ نقيصةٌ وقبحٌ بغير إيلام ولا ضرر: فالقناع الهزليّ قبيحٌ مشوّهٌ، ولكن بغير إيلام»(٥).

إنّ الكوميديا عند أرسطو محاكاة لأراذل الناس، والقناع الذي يُثير الضحك شيء قبيح شُوِّه ولكن بطريقة لا تحدث الألم. وقد لاحظ بعض النقّاد أنّ تعريفاً كهذا ينطبق أكثر على الفكاهة، ومن ثمّة على الفَكَهِ بصفة

(٤) Platon, *La république*, p. 140، وانظر قصّة هيفياستوس *Héphaïstos* في: P. Grimal, *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine*, article: *Héphaïstos*.

(٥) أرسطو، فنّ الشعر، فصل: في الهزليّ والكوميديا والفارق بينهما وبين التراجيديا، ص ١٦.

عامّة، ولا يعدّ تعريفاً للكوميديا، وأنّ حديثه عن القبيح متأثّر بتعريف أفلاطون للسلوك السيّئ، مع تأكيد خاصّ من أرسطو على الجانب الحميد غير الضارّ من الضحك(٦). ولهذا الأمر قصر أرسطو الممارسات المثيرة للضحك على الأخطاء غير المؤلمة أو تلك التي تمسّ سلوكات الأفراد في المجتمع، وحرّم الضحك من المعوقين جسداً أو عقلاً. وقد أكّد أرسطو، إضافة إلى ذلك، على إمكانيّة التصعيد من هذه الرغبات البغيضة في السخرية من عيوب الآخرين وتوجيهها نحو الدراما، واستشهد على ذلك بما احتوته التراجيديا من أقنعة تبدو قبيحة ومشوّهة ولكنّها لا تُسبّبُ أيّ ألم أو ضرر.

كان أرسطو أوّل من ارتقى بالفَكَهِ إلى مستوى الفنّ والجمال. فقد اعتبر أنّ «العنصر الضارّ والقبيح ـ حتى وإنْ بدا ضروريّاً لإثارة الضحك ـ أمر غير مرغوب فيه من وجهة نظر جماليّة فوجب التخلّص منه»(٧).

ولكننا نلاحظ أنّ هذا القانون الذي وضعه أرسطو للكوميديا، بأنْ جعل الفَكَهَ فيها نقيصةً بغير إيلام ولا ضرر لم يتمّ تطبيقه، بل كثيراً ما أضرّت الكوميديا بمَنْ تناولتهم بالسخرية والتهكّم. وخير دليل على ذلك ما ذكره أرسطو نفسه من عراقيل وقفت حاجزاً أمام انتشار الكوميديا وتطوّرها، إذ قال: «والوالي لم يسمح بتقديم جوقة من الممثّلين الهزليين إلاّ مؤخراً»(٨)، وفي ذلك ما يُشير إلى أنّها كانت تعرض للحُكّام أنفسهم بالنقد، فلم يكن موضوعها إذن أراذل الناس وحدهم، بل أفاضلهم أيضاً.

من هذا المنطلق نتبيّن وجهة نظر أرسطو في استخدام الفَكَهِ وسيلةً للدفاع

---

(٦) S. Attardo, *Linguistic theories of Humor*, p. 12.؛ شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك**، ص ٧٩.

(٧) J. Roeckelein, *The psychology of humor, a reference guide and annotated bibliography*, p. 97.؛ شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك**، ص ٧٩.

(٨) أرسطو، **فنّ الشعر**، ص ١٦.

وتغيير الوضع الراهن[٩]. وقد اهتمّ أرسطو بالفوائد العمليّة للفَكَهِ، فاعتبر الدعابة والنكتة من بين الآليات التي يمكن أنْ تدعم براهين الخطيب، ولكنّه أوصى بالاعتدال في ذلك واتباع الحذر في استخدام الدعابات اللفظية أو غير المناسبة. وكان يرى أنّ التهكّم مناسب للمتحدّث لتمرير خطابه، على أنْ لا يكون ذلك تهريجاً، لأنّ التهريج أمر ينبغي اجتنابه تماماً[١٠]. إنّ في هذا دعوةً من أرسطو إلى التفكّه ونبذ التهريج وتنصيصاً على الاعتدال والوسطيّة. فمتى بالغ الإنسان في التهريج والضحك أصبح الأمر مستهجناً وغيرَ لائق بل ومبتذلاً أيضاً.

يُعَدّ أرسطو أوّل مَنْ وضع الخطوط الكبرى والحدود الواضحة لدراسة آلية الفَكَهِ. كما كان أوّل مَنْ علّق على أنواع عديدة من الدعابات والتوريات والنكات والظهور غير المتوقّع للكلمات، «فمعظم التغييرات الرشيقة تنشأ عن المجاز، وعن نوع من التمويه يُدركه السامع في ما بعدُ، ويزداد به إدراكاً كلما كان الموضوع مغايراً لما يتوقّعه [...] واللطيف الرشيق من الأمثال هو ما يوحي بمعنى أكثر ممّا يتضمّنه اللفظ»[١١].

إنّ ما تقدّم من عملنا يبيّن بجلاء أهميّة الفَكَهِ عند الفلاسفة اليونان. فقد استرعى انتباههم على اختلاف توجّهاتهم ومناهجهم فخاضوا في أمره وحاولوا حصر وظائفه والطرق المؤدّية إلى الإفادة منه على خير وجه. وقد وجدوا في الميثولوجيا اليونانية كما تجلّت في التراجيديا والكوميديا ما حفزهم على الاهتمام بأمر الفَكَهِ. فالميثولوجيا اليونانية ـ رغم تحرّكها في إطار الجدّ ـ أفسحت مجالاً واسعاً للفَكَهِ واقتحمت مجالات الثقافة المختلفة بنظرة لا

(٩) أرسطو، **فنّ الخطابة**، ص ص ٢٥٤-٢٥٥.

(١٠) انظر: S. Attardo, *Linguistic theories of Humor*, p. 20.؛ شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك**، ص ٨٦.

(١١) أرسطو، **فنّ الخطابة**، ص ٢٢٦.

تخلو من سخرية من المقدّس. لقد كان نظام المعتقدات في المدينة الفاضلة يسمح بالتعرّض للآلهة ووصف صراعاتهم في ما بينهم أو مع الإنسان. وقد اهتمّ المسرح اليوناني بتلك الصراعات وشخّصها وأخرجها إلى الناس في ثوب جميل بديع لا في التراجيديا وحدها ولكن كذلك في الكوميديا. والناظر فيهما يلاحظ بيُسر قيام الكوميديا سنداً للتراجيديا في هذا المجال. فإذا كانت التراجيديا قد اضطلعت بإبراز ما من شأنه أنْ يكون مدعاة للتأثّر والبكاء في عالم الدين والمعتقد فإنّ الكوميديا قد اضطلعت بإبراز ما من شأنه أنْ يكون مدعاة للسخرية والضحك(١٢).

١ . ٢ ـ الفَكَهُ والعراقيل المُجحفة: الكنيسة هي السبب

إنّ هذه النظرة إلى الدين القائمة على التعرّض للمعتقد هزلاً وجدّاً على حد السواء، وجدت كثيراً من التراجع في الثقافة الغربية، الوريثة الشرعية للثقافة اليونانية. فلم تُولِ الفَكَهَ في بداية أمرها اهتماماً كبيراً. وقد كانت في ذلك متأثّرة بالصبغة الجادّة التي كان ينشرها الكتاب المقدّس. فالكتابُ المقدّسُ ـ سواء في العهد القديم الذي يسوده الشعورُ بالاضطهادِ والتعرّضُ الدائمُ للامتحانِ العسيرِ ووجوبُ تَحمّلِ الويلاتِ والصبرِ على الشدائدِ، أو في العهد الجديد الذي يقوم على القربانِ والتضحيةِ بالنفسِ ـ ارتقى بالإله وجعله كلمةً لا تَقبلُ السخريةَ والضحكَ. لذلك تحرّجت الثقافة الغربية من الفَكَهِ وهي ترسم معالمها الأولى. لقد بقيت طويلاً تحت سلطة الكنيسة، تأتمر بأمرها وتطوّع آدابها وفنونها لتعاليمها، فلم يظهر فيها الفَكَهُ في البداية إلاّ باحتشام شديد، وإنْ ظهر ففي ثقافة العامة وحدها ولم يطل الثقافة العالمة إلاّ لماماً.

---

(١٢) B. Sarrazin, «Le rire et le sacré d'Orient en Occident», in *Humoresques*, n° 12, juin 2000, p. 11.

كان موقف الكنيسة من الفنون عامّة وفنون الفرجة خاصّة موقفاً متقلّباً متذبذباً، يشهد على ذلك الاختلاف الواضح في آراء آباء الكنيسة الذين وضعوا أسس التنظير المسيحي. لقد دعا ترتليان Tertullien في القرن الثاني إلى نبذ فنون الفرجة من مسرح وسيرك وغيرهما نبذاً تامّاً وأوصى بالإقلاع عن التردّد على الهياكل المخصّصة لتلك الفنون. كان لا يرى فرقاً بين المسرح والسيرك وشتّى أنواع اللّعب. كان يعتبرها جميعاً بيوتاً سيّئة السمعة فيرسل عليها وابلاً من الأوصاف المنفرة منها. وكان يخصّ المسرح منها بكره شديد ويرميه بالكفر ويعدّه هيكلاً أقيم احتفاءً بفينوس Vénus إلهة الحبّ وباخوس Bacchus إله الخمر، وهما رمز الدعارة والسكر حيث يرتع الشيطان ويلعب(١٣). وإذ تبنّت الكنيسة آراء ترتليان Tertullien ودعت إلى الاقتداء به، أثّر تنظيره في الثقافة فنبذت المسرح، تراجيديا كان أو كوميديا، وغاب سيل الدموع الذي كانت تبعثه المآسي وقهقهات الناس التي كانت تبعثها الملاهي.

لم يعد الاعتبار إلى المسرح إلاّ في النصف الثاني من القرن الرابع لما قام القدّيس أوغسطين Saint Augustin يُنظّر بدوره للفنون ويدعو إلى تجاوز النظرة التي هضمتها حقّها. وقد جاء في اعترافاته كثير من التغنّي بالمسرح الذي رأى فيه متعة ولذّة لا مثيل لهما. فهو يملك على الإنسان نفسه بما يحويه من صور الشقاء والمآسي، وما يُخلّده من نبيل المشاعر، وما ينشره من لواعج الهوى والعشق(١٤). كان القدّيس أوغسطين فرصة فريدة في تاريخ الكنيسة. كان فرصة للفنّ ليعود مُكرّماً مُبجّلاً، فعاد المسرح إلى سابق عهده، فرجة للناس وفسحة، واكتسب من جديد اهتمام الناس به، كوميديا كان أو

(١٣) Tertullien, *Traités sur l'ornement des femmes, les spectacles, le baptême et la patience*, pp. 181-187.

(١٤) Saint Augustin, *Les Confessions*, pp. 50-51.

تراجيديا. لكنّ الكنيسة سرعان ما جعلت المسرح مسرحيْن، وذلك وفق تقسيمها العالم. فمثلما كان العالم عندها عالميْن، عالماً دنيويّاً مُدنّساً وعالماً دينيّاً مُقدّساً، جعلت المسرح مسرحيْن، مسرحاً دنيويّاً منبوذاً ومسرحاً دينيّاً مرغوباً فيه.

كانت العامّة وفق هذا التقسيم الذي وضعته الكنيسة تمثّل العالم الدنيوي المدنّس، فتميّز عالمها بالإغراق في المادّة واللذّات والشهوات، واعتقد الناس بالمعجزات وقدرة الجنّ والشياطين على التدخّل في حياتهم، واهتمّوا إضافة إلى ذلك بالأفراح والمسرّات واللعب واللهو(١٥)، فكان من نصيبهم مسرح دنيويّ شعبيّ. أمّا رجال الكنيسة والعلماء والكتّاب فيُمثّلون العالم الدينيّ المقدّس، فكان من نصيبهم المسرح الدينيّ الرسميّ.

كان المسرح تشخيصاً غايته الفرجة فاستعمل كلّ الوسائل لتبليغ رسالته، ومن ذلك الضحك. وقد انقسم الضحك بدوره ضحكيْن، واحداً يستخدمه المسرح الدينيّ وسيلة لتبليغ رسالته المتمثّلة في فرض العالم المقدّس ونشر تعاليم الكنيسة، وواحداً يُستخدمه المسرح الشعبي وسيلة للفَكَهِ والسخرية من العلاقات الاجتماعية ومن تعاليم الكنيسة والدين. وقد تعقّبت الكنيسة هذا الصنف الثاني وضيّقت عليه الخناق حتى بات مهمّشاً، وشجّعت المسرح الديني وقامت على أمره حتى بات سجلاّت تُدين المنكر والفاحش اللذيْن يقطعان مع الجدّ والوقار وينزعان الهيبة عن الإنسان(١٦). ورغم ذلك فإنّ الكنيسة، بما أقامته من أعياد، كانت تسمح باللهو والفَكَهِ. وقد مثّل عيد

---

(١٥) انظر:

A. I. Gourévitch, «Le comique et le sérieux dans la littérature religieuse du Moyen-Age», in *Diogène,* n° 90, pp. 73, 84.

(١٦) Ch. Mazouer, «Rire et religion dans le théâtre médiéval», in *Humoresques,* n° 12, pp. 131-132.

المجانين بالنسبة إلى الكنيسة الوجه الآخر لما كانت تسمح به. فقد شرّعت لهذا العيد مرّة كلّ سنة، وجسّد أمره عديد الكتّاب[١٧] بدقّة متناهية وأوغروا في وصفه، ورأوْا فيه فرصة العامّة في الفرح. فكان الناس يرقصون ويغنّون بجنون وهيجان، ويقومون بألعاب مسرحية بهلوانيّة، ويتجاوزون الحظر المفروض على الحرمات، ويجهرون بكلّ ذلك في الأماكن العامّة والساحات[١٨]. ولما تفاقم الأمر سعت الكنيسة إلى ضرب الرقابة على هذا المسرح الشعبي الذي كان يُصوّر حياة الناس ويسخر من النواميس والقواعد الجاهزة، وشجّعت مقابل ذلك المسرح الديني الذي كان يدعو إلى إشاعة كلمة الكتاب المقدّس ونشر تعاليم الكنيسة وصيانة مصالحها ومصالح الإنسان المؤمن[١٩].

كان مسرح الحياة يُصوّر مختلف حالات الإنسان وحاجاته ورغباته وكبته. وكان مسرحاً ضاحكاً ساخراً يستحضر ذلك الإنسان الذي تعمل الكنيسة والمجتمع على طمسه وإزاحته، فأشاع الفَكَه في أوساط الناس بتصويره عالماً كأنّه مُفارق أو بدون ربّ، تغيب منه صورة الآخرة والجزاء والعقاب، وتحضر الحياة الدنيا بلذّاتها وممنوعاتها. كان الوجه المثير الذي يُشكّل قفا المسرح الديني. كان تصعيداً للكبت وعلامة رفض للمسيحية وأخلاقها[٢٠]. أو كان،

---

(١٧) انظر:

A. I. Gourévitch, «Le comique et le sérieux dans la littérature religieuse du Moyen-Age», in *Diogène,* ° 90, pp. 70-74.

(١٨) Ch. Mazouer, «Rire et religion dans le théâtre médiéval», in *Humoresques,* n° 12, p. 136.

(١٩) Ch. Mazouer, «Rire et religion dans le théâtre médiéval», in *Humoresques,* n° 12, p. 137.

(٢٠) انظر:

J. Delumeau, *La piété populaire au Moyen-Âge,* t. I, p. 181-195, cité dans Ch. Mazouer, «Rire et religion dans le théâtre médiéval», in *Humoresques,* n° 12, p. 137.

بتعبير آخر، مزجاً بين عالم مقدّس وعالم مدنّس لا يخضع لأي معيار أخلاقيّ أو دينيّ باعتباره ضرباً من التقريب بين العالم العلويّ والعالم السفليّ. وقد نتج عن هذا المزج بين العالمَيْن حالات من التزاوج بين التراجيديا والكوميديا خضعت لنواميس الإبداع الذي كان نتيجة خيال خصب ميّز إنسان العصر الوسيط وأزال الحدود بين الممكن واللاممكن، بين الجميل والقبيح، بين الجدّ والهزل، فاتخذت الأمور شكلاً جديداً وبناءً جديداً(٢١).

١ . ٣ ـ الفَكَهُ والنفسُ التوّاقةُ إلى الضحك

في هذا الإطار الذي حاولنا ضبطه ووصفه في ما تقدّم من عملنا، نشأت الاحتفالات التي صاحبتها الطقوس والشعائر الشعبية وسط كمّ هائل من الصخب والهيجان فتحوّلت بسرعة إلى كرنفال للضحك والهزل. هنا وجد الفَكَهُ خير فضاء للتطوّر، فتطوّر مرتبطاً بثقافة العامة، معبّراً عن طموحاتها المختلفة ومشاعرها المتنوّعة التي كانت وليدة كَبْتٍ مُزمن كانت تُعانيه(٢٢).

وقد انبرى فرويد لهذا الكبت يُعالجه، فدرس الفَكَهَ من خلال دراسة النكتة والنادرة، وأقرّ بأنّه مثل الحلم، تُسيّره القوى الليبيدية، وينشأ من رغبة مكبوتة في اللاوعي يتحوّل بموجبها آلة دفاعية لمواجهة العالم الخارجي المهدّد للذات ويجعل من طاقة الضيق شعوراً بالمتعة التي هي ذات طبيعة جمالية(٢٣).

---

(٢١) انظر:

A. I. Gourévitch, «Le comique et le sérieux dans la littérature religieuse du Moyen-Âge», in *Diogène*, n° 90, p. 86.

(٢٢) انظر لمزيد التعمّق المرجع السابق، ص ٦٧ وما بعدها.

(٢٣) انظر:

S. Freud, *Le mot d'esprit et sa relation à l'inconscient*, pp. 289-322; A. Nysenholc & A. W. Szafran, *Freud et le rire*, pp. 18-23.

اهتمّ فرويد بفنيّات النكتة واعتبرها تركيباً خيالياً ومجازياً يحدث نتيجة الربط غير المباشر بين شكلها الخارجي المادّي ومحتواها الداخليّ المجازيّ. وقد نشأ عن هذا الاهتمام دخول الفَكَهِ الدراسات العلمية من بابها الكبير، فأصبح موضوعاً علمياً للبحث وبات أرقى الإنجازات النفسية للإنسان.

لقد اعتنى فرويد بالنكتة اليهودية وحلّل عدداً هامّاً من النكت انبرت لها بدورها الدراسات الكثيرة بالشرح والتحليل[٢٤]. وقد اتفقت تلك الدراسات في معظمها على أنّ اليهودي كان «يضحك كي لا يبكي» (Rire pour ne pas pleurer)، وأنّ الفَكَهَ اليهوديّ كان آلية دفاعية (Mécanisme de défense). وقد بيّنت هذه الدراسات أنّ هذا الفَكَهَ تطوّر عند اليهود في مراحل لاحقة تمّ فيها التخلّص من الجدّ المفرط الذي ساد أسفار العهد القديم والكتابات اليهودية الأولى التي خلت من كلّ روح فَكِهَة. وقد علّل بعضهم ذلك بأنّ «اليهود كانوا شعباً مُضطهداً، فانصرفوا عن الضحك والمزاح والفُكاهة»[٢٥]. ولكنّ هذا التعليل لا يُمكن أنْ يكون تبريراً مُقنعاً لخلوّ العهد القديم والكتابات اليهودية الأولى من كلّ فَكَهٍ. فالفَكَهُ ينمو عن طريق النكتة التي كثيراً ما تكون نتيجة ظروف صعبة ومُلمّات جسام وظلم من السلاطين كبير وحروب شديدة. فالضحك سمة إنسانيّة بامتياز لا يتراجع أو يتقهقر إلاّ تحت سلطان الدوافع الأخلاقية والدينية عندما يُوجّه القائمون على الدين وسدنته سهامهم إليه ويُضيّقون عليه الخناق ويُسهبون في النهي عنه ويصبّون وابل الشتائم على كلّ مَنْ سوّلت له نفسه أنْ يكون مُتفكّهاً مزّاحاً، بل ويصل بهم الأمر أحياناً إلى

---

(٢٤) انظر:

J. Klatzmann, *L'humour juif*, pp. 115-124; S. Weber, «Le temps d'un rire», in *Critique*, n° 488-489, janvier-février 1988, pp. 61-76.

(٢٥) انظر: زكريا إبراهيم، **سيكولوجية الضحك والفكاهة**، ص ٢٢١. وقد أورد ذلك أخذاً عن كتاب:

L. Price, *Dialogues of Alfred North Whitehead*, pp. 163-285.

اضطهاده أو طرده أو نفيه أو الإلقاء به في السجن(٢٦).

إذا كان تنظير فرويد ومَنْ لفّ لفّه في باب الفَكَهِ قد ارتبط بالنفس وأمراضها وما تُعانيه من كَبْت، وباليهود وما شعروا به من اضطهاد، فإنّ تنظير هنري برغسون في هذا المجال كان أعمّ وأشملَ. وهو يُعَدّ أهمَّ تنظير على الإطلاق، عالج فيه مسألة الفَكَهِ من خلال دراسة الضحك دراسة علمية دقيقة. وقد وضع للضحك مفهوماً واضحاً، وعدّه أمراً ميكانيكياً آليّاً، وحدّد له ثلاثة شروط يحدث بمقتضاها، وهي ارتباطه بما هو إنسانيّ وحدوثه في حالة غياب الشعور والعاطفة ومخاطبة المُضحك العقل المحض، وضرورة اضطلاعه بوظيفة اجتماعية فيقوم تصحيحاً للعيوب المرتبطة بالآلية والجمود والتصلّب ونقصان المرونة والانعزال والغرور وغير ذلك من العيوب(٢٧). وقد أثّر برغسون منذ وَضَعَ نظريته في الضحك في الدراسات على اختلاف أنواعها، فأفاد منه الفلاسفة وعلماء النفس وأصحاب النظريات الأدبية والروائيون وانبروا للفَكَهِ فعالجوه موضوعاً يستحقّ البحث والبسط والشرح والتفسير، وبسطوا آراءهم فيه، ودعوا إليه بوصفه ضرورة فيزيولوجية ومخلّصاً من السأم، وحذّروا من الإكثار منه حتى لا ينقلب فساداً ودعارة.

وإذ لا يتّسع المجال هنا لاستعراض ما كُتب في الموضوع من دراسات وروايات ورسائل، نكتفي بالوقوف عند رواية واحدة تُعدّ في الوقت نفسه عملاً إبداعياً طريفاً وبحثاً في ماهية الفَكَه والتنظير له تنظيراً علميّاً. وهي رواية **اسم الوردة**، وضعها أمبرتو إيكو، الروائي الإيطالي وعالم السيميوطيقا الشهير.

تدور أحداث الرواية في ديْر حيث يحتفظ راهبٌ ذو وقار وورع وتقوى

---

(٢٦) زكريا إبراهيم، **سيكولوجية الضحك والفكاهة**، ص ٢٢٢.

(٢٧) H. Bergson, *Le rire*, pp. 2-8.

بمخطوط ذاع صيته في الآفاق ولكنّه عُدّ من قبلُ مفقوداً. لم يكن هذا المخطوط شيئاً آخر غير الجزء الثاني من كتاب أرسطو **فنّ الشعر** الذي خصّصه للكوميديا. اشتهر أمر المخطوط وشدّ الناس الرحال إلى الديْر يستعطفون الراهب حتى يُمكّنهم من الاطّلاع على الوثيقة الفريدة من نوعها التي كان يُقال إنّها قادرة على بعث السرور في أتعس النفوس وعلى الارتقاء بالإنسان إلى عالم لا يشقى فيه ولا يسأم.

لم يمنع الراهبُ الزُوّارَ من الاطلاع على المخطوط الذي كان يحتفظ به. ولكن كلما دخل زائر الغرفة واطّلع على المخطوط خرّ ميّتاً، حتى تحوّل الديْر الذي كان مكان عبادة وطقوس وصلاة وصوم وزهد إلى مقبرة مُخيفة موحشة. تفاقم الأمر وكثرت الشائعات العجيبة وأذيعت الأخبار الغريبة. وتدخّلت الشرطة للبحث عن السرّ الذي كان وراء المخطوط وتهافت الزوّار عليه، وعن أسباب الموت الذي كان يضرب كلّ زائر اطّلع على المخطوط، وبعد التحقيق والتفتيش والسؤال وضمّ الأشتات بعضها إلى بعض والاعتراف من الراهب الوَرِع التقيّ، وقف المحقّق، ومن ورائه الناس أجمعين، على حقيقة الأمر الذي اختفى عن العيون ولم تنتبه إليه العقول مدّة من الزمان.

كان المخطوط مسموماً. لقد اهتدى الراهبُ إلى حيلة جهنّمية. سمّم أوراق المخطوط ورقةً ورقةً. كانت الأوراق قد التصق بعضها ببعض لقِدَمِها وتآكلها، فاضطُرّ المتشوّق إلى قراءة المخطوط إلى أنْ يُبلّل إصبعاً أو إصبعيْن ببعض اللعاب حتى يقلب الأوراق. فكان يُدخل إصبعه في فيه، ويمسّ به لسانه، ثمّ يقلب الورقة، ثمّ يعود إلى إدخال إصبعه في فيه، ومَسِّ لسانه به من جديد وقَلْبِ ورقة أخرى. وتتكرّر العملية مرّاتٍ ومرّاتٍ ويرتفع السمّ من المخطوط إلى لسان القارئ بعدد تلك المرّات، حتى يفعل فيه السمّ فعله ويسقط بلا حراك.

كانت الضحيّة «تتسمّم من تلقاء نفسها وبقدر رغبتها في القراءة»[٢٨].
وكانت تلك هي رغبة الراهب الشنيعة أنْ يُرسل بالقارئ إلى الموت حتى لا يعرف ما كتب أرسطو، لأنّ «كلّ كتاب لهذا الرجل قد حطّم جزءاً من المعرفة التي جمعتها المسيحية طيلة قرون»[٢٩]، ولأنّ كتابه في الكوميديا أشنع ما كتب ومن شأنه أن يهدم ما بقي من المسيحية، فكان يظنّ أنّه بإلغائه هذا الكتاب يُلغي الضحك بأسره ويُسهم في تواصل مسيحية الكتاب[٣٠]. وقد أصرّ الراهب لما اكتُشف أمره، على أنْ يظلّ الناس يجهلون ما جاء في المخطوط فلا يطلّع عليه قارئ. فسارع، لمّا ضيّق عليه المفتّش الخناق، إلى التهام أوراق المخطوط المسموم والقذف بما بقي منه في النار التي اشتعلت في الديْر وأتت على ما فيه من ذخائر الكتب.

في عالم الرواية والخيال والتفتيش، تبرز في رواية **اسم الوردة** أفكار فلسفيّة ذات مغزى عميق، تبعث على التفكير، وتطرح صورةً للفَكَهِ في حاجة إلى درس وبحث وإعمال رأي. كان خوف الثقافة التي صبغتها المسيحية من الفَكَهِ شديداً. لذلك تصدّت على مرّ العصور لكلّ ما اعتبرته خطراً على الجدّ الذي كانت تنشره بين الناس عبر تعاليمها المقدّسة التي لا تترك مجالاً للمسرّات والضحك واللذّة والنشوة. كان الضحك عندها انحلالاً ومسخاً للطبيعة البشريّة وعالماً سوقيّاً تمثّله العامّة. وكانت لا تغضّ عنه الطرف إلاّ في الأعياد الشعبية حيث تسمح بهامش صغير للتسلية يعود الناس بعده إلى العبادة قانعين. ولكنّ خوفها من أنْ يتصدّى الفلاسفة للضحك ويُبرزوا مزاياه على العامة ويعلّموها كيف تتخلّص من ظلم الحكّام ورجال الدين كان كبيراً. كانت ترى أنّ الضحك إذا ما اهتمّ به الفلاسفة والعلماء انقلب سلاحاً في

(٢٨) أمبرتو إيكو، **اسم الوردة**، ص ٤٩٦.
(٢٩) أمبرتو إيكو، **اسم الوردة**، ص ٤٩٦.
(٣٠) أمبرتو إيكو، **اسم الوردة**، ص ٤٩٧.

أيدي العامة فلا تخضع للدين والسلطان. ويبدو أنّ كتاب أرسطو كان صورة لِما يُمكن أنْ يُساعد الناس على التصدّي للكنيسة فيرفعوه سلاحاً في وجهها. إنّ الضحك «في هذا الكتاب الذي كتبه الفيلسوف يُرفَع إلى مستوى الفنّ وتُفتح له أبواب دنيا العلماء، ويُصبح موضوعاً فلسفيّاً ولاهوتاً خادعاً»[٣١].

إنّ الضحك إذا ما بات علماً وفنّاً ازداد خطره وسارع الناس إلى الاقتداء فيه بالفلاسفة والعلماء. فالضحك الذي شرّع له الفلاسفة والعلماء «يعلّم العامّي التحرّر من الخوف من الشيطان [. . .] ويحسّ بنفسه سيّداً»[٣٢] ويطعن في مَنْ نصّب نفسه عليه سيّداً.

لقد استطاع نصّ **اسم الوردة** أن يطرح على بساط البحث أهمّ النقاط التي تساءل بشأنها الفكر البشريّ في مجال الفَكَهِ والضحك الذي كان نتيجة حتميّة له. وقد انقسم العالم في النصّ عالميْن، عالماً طبعته السنّة الثقافية المسيحية، لا يرى إلاّ الجدّ وسيلة لتعليم الناس المعرفة والخضوع والتقوى، وعالماً يصبو إلى الفَكَهِ والضحك والمسرّات، فيه تجد طموحات الناس وتطلّعاتهم متنفّساً. كان العالم الأوّل صورة لما هو كائن ولما ساد واستقرّ. وكان العالم الثاني تطلّعاً إلى ما يجب أنْ يكون، تطلّعاً إلى معرفة أسس أخرى تُخلّص من وطأة الكنيسة وتزمّت الثقافة العالمة.

كان **اسم الوردة** بحثاً في الفَكَهِ وتعبيراً عن الصعاب التي تعترض طريقه إذا ما أصبح فنّاً من فنون الحياة[٣٣]. كان كلّ شيء له بالمرصاد، يقوم في وجهه حتى لا يصل صداه إلى الناس فيتحرّروا من قيود الثقافة التي فرضت الجدّ طريقة في الحياة وسبيلاً إلى الخلاص. وتنتهي الرواية بالتحسّر على ضياع الفرصة على البشرية التي فاتها اعتماد الضحك مبدأ وهو الذي كان

(٣١) أمبرتو إيكو، **اسم الوردة**، ص ٥٠٠.
(٣٢) أمبرتو إيكو، **اسم الوردة**، ص ٤٩٨.
(٣٣) انظر: B. Sarrazin, «Humour et religions», in *Humoresques*, n° 12, p. 10.

قادراً على أنْ يُغيّر وجه التاريخ «واجب من يريد الخير للبشريّة أنْ يجعلها تضحك من الحقيقة، وأنْ يجعل الحقيقة تضحك فيتحرّر الإنسان».

٢ ـ الفَكَهُ في الثقافة العربية الإسلامية

إنّ الناظر في الكتب لا يتحرّج من القول إنّ الثقافة العربية الإسلامية كانت أكثر الثقافات وَلَعاً بالفَكَهِ. لقد ظهر فيها على مرّ العصور في صور مختلفة وعبّرت عنه بمفردات متنوّعة مثل «الهزل والمزاح والبطالة [...] وهي مفردات تُجريها المعاجم على الترادف رغم بعض الفوارق التي يُشير إليها الأصل اللغوي وكلّها تعني اللهو والدعابة وأخذ الأمور من جانبها الميسور العابث»(٣٤). ولم يترك الفَكَهُ مجالاً من مجالات الثقافة العربية الإسلامية إلاّ ولجه. فهو موجود في الشعر والنثر والمقامة، لا يكاد يخلو منه جنس من أجناس الأدب ولا غرض من أغراض الثقافة، حيث يتشكّل قصصاً تُروى عن البخلاء، ونوادر في الحمقى والمغفّلين، وأخباراً في سِيَرِ الأوّلين، وبدَعاً افتراها رجال الدين والمتفقّهون، ورواية يرويها راوٍ عن أعرابي «كلما كان الأعرابيّ أكذب في شعره كان أطرف عنده، وصارت روايته أغلب، ومضاحيك حديثه أكثر»(٣٥).

لقد شاع الفَكَهُ في كلّ هذه الفنون، وشاع في كلّ هذه الأغراض. والشيء إذا شاع في الناس وجد أنصاراً مؤيّدين ومحبّين به مولعين، ووجد أعداءً ألدّاء قاموا له بالمرصاد ومناهضين جنّدوا أنفسهم لمحاربته ومحاربة أتباعه. لذلك كان مبجّلاً هنا منبوذاً هناك. وكان متعة ومؤانسة هنا ودعارة

---

(٣٤) حمادي صمّود، **بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ**، ص ص ٧٢ـ٧٣.

(٣٥) الجاحظ، **الحيوان**، ج٦، ص ٢٥١، مذكور في: حمادي صمّود، **بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ**، ص ١٣.

وفساداً هناك. وكان فنّاً من فنون القول وتجميل الكلام هنا وفعل شيطان رجيم أو جنّ كافر هناك.

في ظلّ هذه الثنائيات أينع الفَكَهُ حتى بات من الصعب اقتفاءُ آثاره اقتفاءً تامّاً. ولمّا كان موضوعنا لا يتّسع لاقتفاء آثاره اقتفاءً تامّاً، وكانت غايتنا لا تقتضي التأريخ للفكَهِ ولا تنحو نحو إحصاء أصحابه ووصف ما جادوا به فيه من علم أو فنّ أو أدب، نقف اختصاراً في ما يلي على أهمّ المحطّات الدالة عليه في الفكر العربي الإسلاميّ.

١.٢ ـ الجاحظ والفَكَهُ الجمال

تتّفق الأخبار على القول: لقد «راجت سوق الضحك في صدر الإسلام رواجاً عظيماً، وصار للظرفاء والمضحكين شأن [...] فقد أخذ الأمراء والخلفاء يُدنون من مجالسهم أهل الظرف والنادرة ليمتّعوا أنفسهم بالنكتة الحلوة والفكاهة التي تنتزع الضحك من الوجوه العابسة [...] كان من الطبيعي أنْ يندفع الكتّاب والمؤلّفون إلى وضع المصنّفات والتآليف [...] على أنّ أسبق الجميع وإمامهم في ميدان الأدب الضاحك دون ريب هو الجاحظ»[٣٦]. فلنقف لحظة عند هذا الرجل الذي اشتهر بأنّه واضع الهزل في إطار الجدّ ومازج المقدّس بما تدنّس.

إنّ الناظر في ما كتب الجاحظ (١٦٠ـ٢٥٥هـ/ ٧٧٦ـ٨٦٨م) يلاحظ أهميّة الضحك عنده. وقد علّل ذلك تعليلاً طريفاً استمدّه من اللغة التي جعلت الضحك في ما اتّصف بالجمال وما يُقبل عليه الإنسان: «لو كان الضحك قبيحاً من الضاحك، وقبيحاً من المضحك، لَمَا قيل للزهرة والحِبَرة والحَلْي والقصر المبنيّ كأنّه يضحك ضحكاً»[٣٧]. فربط في هذا التعليل بين الضحك

(٣٦) عبد الغني العطري، **أدبنا الضاحك**، ص ٥٥.

(٣٧) الجاحظ، **البخلاء**، ص ١٨.

والاستعمال اللغوي الدالّ على الجمال كما تجلّى في الطبيعة صُنعاً إلهيّاً كاملاً أو كما تبدّى في ما شيّده الإنسان.

ولم يقف الجاحظ عند هذا الحدّ بل تعدّاه إلى بيان الناحية الفنية، فوضع الفَكَهَ في إطاره من نظام الثنائيات في الثقافة العربية الإسلامية، فقابل الهزل بالجدّ، وقابل الضحك بالبكاء، واستنجد بالآيات التي نطقت بضحك الله، فنسب ذلك إليه وعدّه برهاناً على ما ذهب إليه: «وقد قال الله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[٣٨] فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت، وإنّه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ولا يمنّ على خلقه بالنقص»[٣٩]. وما دام الله لا يرتضي لنفسه القُبح، وهو الضاحك حسب السنّة[٤٠]، فليس الضحك إذن قبيحاً.

وإذ جعل الجاحظُ الضحكَ حذاء الحياة والبكاءَ حذاء الموت ـ وهو أمر لم تنطق به الآية التي استنجد بها في الغرض ـ فقد فَضَلَ عنده الضحكُ البكاءَ، فانتصر للضحك والحياة في ثقافة كانت تُعلي من شأن الجدّ وتنتصر للآخرة. فهو وإنْ جعل الضحك والبكاء، ومن ثمّة الجدّ والهزل، سمتيْن وُسم بهما الإنسان، لصيقتيْن بالذات الإنسانية، فإنّه لم يتحرّج من الدعوة الصريحة إلى الضحك والهزل على حساب البكاء والجدّ. فإذا كان يزعم «أنّ البكاء صالحٌ للطبائع، ومحمود المغبّة، إذا وافق الموضع ولم يُجاوز المقدار، ولم يعدل عن الجهة، ودليلٌ على الرقّة والبعد من القسوة»[٤١]، فإنّه خصّ الضحك بمرتبة أعلى وأسمى وجعله أصل الطباع وأساس التركيب: «وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ومن مصلحة الطباع كبيراً،

---

(٣٨) **النجم** ٥٣/٤٣.
(٣٩) الجاحظ، **البخلاء**، ص ١٨.
(٤٠) انظر عملنا أسفله، ص ص ٦٥-٧٥.
(٤١) الجاحظ، **البخلاء**، ص ١٧.

وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب، لأنّ الضحك أوّل خير يظهر من الصبيّ، وبه تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علّة سروره ومادّة قوّته»[٤٢].

وإذ كان الضحك عند الجاحظ أصل الطباع وأساس التركيب، كان الهزل عنده حاجة لا غناء عنها بالنسبة إلى الإنسان إذ «جعل [الله] الحاجةَ حاجتيْن، إحداهما قِوامٌ وقوتٌ والأخرى لذّةٌ وإمتاعٌ وازديادٌ في الآلة، وفي كلّ ما أجْذَلَ النفوسَ وجمع لها العتاد»[٤٣]. ولا شكّ هنا أنّ «تنزيله اللذّة والإمتاع والإجذال منزلة الحاجة واعتبارها ثاني حاجتيْن لا ثالث لهما أمر مهمّ يكشف عن طبيعة تفكيره ويساعدنا على فهم ما نحن فيه من أمر المرح والبطالة والهزل»[٤٤]. إنّ الإنسان عند الجاحظ، وفق هذا التصوّر، «إنّما هو كائن مجبول على المرح والمزح والهزل واللهو والبطالة، يبحث عن اللذّة والمتعة وصنوف الهزل لترتاح نفسه وتستجمّ وتحقق توازنها وتضمن نماءها كما كانت ضمنته بالقوت والقوام»[٤٥].

لم تخلُ كتبُ الجاحظ على اختلاف أنواعها من الفَكَهِ. لقد خصّه الجاحظُ بمنزلة رفيعة مكّنته من الرسوخ في الثقافة العربية الإسلامية التي لم تكن تنحو هذا المنحى من قبلُ. وقد دلّ على ذلك ما وضعته من كتبٍ في الأدب ومجاميعَ للحديث ورسائلَ في العلوم ومدوّناتٍ كبرى في الفقه ومجلّداتٍ ضخمة في التفسير. فهي جميعاً تجاهلت الفَكَهَ وحاولت طمس

---

(٤٢) الجاحظ، **البخلاء**، ص ١٨.

(٤٣) الجاحظ، **الحيوان**، م١، ج١، ص ٣٥.

(٤٤) حمادي صمّود، **بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ**، ص ٩٣. وانظر الفصل الأخير من الكتاب، في التأويل ص ص ٦٣-١٠٧، وقد عالج فيه بوضوح وطرافة وجدّة مسألة الهزل عند الحاجظ، ونظّر له تنظيراً ارتقى به إلى مستوى العلوم الأخرى.

(٤٥) حمادي صمّود، **بلاغة الهزل وقضية والأجناس الأدبية عند الجاحظ**، ص ٩٦.

آثاره. ونظراً إلى هذا النهج الجديد الذي شقّ إليه الجاحظ الطريق، اضطرّ صاحب **البخلاء** و**الحيوان** و**البيان والتبيين** إلى التنظير للمسألة وتعريف قارئه ولائميه بفوائد الهزل، وأهميّة الضحك، وضرورة الترويح عن النفس حتى في ساعات الجدّ.

كان الجاحظ فريداً من نوعه في هذا الباب حتى إنّ محاولات النسج على منواله لم تُفرز علماً كعلمه ولا تنظيراً في مستوى تنظيره. ولم تستطع الأصوات التي قامت مناهضة له أو طاعنة في منهجه أو رافضة مزج الجدّ بالهزل أنْ تُخمد صوته في الثقافة العربية الإسلامية، فظلّ على مرّ العصور صادحاً بما اعتبره فنّاً أصيلاً.

٢.٢ ـ التوحيدي والنسجُ على المنوال

كان أبو حيّان التوحيدي (٣٢٠ـ٤١٤هـ/ ٩٣٢ـ١٠٢٣م) شديد الإعجاب بالجاحظ. وقد زخرت كتبه الكثيرة بمدح الجاحظ والتنويه بمؤلّفاته وفنّه. فقد قال في **البصائر والذخائر** واصفاً كتبه وكلامه باحترام كبير وتقدير كثير: «وكتبه هي الدرّ النثير واللؤلؤ المطير، وكلامه الخمر المصفّى والسحر الحلال»[(٤٦)]. وقال في **الإمتاع والمؤانسة** واصفاً مذهبه: «إنّ مذهب الجاحظ مدبّر بأشياء لا تلتقي عند كلّ إنسان، ولا تجتمع في صدر كلّ واحد: بالطبع والمنشأ والعِلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مَفاتحُ قلما يملكها واحد، وسواها مَغالقُ قلما ينفكّ منها واحد»[(٤٧)]. ثمّ إنّه لم يتحرّج في أنْ يجعل الجاحظ أحد ثلاثة فُضِّلت بهم أمّة محمد على الأمم الأخرى وبهم فازت عليها: «فُضِّلت أمّة محمد ﷺ العربي على جميع

---

(٤٦) أبو حيّان التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ص ٦. وانظر: محمد عبد الغني الشيخ، **أبو حيان التوحيدي: رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد**، ج١، ص ٤٤٥.

(٤٧) أبو حيّان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، ص ٦٦.

الأمم الخالية بثلاثة لا يوجد فيمن مضى مثلهم، عمر بن الخطّاب والحسن البصري وأبو عثمان الجاحظ، فإنّك لا تجد مثله وإنْ رأيت ما رأيت رجلاً أسبق في ميدان البيان منه ولا أبعد شوطاً»[٤٨].

وقد كان من آثار هذا الإعجاب أنْ نسج أبو حيّان التوحيدي على منوال الجاحظ واقتدى به اقتداء التلميذ بالشيخ، حتى كاد يكون تبعاً له. مَزَجَ مِثْلَهُ بين العلم والأدب، واتّبعَ مِثْلَهُ نمطاً في الكتابة يخلط بين المواضيع والمسائل ولا يرتّبها ترتيباً منطقيّاً واضحاً، وأكْثرَ مِثْلَهُ من الاستطراد وتضمين كتبه المُلح والنوادر والمزج بين الجدّ والهزل[٤٩]، فوجد عنده الفَكَهُ مثلما وجد من قبلُ عند الجاحظ إطاراً للتبلور والبروز.

ولكنْ، إذا كان الفَكَهُ عند الجاحظ حاجةً من حاجات الحياة وفنّاً من فنون الكتابة وحافزاً من حوافز المتعة واللذّة، يُحتاج إليه في الأمور الجسام مثلما يُحتاج إلى الجدّ، فإنّه عند أبي حيّان التوحيدي سُخرية من حياة قابلها بالتشاؤم وازدراها وتنكّر لها لِما كانت تفرض عليه من واقع مرّ. كان الفَكَهُ عنده «جزءاً لا يتجزّأ من صميم فلسفته التشاؤمية التي كانت تريد إلغاء الواقع والتنكّر له والسخرية به، فلم يكن فنّ الضحك عنده سوى مجرّد أداة دفاعية اصطنعتها نفسه لمواجهة ما في حياته من شدّة وقسوة وحرمان»[٥٠].

كان الهزل عند الجاحظ يساير الجدّ ويمتزج به لغايات فنّية ارتبطت برفع الملل عن قارئه وإبعاد السآمة عن سامعه والخروج عن طرق العلماء في

---

(٤٨) أبو حيّان التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ص ص ٢٢٨-٢٣٣، نقلاً عن: محمد عبد الغني الشيخ، **أبو حيان التوحيدي: رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد**، ج١، ص ص ٤٤٥-٤٤٦.

(٤٩) للتوسّع في هذه المسائل انظر: محمد عبد الغني الشيخ، **أبو حيان التوحيدي: رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد**، ج١، الفصل الرابع: التوحيدي والجاحظ، ص ص ٤٤٥-٥٠١.

(٥٠) زكريا إبراهيم، **أبو حيان التوحيدي**، ص ٢٥٠.

الحجاج والتحليل وبسط الأمور، وهي طرق كبّلتها التقاليد واتّباع الأنماط التي تعوّدها الناس حتى مجّوها. فكان الهزل عنده قَطعاً مع المألوف وفرضاً لنظام معرفيّ جديد، يدلّ على حذق كبير ودراية واسعة وقدرة فائقة على تسيير الأمور تسييراً واعياً معقولاً.

وكان الهزل عند أبي حيّان التوحيدي باهت المعالم، مجرّد ضحك ناشئ عن قوّة لا سلطان للإنسان عليها. وقد عبّرت مقابسته الواحدة والسبعون عن هذا الأمر بوضوح كبير: «الضحك قوّة ناشئة بين قوّتيْ النطق والحيوانية، وذلك أنّه حال للنفس باستطراق وارد عليها. وهذا المعنى متعلّق بالنطق من جهة، وذلك الاستطراق إنّما هو تعجّب، والتعجّب هو طلب السبب والعلّة للأمر الوارد، ومن جهة تتبع القوّة الحيوانية عندما تنبعث من النفس، فإنّها إمّا أنْ تتحرّك إلى داخل وإمّا إلى خارج [...] فيحدث منها أحوال أحدثها الضحك»[٥١]. فإذا الإنسان في مثل هذه الحال تتجاذبه قوّتان، تُحدثان فيه ما لا يعلم، وهو لا فعل له غير أنْ يكون مكان صراعهما ووقوعهما فيه. وهو في مثل هذه الحال تسيّره الغرائز لا غير إذ النطق فيه غريزة والحيوانية غريزة، وهو عرضة لهما معاً، فيضحك كأنّه جُبل على ذلك وحُمل عليه حملاً.

ولا غرابة، وقد ذهب التوحيدي هذا المذهب في فهم الهزل والضحك، أنْ تكون «المُلَح التي ذكرها مطبوعة بطابع الفتور فلا تبعث على الضحك كما تبعث مُلَحُ الجاحظ»[٥٢]. ومع هذا فإنّه لم ينف أنْ تكون للضحك على النفس فوائد، إذ يُمكّنها من الخروج عن الواقع العسير والتحليق في عالم أيسر، فيكون بذلك كالمنى فرصة للنفس لتصبو إلى ما يمكن أنْ يكون فراراً

---

(٥١) أبو حيّان التوحيدي، **المقابسات**، المقابسة الواحدة والسبعون في حقيقة الضحك وأسبابه، ص ١٦٦.

(٥٢) أحمد محمد الحوفي، **أبو حيان التوحيدي**، ص ٤١٩، مذكور في: محمد عبد الغني الشيخ، **أبو حيان التوحيدي: رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد**، ج٢، ص ٥٣٩.

ممّا هو كائن: «وكذلك صنيع الله في الجدّ والمزاح في إمتاعه بالمنى والضحك، وهما وإنْ كانا في ظاهر الأمر لا يعجلان عليك نفعاً معروف المكان، فإنّهما يُحدثان خيراً في باطن النفس، ويُثمران نفعاً عند تعقّب الأمور، لأنّ المنى استراحة وتفرّغ والضحك سرور وتنشيط»(٥٣). ويشعر القارئ وهو يقرأ هذا التعريف وكأنّ أبا حيّان قد اضطرّ إلى هذه النهاية اضطراراً تمثّلاً بأقوال الجاحظ ونسجاً على منواله، لا عن تنظير واضح للفَكَهِ.

٢ . ٣ ـ الحُصْري وبداية فرض الرقابة

لم يكن أبو إسحاق الحُصْري (ت ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م) أقلّ اهتماماً بالفَكَهِ من ابن بحر الجاحظ أو أبي حيان التوحيدي، وقد وضع فيه كتاباً متميّزاً هو **جَمْع الجواهر في المُلح والنوادر**. ومع ذلك فإنّ الناظر في ما كتب فيه يقف على أنّ اهتمامه بالفَكَهِ كان مُختلفاً عن اهتمامهما به، إذ فرض عليه رقابة لم تكن موجودة عندهما.

تَمثّل مشروع الحُصري كما ضبطه في مقدّمة كتابه، في جمع «نوادر المتقدّمين والمتأخّرين، وجواهر العقلاء والمجانين، وغرائب السقَّاط والفضلاء، وعجائب الأجواد والبخلاء، وطُرف الجهَّال والعلماء، وتُحف المغفّلين والفهماء، ونُتف الفلاسفة والسفلة، ومنازه الطفيليين والأكلة، وأخبار المخابيث والخصيان، وآثار النساء والصبيان»(٥٤)، فجاء كتابه موسوعةً للنوادر والعجائب والغرائب والنتف والبدائع والروائع والطرائف والفواكه، فدلّ ذلك على عنايته الفائقة بمسائل الفَكَهِ، ودرايته العالية بطبائع الناس على اختلاف طبقاتهم. ولكنّه سلّط في هذا الإطار رقابة خاصّة على

(٥٣) أبو حيّان التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ص ٢٧٧.
(٥٤) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحُصْري، **جَمْع الجواهر في المُلح والنوادر**، ص ٣.

الفَكَهِ، ولم يختر من الأمور إلاّ ما تماشى والدين. كان يريد أنْ لا يعرض للدين وأهله بما يضرّ أو يُفسد، فتجنّب «ما يخرج به قائله في الدين عن اتّباع سبيل المؤمنين. فمن أهل الإلحاد والأهواء من يُسِرُّ حسواً في ارتغاء، ويطلب ما يشفى به من دائه، ويُضحك خاصّةَ أودّائه، ويغرُّ به من ضَعُفتْ نحيزته، وهفت غريزته بما يكمنه، بألطف ما يمكنه، كمون الأفعوان، في أصول الريحان، إذ قابله بشمّه، قتله بسمّه»[٥٥].

كان الفَكَهُ من قبلُ هزلاً جعله المنظّرون مقابلاً للجدّ حتى يؤدّي الجدّ وظيفته. كان ضدّا من الأضداد شأنه شأن الشرّ الذي جعلوه مقابلاً للخير حتى يبدو الخير أجمل وأبقى[٥٦]. لذلك كان الهزل رفيقاً للجدّ يسير في رحابه فيروّح عن النفس ساعة الجدّ ولكن دون أنْ يغيب الجدّ. فالهزل لا يعوّض الجدّ بل هو لصيق به لا يستقيم إلاّ في ظلّه. كذلك كان الأمر عند الجاحظ. وكذلك كان الأمر عند التوحيدي. أمّا الفَكَهُ عند الحُصري فلا يكون إلاّ إذا غاب الدين، وبالتالي إذا غاب الجدّ. فمتى تعلّق الأمر بالدين توقّفت النادرة وغابت الملحة وسكت الأحمق واختفى المغفّل وسطع وجه الدين ناصعاً لا يخالطه شيء.

هنا يشعر المرء أنّ الفَكَهَ بدأ يفقد من قيمته وأنّ العلماء بدأوا يضيّقون عليه الخناق. وقد مثّل الحُصري في هذا الإطار ـ بسبب حذره وخوفه من أنْ يعرض للدين بسوء ـ نهجاً جديداً يؤذن بتغيّر الأحوال. وقد تغيّرت الأحوال فعلاً من بعدُ، فدعا العلماء إلى الانغلاق في عالم الجدّ والتزمّت والزهد ونَبْذ الفقهاء ورجال الدين أنفسهم لمحاربة الفَكَهِ وأشكاله المختلفة، وسنورد في ما

---

(٥٥) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحُصْري، **جَمْع الجواهر في المُلح والنوادر**، ص ص ٣-٤.

(٥٦) انظر: S. Lassouad, «Le comique et le sérieux dans la littérature arabe d'avant la Nahda», p. 81.

يلي بعضاً من تلك المواقف لتقوم هنا شاهداً على ما آلت إليه الأمور في الثقافة العربية الإسلامية التي بدت في ما تقدّم من عملنا فضاءً للمزج بين الجدّ والهزل، حتى لا يصيب الملَلُ النفوسَ والكللُ القلوبَ والتبلّدُ العقولَ.

٢.٤ ـ الغزالي والدعوة إلى وقف الفكَه

إنّ الناظر في مؤلّفات الغزالي (٤٥٠ـ٥٠٥هـ/١٠٥٨ـ١١١١م) يلاحظ أنّ صاحبَها أغلق دائرة الفَكَهِ وحرّمه على العامّة والخاصّة معاً، قائلاً: «لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنيء فيجترئ عليك»[٥٧]. وقد اعتبر المزاح آفة من الآفات المنهيّ عنها لأنّ «أصله مذموم منهي عنه»[٥٨]. واعتبر الضحك آفة أيضاً ولم يسمح إلاّ بالتبسّم الذي لا تنكشف فيه السنّ ولا يُسمع فيه الصوت[٥٩]. واعتبر السخرية والاستهزاء آفة أخرى لأنّها «الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه [...] وهذا محرّم مهما كان ومؤذياً»[٦٠].

ورغم أنّهساير السنّة الثقافية، وذكر مثل غيره أنّ الرسول «كان أكثر الناس تبسّماً في وجوه أصحابه وتعجّباً ممّا تحدّثوا به وخلطاً لنفسه بهم، ولربّما ضحك حتى بدت نواجذه»[٦١]، فإنّ ذلك لم يمنعه من الوقوف معادياً للضحك، معارضاً للفكَهِ. وقد ذكر من الأحاديث الفَكِهَةِ الكثير[٦٢]، ولم ينفِ أنْ يكون الرسول قد ضحك فيها حتى بدت نواجذه، ولكنّه استعملها

---

(٥٧) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٤.
(٥٨) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٣.
(٥٩) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٤.
(٦٠) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٦.
(٦١) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص ٣٣٨.
(٦٢) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص ص ٣٣٨-٣٣٩؛ ج٣، ص ص ١٢٤-١٢٥.

حُجّة على وجوب الإقلاع عن المزاح والكفّ عن الضحك. كان الرسول عنده مثالاً للناس وقدوةً. كانوا يفعلون ما يفعل ويتكلّمون بما تكلّم، فخاف الغزالي أنْ يقتدوا به في الضحك والمزاح والهزل، فيسترسلوا في ذلك استرسالاً فيتجاوزوا الحدود ويسيئوا إلى الرسول من حيث لا يشعرون. فأوقف المزاح على الرسول، وقصر عليه الضحك، لأنّ الرسول عنده «يقدر على أنْ يمزح ولا يقول إلاّ حقّاً، وأمّا غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أنْ يضحك الناس كيفما كان»(٦٣). وهذا من شأنه أنْ يؤدّي إلى المداومة والمواظبة والإفراط، وهي كلّها مذمومة، «أمّا المداومة فلأنّه اشتغال باللعب والهزل فيه [. . .] أمّا الإفراط فيه فإنّه يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتُسقط المهابة والوقار»(٦٤). وقد وجد الغزالي في عُمر بن الخطّاب خير سند في هذا الباب فاستشهد به قائلاً: «وقال عمر رضي الله عنه: مَنْ كثر ضحكه قلّت هيبته، ومَنْ مزح استُخفّ به، ومَنْ أكثر من شيء عُرف به، ومَنْ كثُر كلامه كثُر سقطه، ومَنْ كثُر سقطه قلّ حياؤه، ومَنْ قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومَنْ قلّ ورعه مات قلبه»(٦٥).

كلّ شيء في كلام الغزالي قام ينفي ما درجت عليه الثقافة العربية الإسلامية. هنا ينتفي الضحك الذي كان بهجة تدخل على القلب فتتفتّح الأسارير ويعمّ الحبور ويسود الإخاء والانسجام. وهنا ينتفي الهزل الذي كان ترويحاً عن النفس وحفزاً لها على العمل والجدّ. لا شيء هنا غير التحذير من كلّ ما من شأنه أنْ يمتّ بصلة إلى السرور. لا شيء هنا غير الزهد في الحياة الدنيا وترك المسرّات للفوز بالآخرة.

---

(٦٣) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٣.
(٦٤) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٣.
(٦٥) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٣.

وقد سعى الغزالي وسْعَهُ إلى فرض هذا النظام الذي ارتآه. وقد أدّى به ذلك إلى أنْ يذهب مذهباً لم يذهبه الرسول، فحرّم ما كان الرسول قد أباحه، من ذلك الضحك يوم العيد(٦٦) الذي كان في الأحاديث الكثيرة فرصة للزهو والطرب وأصبح عند الغزالي منهياً عنه منبوذاً، فرهّب منه وجعل عقابه هولاً من أهوال القيامة(٦٧)، وهو ما يتنافى والأحاديث النبويّة التي جعلت الله نفسه يضحك يوم القيامة حتى يبدو الدين يُسراً لا عُسر فيه(٦٨). كما أدّى به ذلك إلى أنْ يقرأ الآية: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾(٦٩) قراءة خاصّة فجعل «الصغيرة التبسّم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة القهقهة بذلك، وهذا إشارة إلى أنّ الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر»(٧٠). ولم يتحرّج في نهاية الأمر في تعريف المزاح تعريفاً لا هو من اللغة ولا من الاصطلاح، فنقل عن عمر قوله، «سُمّي المزاح مزاحاً لأنّه أزاح صاحبه عن الحقّ»(٧١).

لقد استعمل الغزالي جميع الوسائل للتحذير من كلّ أشكال الفَكَهِ، مع العامة والخاصة على حد سواء، وهو ما يُبيّن لنا بوضوح الفرق بينه وبين الجاحظ وأتباعه ممّن خاضوا في أمر الفَكَهِ. ففيما كانت أعمال هؤلاء خالية من كلّ حديث يمنع الضحك أو يقوم ضدّ الهزل أو يُحذّر من المزاح أو يرفض السخرية، جاءت أعمال الغزالي تكرّس أحاديث المنع والرفض والتحذير. وهو ما يجعل الحديث أداة طيّعة في أيدي الناس، فتقوم هنا رفضاً

---

(٦٦) انظر عملنا أسفله، ص ص ١١٥-١٢١.

(٦٧) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٣.

(٦٨) انظر عملنا أسفله، ص ص ٦٥-٦٩.

(٦٩) **الكهف** ١٨/ ٤٩.

(٧٠) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٦.

(٧١) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٤.

للشيء وتقوم هناك إثباتاً له، وذلك وفق المذهب المتّبع والسلوك المختار.

كان الغزالي ابن عصر توقّف فيه سيل الاجتهاد وبهتت معالم النهضة التي ازدهرت في كنف بني العبّاس ساعة القوّة التي لم تجعل العلماء يخافون على الإسلام. في ذلك الزمن تطارح الناسُ الأفكار، وشعّ الاعتزال، وتُرجمت الأعمال، وكثُرت المجالس، وبلغ الترفُ أوْجَهُ، وانتشر الظرف، وساد اليسرُ الناسَ فمزحوا وضحكوا وسخروا واستهزأوا، ولم يهملوا الجدّ. كان الغزالي ردّة فعل على هذا الأمر. كان فقيهاً وقاضياً ومفكّراً شافعيّاً، جاء زمن الضعف وتدهور الوضع والخوف على الإسلام من التلف، فكان صارم الدعوة إلى الجدّ والتزمّت والزهد خوفاً من أنْ يضيع الدين في متاهات اللهو، فانغلق الدين على نفسه، واجترّ العلماء كلاماً للسلف أرادوه نمطاً للحياة متواصلاً باقياً، وأرضخوا الناس لثقافة الانغلاق والانطواء على النفس رغم ارتفاع الأصوات أحياناً منادية بوقف السوء ونقد الذات والتحرّي في ما يقوله الفقهاء ورجال الدين.

٢ . ٥ ـ ابن الجوزي ومحاولة ردّ الاعتبار إلى الفَكَه المحظور

كان ابن الجوزي (٥٠٨ـ٥٩٧هـ/ ١١١٦ـ١٢٠٠م) واعظاً وفقيهاً حنبليّاً ومتشدّداً في الدين وداعياً إلى الاستقامة المثلى. ومع ذلك لم يكن صارماً في أمر الفَكَهِ صرامة الغزالي الذي كان قبله. بل لعلّه كان خير صوت قام يُعارض الغزالي وينقد رجال الدين الذين يدّعون العلم وهم بالعلم جاهلون. كان على ورعه ضاحكاً ساخراً، لا كالجاحظ الذي وجّه سهامه إلى الناس أجمعين، عامّةً وخاصّةً، فلاسفةً وكتّاباً، بخلاءَ أعياناً وسوقةً، بل أوجد لنفسه في عالم الفَكَهِ فضاءً خاصّاً به، فلم يوجّه سهام سخريته إلاّ إلى الحمقى والمغفّلين من القرّاء ورواة الحديث والقضاة والأمراء والولاة والكتّاب والمؤذّنين والأئمّة ومدّعي الفصاحة والإعراب. وهؤلاء جميعاً كانوا على علاقة بالدين، قوّامين

عليه أو ممارسين له أو ناشرين له ومفسّرين لدى المجموعة التي إليها ينتمون. هنا نلج مع ابن الجوزي عالم الدين لنكتشف فيه أنّ القائمين عليه تشكّلوا وجهاً وقَفاً، وجهاً للورع وقفاً للحمق والغفلة. لقد اتّخذ هؤلاء الدين ستاراً واقياً وحجاباً نافعاً فرفع ابن الجوزي عنهم الستار والحجاب، وعرّاهم وهتك سترهم فإذا هم حمقى ومغفّلون، ليست لهم معرفة بالدين، يخلطون في القرآن، ويجهلون السيرة، وتتداخل عندهم آيات القرآن وقواعد الدين وشعائر العبادات والأحكام والمعاملات.

وقد وضع ابن الجوزي لكتابه أسباباً ثلاثة كانت وراء تأليفه: «الأوّل: أنّ العاقل إذا سمع أخبارهم عرف قدر ما وهب له ممّا حرموه، فحثّه ذلك على الشكر [...] والثاني: أنّ ذكر المغفّلين يحثّ المتيقّظ على اتقاء أسباب الغفلة إذا كان ذلك داخلاً تحت الكسب وعامله فيه الرياضة، وأمّا إذا كانت الغفلة مجبولة في الطباع فإنّها لا تكاد تقبل التغيير. والثالث: أنْ يُروّح الإنسان قلبه بالنظر في سِيَرِ هؤلاء المبخوسين حظوظاً يوم القسمة، فإنّ النفس قد تملّ من الدؤوب على الجدّ، وترتاح إلى بعض المباح من اللهو، وقد قال رسول الله ﷺ لحنظلة: ساعة وساعة»[٧٢].

وقد شكّل السبب الثالث من هذه الأسباب عنصراً مهمّاً في جعل الكتاب ساخراً ضاحكاً، فكان ابن الجوزي كالجاحظ والتوحيدي، يقول مثلهما بضرورة الضحك والهزل وإنْ باعتدال وقدر. وحتى يُضفي على اختياره شرعية، استنجد بأقوال الرسول والصحابة الأُوَل للتدليل على وجوب الضحك بوصفه غذاءً للنفس، فأتاح بذلك للفَكَهِ فرصة جديدة ليشارك الجدَّ الحضورَ في الثقافة العربية الإسلامية، ولكنّه ظلّ في كلّ ذلك يدعو إلى الوسطية ونبذ الكثرة: «إنّما يُكره للرجل أنْ يجعل عادته إضحاك الناس لأنّ

(٧٢) ابن الجوزي، **أخبار الحمقى والمغفّلين**، ص ص ١٣-١٤.

الضحك لا يذمّ قليله، فقد كان رسول الله ﷺ يضحك حتى تبدو نواجذه، وإنّه يكره كثيره لما روي عنه عليه السلام أنّه قال: كثرة الضحك تميت القلب، والارتياح إلى مثل هذه الأشياء في بعض الأوقات كالْمِلح في القِدْر»(٧٣).

وقد أكّد في غير موضع من كتابه أنّ الضحك والهزل والنكتة والنادرة تُكسب النفس حيويّة ونشاطاً يُمكّنانها من الإقبال على الجدّ بأريحية وشغف، إذ «إنّ نفوس العلماء تسرح في مباح اللهو الذي يُكسبها نشاطاً للجدّ، فكأنّها من الجدّ لم تزل»(٧٤). أمّا الجدّ الذي لم يُخالطه هزلٌ واتُّخذ وحده نهجاً، فهو مللٌ وسأم يؤدّيان إلى ضيق النفس ويقتلان فيها الرغبة في الكدّ والعمل(٧٥).

إنّ الفَكَهَ عند ابن الجوزي له وظيفة فنّية تتمثّل في الترويح عن النفس، وذلك إذا لم يتجاوز الحدّ وينقلب لهواً لا فائدة منه. والفَكَهُ عنده على غاية من الطرافة، إذ جعل موضوعه رجال الدين والعلماء والأئمّة والمتقوّلين في الفصاحة، فكان نقداً اجتماعياً اختفى وراء الهزل ليفضح ما تستّر عليه غيره. فكان ابن الجوزي محاولةً لنقض ما كرّسه الغزالي وأمثاله من الفقهاء. ولكن يبدو أنّ محاولته ظلّت محدودة التأثير في الثقافة العربية الإسلامية التي عرفت

---

(٧٣) ابن الجوزي، **أخبار الحمقى والمغفّلين**، ص ١٩.

(٧٤) ابن الجوزي، **أخبار الحمقى والمغفّلين**، ص ١٩. وذكر هناك بيتيْن من الشعر لأبي فراس الحمداني هما:

أروّحُ القلبَ ببعضِ الهزل ... تجاهُلاً منّي بغيرِ جهْلِ
أمزحُ فيه مزحَ أهلِ الفضْلِ ... والمزحُ أحياناً جلاء العقلِ

(٧٥) «وُصف رجل من النسّاك عند عبيد الله بن عائشة فقالوا: هو جدّ كلّه. فقال: لقد أضاق على نفسه المرعى وقصر لها طول النهى ولو فككها بالانتقال من حال إلى حال لنفّس عنها ضيق العقدة وراجع الجدّ بنشاط وحدّة»، ابن الجوزي، **أخبار الحمقى والمغفّلين**، ص ١٧.

الانطواء على نفسها والانغلاق في عالم الجدّ والشدّة والعسر، وكأنّ النحو الذي نحاه الغزالي وأمثاله أثّر فيها تأثيراً بالغاً لم يستطع مناهضوه القضاء عليه، فظلّت بذلك محاولات فرض الفَكَهِ محدودة قاصرة عن تجاوز الآراء المحتشمة الحذرة، وهو ما بدا واضحاً في أعمال التيفاشي والأبشيهي مثلاً.

٢.٦ ـ التيفاشي والفَكَهُ الذي لا يوجد في كتاب

كان أحمد التيفاشي (٥٨٠ـ٦٥٥هـ/ ١١٨٤ـ١٢٥٣م) فريداً من نوعه في معالجة مسألة الفَكَهِ. فرغم أنّه يبدو في مطلع كتابه متّبعاً جامعي النوادر الفَكِهَةِ والأخبار الهازلة المضحكة والأحاديث السامحة بالمزاح التي يظهر فيها الرسول ضاحكاً حتى تبدو نواجذه، فإنّه ينحو ـ بمجرّد تقدّمنا في الكتاب ـ منحى جديداً على الثقافة العربية الإسلامية، فيورد كثيراً من النوادر الفاحشة، وأخبار الجنس التي تجرّد فيها من كلّ حياء أو احتشام. فقد اهتمّ بأصناف «القوّادين والقوّادات والزناة والقحاب واللاطة والمرد المواجرين والسحق والمساحقات والمختّثين وذوي الأبنّة»[٧٦]، وبيّن بكثير من الدقّة شروط الزناة وعلامات القحاب والقحاب المبتذلات وشروط اللاطة وعلامات المواجرين، وبسط نوادرهم وملح أشعارهم، أو ما قيل فيهم من نوادر وملح أشعار.

ويتّضح لنا منذ مقدّمة الكتاب مذهب التيفاشي المتميّز فيه. فهو يفتتح كتابه بالقول: «الحمد لله الذي طبع الإنسان في الملال وعجزه عن تحمّل الأثقال الثقال فأباح له الإحماض في القول والأفعال، وجعل لكلّ وقت حالاً من الأحوال، ولكلّ مقام مقالاً يليق به من الأقوال، وجعل مُلحَ الآداب جلا للعقول وصقيلاً لصدأ الألباب»[٧٧] فإذا الإحماض في القول يُصبح طبيعةً في الإنسان وغريزةً، وإذا المُلحُ والنوادرُ تجلو العقول وترفع صدأ الألباب،

---

(٧٦) أحمد التيفاشي، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، ص ص ٣١-٣٢.
(٧٧) أحمد التيفاشي، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، ص ٢٦.

فتكتسب هذه الأمور شرعية، ولا يجد الكاتب حرجاً في أنْ يُلبّي تلك الغريزة بحامض القول ويُغذّي تلك الطبيعة بمليح النوادر. وهو لا يقتصد في ذلك ولا يضع لنفسه حدوداً، رغم أنّه يوهم القارئ في المقدّمة أنّه سيسلك مسلك القدامى الذين قالوا: «الإفراط في المزح مجون والاقتصاد فيه ظرف والتقصير عنه ندامة»[٧٨]. فأفرط ولم يقتصد ولم يقصّر. وكان في سبيل ذلك لا يأتي إلاّ بالأقوال الحاثّة على الفَكَهِ، المشرّعة للضحك، الداعية إلى الترويح عن النفس[٧٩].

ويوهم التيفاشي أنّه وضع كتابه للخاصّة وقصره على الطبقة العارفة بأصول المزح، الجديرة به وبفهمه. أمّا العامّة فهي عنده عديمة الثقافة وبالتالي لا يجب التقدّم إليها بما لا تستطيع أنْ تفهم كُنهه ووظيفته. ويذهب إلى التنظير أنّ الانبساط مع العوامّ متلف للعرض والجاه، بينما هو عند أولي الألباب ظرف. ويستشهد في ذلك بفلاسفة اليونان وينحو منحاهم في التنظير للفَكَهِ[٨٠]. ولكنّ هذا الأمر لا نعتقد به كثيراً، فقراءة الكتاب تدلّ على أنّه وُضع للجمهور العريض الواسع، عامّةً وخاصّةً، وأنّ تعليل صاحبه ليس إلاّ محاولة للإسهام بالتضييق في دائرة الفَكَهِ وقصره على فئة بعينها، حتى لا يقع

---

(٧٨) أحمد التيفاشي، **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب**، ص ٢٧.

(٧٩) «روي عن ابن عمر [...] أنّه كان يقول لأصحابه: احمضوا رحمكم الله أي جدّوا في المفاكهات. وقال أبو الدرداء [...]: إنّي لأحمي نفسي بشيء من الهزل لأقوى به على الجدّ. ومن كلام الحكماء: روّحوا النفوس تارة بتارة فإنّها تصدى كما يصدأ الحديد. وقال الجاحظ: القول السخيف في أماكنه كالقول السديد في أماكنه»، أحمد التيفاشي، **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب**، ص ص ٢٧-٢٨.

(٨٠) «الواجب بعد هذا كلّه تجنّب الانبساط مع غير أهل الأدب، فإنّ الانبساط مع العوامّ مُهلك للعرض ومُتلف للجاه والحرمة، فكما إنّه عند أولي الألباب ظرف فكذلك هو عند العوامّ سخف، وقد قال الحكيم الفاضل أفلاطون: انبساطك عورة من عوراتك فلا تبذره إلاّ لمأمون عليه وحقيق به»، أحمد التيفاشي، **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب**، ص ص ٣١-٣٢.

الطعن فيه ورميه بالفساد إذا ما انتشر أمره بين الناس وشاع.

لقد ابتعدنا مع التيفاشي ابتعاداً كلّياً عمّا صاغته الثقافة العربية الإسلامية من فنّ مع الجاحظ والتوحيدي اللذيْن نظّرا للفَكَهِ بوصفه وجهاً من وجهيْ الأدب مكمّلاً للوجه الآخر الذي هو الجدّ. وابتعدنا كذلك عن الحظر المفروض على الفَكَهِ عند المتشدّدين من الأئمّة والفقهاء وعلماء المسلمين ـ أمثال الغزالي ـ الذين أرادوا تضييق الخناق على الفَكَهِ والقطع معه قطعاً تامّاً. وابتعدنا عن محاولات التوفيق والتلفيق التي ميّزت عصور الركود. فبدا الفَكَهُ شعبيّاً لا غاية له غير الإضحاك عن طريق الشاذّ والفاحش.

٢ . ٧ ـ الأبشيهي والفَكَهُ المستطرف

كان أبو الفرج الأبشيهي (٧٩٠ـ٨٥٠هـ/ ١٣٨٨ـ١٤٤٦م) واعظاً ومحدّثاً شافعيّاً. وكان إلى جانب ذلك أديباً، ولعلّ هذه الصفة كانت أغلب عليه من غيرها، رغم أنّه لم يفعل شيئاً آخر غير جَمْعِ ما شاع في الأدب من نصوص ونوادر. وقد عبّر عن ذلك تعبيراً صريحاً فقال: «وجعلته مشتملاً على كلّ فنّ ظريف [. . .] واستدللتُ فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم، وأحاديث صحيحة من أحاديث النبيّ الكريم، وطرّزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار، ونقلتُ فيه كثيراً ممّا أودعه الزمخشري في كتابه **ربيع الأبرار** وكثيراً ممّا نقله ابن عبد ربّه في كتابه **العقد الفريد**، ورجوتُ أنْ يجد مطالعه فيه كلّ ما يقصد ويريد، وجمعتُ فيه لطائف وظرائف عديدة، من منتخبات الكتب النفيسة، وأودعته من الأحاديث النبويّة، والأمثال الشعريّة، والألفاظ اللغويّة، والحكايات الجدّية، والنوادر الهزلية، ومن الغرائب والدقائق، والأشعار والرقائق، ما تشنف بذكره الأسماع، وتقرّ برؤيته العيون، وينشرح بمطالعته كلّ قلب محزون»[٨١].

(٨١) أبو الفرج الأبشيهي، **المستطرف في كلّ فنّ مستظرف**، ص ٣.

وقد كان كتاب أبي الفرج الأبشيهي **المستطرف في كلّ فنّ مستظرف** تماماً كما وصفه صاحبه، فجاء جمعاً لأشتات لا رابط بينها في أحيان كثيرة، يوردها دون شرح أو تعليل أو سبب. ولم ينظّر في كتابه لفنّ من الفنون، ولم يتوسّع في غرض من الأغراض، ولم يفضّل منهجاً على آخر، ولم يختر قولاً من الأقوال إذا كثرت وتضاربت. ولم يخرج حديثه في الفَكَهِ عن هذه القاعدة. فقد اكتفى في آخر الكتاب بصفحتين وبعض صفحة(٨٢) عرض فيها عرضاً موجزاً الآراء في المزاح، الرافضة له والسامحة به، وذلك في فصلين قصيرين هما: «الفصل الأوّل: في النهي عن المزاح [. . .] والفصل الثاني: فيما جاء في الترخيص في المزاح والبسط والتنعّم»(٨٣).

ونتبيّن من خلال الفصلين القصيرين المخصّصيْن للمزاح أنّ الأبشيهي قد ابتدأ حديثه بالنهي عنه، واستدلّ على ذلك بالأحاديث النبوية وأقوال الصحابة التي جاءت تُكرّس هذا الاتجاه. وهذا يبيّن بوضوح الحذر المتّبع في هذا المجال، إذ يبدو النهي عن المزاح أشدّ وطأة في الثقافة من السماح به. ومع ذلك فإنّه لا بدّ من الإقرار بأنّ الأبشيهي ـ رغم حذره الشديد وتدوينه الأحاديث الناهية عن المزاح ـ لا يسكت عن الأحاديث السامحة بالهزل والمزاح والضحك، وهذا هامّ في حدّ ذاته، ودالّ على القبول به.

إنّ الأبشيهي لا يتدخّل في المسألة لإبداء رأيه، أو القبول بهذا الأمر، أو الطعن في ذاك. كان جامع أخبار، مكرّساً ما دأبت عليه الثقافة العربية الإسلامية منذ مدّة، خاضعاً للسنّة الثقافية بالتمام والكمال. وهي سنّة ثقافية تميل إلى النهي عن الفَكَهِ ولا تسمح ـ إنْ كان لا بدّ من ذلك ـ إلاّ بقدر بسيط منه، حتى لا يصبح طاغياً فيفسد الجدّ. كان الأبشيهي رجلاً معتدلاً في

---

(٨٢) أبو الفرج الأبشيهي، **المستطرف في كلّ فنّ مستظرف**، ص ص ٥٥٨-٥٦٠.
(٨٣) أبو الفرج الأبشيهي، **المستطرف في كلّ فنّ مستظرف**، ص ص ٥٥٨.

مجال الفَكَه. لم تكن له جرأة التيفاشي حتى ينشر الفاحش والحامض فيُضحك ويُسلّي، ولم يكن له علم الجاحظ أو التوحيدي حتى يواصل التنظير ويعلّم مبادئ المزج بين الجدّ والهزل، ولم يكن فقيهاً متزّمتاً حتى ينحو نحو الغزالي.

لقد عرضنا في ما تقدّم من عملنا أهم مظاهر الفَكَهِ، وحاولنا الإحاطةَ بهذا الفنّ وبيانَ صراعه الدائم لفرض نفسه في الثقافة بوصفه عنصراً من عناصرها القارّة. وسنحاول في ما يلي تتبّع مظاهره في الحديث النبويّ الذي استعمله الكتّاب والفقهاء والمنظّرون الذين مررنا بهم مطيّةً للاستدلال على تحريم الفَكَهِ أو السماح به والحثّ عليه.

الفصل الثاني

الفَكَهُ مِنْ عَالَمِ اللَّهِ

إنّ الفَكَهَ يُفاجئُنا فيقوم حيث لا ننتظره أنْ يقوم. ويكفي أنْ ننظر في الأحاديث الكثيرة لنقف على هذا الأمر. فهذه الأحاديث تتجلّى في ظاهرها ديناً مقدّساً وأحكاماً وطقوساً وشعائرَ تشدّ إليها العبدَ فلا يرى غير ذلك الدين المقدّس وتلك الأحكام والطقوس والشعائر، ولكنّها تنشر أيضاً الفَكَهَ الذي يتشكّل في ظلّها عالماً من الجمال تتمثّل وظيفته في نَفيِ العُسر عن الدين ونَشرِ اليُسر فيه وصبَغِ الجوّ بالفرح والسرور.

١ ـ في فَكَهِ اللَّه

لم تتحرّج الأحاديث في أنْ تجعل الله أوّل الفَكِهينَ. وهي تمرّر ذلك بطريقة فنّية على غاية من الإحكام. فتبتدئُ بنشر الجدّ ثمّ تُغيّر وجهتها إلى الهزل. ولنا في الحديث التالي خير مثال على ذلك. فقد جاء في أوّله: «[...] أنَّ النَّاسَ قَالُوا يَا رَسُول الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قَالُوا لا يَا رَسُول الله. قَالَ فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا لا يَا رَسُول الله. قَالَ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتْبَعْهُ فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أوْ

مُنَافِقُوها». فعبّر عن عالم الجدّ من خلال هول الموقف ورؤية الله والحساب والعقاب.

ثمّ جاءت نهاية الحديث نفسه تُخبر عن أمر آخر، فيغيب الهول والجدّ والحساب والعقاب، وتعمّ التسلية الناس فيفرحون: «[...] ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقبلٌ بوَجْهِهِ عَلَى النَّار [...] فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّار فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا فَيَدْعُو اللَّهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَهُ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ فَيَقُولُ لا وَعِزَّتِكَ لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ ثُمَّ يَقُولُ أَيْ رَبِّ قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لا تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَداً وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ وَيَدْعُو اللَّهَ حَتَّى يَقُولَ هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ فَيَقُولُ لا وَعِزَّتِكَ لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابَ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ فَرَأى مَا فِيهَا مِنَ الْحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ ثُمَّ يَقُولُ أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ فَيَقُولُ اللَّهُ أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ فَيَقُولُ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ لا أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ فَلا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللَّهُ مِنْهُ فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ [...]»[1].

---

(١) البخاري، **الصحيح**، كتاب التوحيد، حديث رقم ٦٨٥٥، مسلم، **الصحيح**، كتاب الإيمان، حديث رقم ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١؛ الترمذي، **السنن**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، حديث رقم ٢٣٥٨، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٢٠٧٣؛ النسائي، **السنن**، كتاب التطبيق، حديث رقم ١١٢٨؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الزهد، حديث رقم ٤٢٧٠، ٤٢٩٩؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، =

فإذا جمعنا الآن بين بداية الحديث ونهايته وقفنا على نص قائم على ثنائية طرفاها يختلفان اختلافاً بيّناً في مستوى المعنى والوظيفة. فالطرف الأول يندرج في إطار الدربة والتعليم والإحاطة بالمؤمن، فجاء جزء النصّ المتعلّق به إرشاداً وتوجيهاً إلى الصراط المستقيم، غايته أنْ يُعرّف المؤمنَ بربّه ويقرّبه إليه عن طريق التشبيهات حتى يستوي واضحاً وضوح «الشمس ليس دونها سحاب»، ومكتملاً اكتمال «القمر ليلة البدر»، فينتفي الآلهة من غير الله ويغرق الإنسان في عالم الإيمان ويتغنّى النصّ بالتوحيد. أمّا الطرف الثاني فقد جُعل لغاية فنية فنحا جزء النصّ المتعلّق به منحى قصصياً وقام ترويحاً عن النفس يغلب عليه الإطارُ الفَكِهُ. فإذا الله يُحاور عبداً من عباده، كان لجحده النعمة وكفره وإشراكه ممن أعدّ للنار. وقد قام الحوار على كثرة الطلب وكثرة العطاء. كلما طلب العبد أمراً مكّنه الله منه بعد أنْ يكون قد أخذ عليه العهود والمواثيق وأقسم إنّ ذلك كلّ ما يطلب وإنّه لن يطلب بعد ذلك شيئاً. ولكنّ العبد يعود إلى الطلب رغم عهوده والمواثيق، فيعود الله إلى أخذ العهود والمواثيق ويعطي العبد ما طلب. تكرّرت العملية مرّات حتى فاز الطالب بالجنّة.

نشعر ونحن نقرأ النصّ باليُسر يُخيّم على العلاقة بين الله والعبد. فبالرغم من إلحاح الطالب في الطلب لا يُظهر الله سُخطاً ولا يغضب. وبالرغم من كذب السائل وحِنْثه في الأيمان لا يُعاقبه الله على فعلته بل يعود إلى امتحانه وتجربته من جديد. ونشعر هنا بالدين سمحاً حتى إنّنا لنرى الله مازحاً هازلاً فيضحك من عبده الذي كان ملحاحاً لا يعرف السكوت وكثير السؤال لا يعرف القناعة.

= حديث رقم ٧٣٩٢، ١٠٤٨٥، ١٠٥٩٣، ١٠٦٥٥، ١٠٧٢٤، ١٠٧٧٠، ١١٠١٧، ١١١٠٧، ١١٣٠٧، ١١٤٢٤، ١١٤٦٣؛ الدارمي، السنن، كتاب الرقاق، حديث رقم ٢٦٨١، ٢٦٨٢، ٢٦٩٦.

كان ضَحِكُ الله في الحديث عملية تصوّر تصويراً واضحاً الطريقة التي ينتشر بها الفَكَهُ في النصوص التي تشكّل أسّاً من أسس الثقافة العالمة. وقد جاء الفَكَهُ هنا نتيجة عدّة عناصر تجمع بينها القصة فتتكافل وتتعاضد لنشر السرور فيها. فالفَكَهُ يقوم هنا عند مستوى سطح النصّ إذ يتجلّى واضحاً في الفعل المستعمل **ضحك**. وهو يقوم عند مستوى هيكل النصّ إذ يطغى على الحوار الذي دار بين الله والعبد فيجعله سلساً بسيطاً قريباً إلى النفس. وهو يقوم كذلك عند مستوى المعنى إذ نشعر فيه بالودّ بين الله وعبده، ونشعر فيه بالمزاح وعطف الإله على عبده الجاهل بأمره.

لقد بُني الحديث بناءً فنّياً مُحكماً جُعل لخدمة الإيمان. فقد خضع في جزئه الأوّل لعملية تركيز عناصر الإيمان ودعمها عن طريق الصورة الجليّة الواضحة. فتجلّى الله وجهاً فعليّاً ينظر فيه الإنسان يوم القيامة نظراً حقيقيّاً ويراه ساطعاً واضحاً ويُكلّمه تكليماً مباشراً لا شكّ فيه. وسواء عبد الإنسانُ في حياته على الأرض الله أو عبد الشمسَ أو القمرَ أو الطواغيتَ، فإنّه يومَ القيامة يجد نفسه بالضرورة تحت سلطان الله الذي يجمع يومها الناس جميعاً ويسألهم عمّا فعلوه من خير أو شرّ، ويقضي بينهم، ويعاقبهم ويحاسبهم. وإذ يجد الإنسان نفسه في هذا الحديث وجهاً لوجه مع الله يوم القيامة، قائماً بين يديه للحساب، يزداد إيمانه بالله ويمتلئ بوجوده ويرى مقاضاة الناس في الآخرة حقّاً لا شكّ فيه، فيرهب الله ويخافه.

وحتى لا يظلّ الإنسان على تلك الحالة من الرهبة والخوف، تساوره الشكوك وتقضّ مضجعه صورة القيامة وأهوالها الكثيرة، يقوم النصف الثاني من النصّ ـ بفضل ما احتواه من يُسر ـ عالماً من المخيال يحاول تخليص الإنسان من براثين الشكّ الذي يترصّده، فيروي له قصّة تنتمي إلى الموروث الشعبي الذي لا يتصوّر الله إلاّ على علاقة بالواقع وعالم الناس، فيلاعب عبده زمناً لا هو يملّ منه ولا يضجر. ثمّ يضحك مثلما يضحك عباده، ولكنّ

ضحكه نشعر به خفيفاً لا سخرية جارحة فيه ولا إيلام.

إنّ هذا البناء المحكم الذي ظهر عليه الحديث يؤدّي دوراً فعّالاً في عملية الإحاطة بالإنسان وتأطيره تأطيراً صالحاً. إنّه يقوم في الوقت نفسه وجهاً وقَفا، ساعةً يُرهّب الإنسان وساعةً يُرغّبه. كلما شعر بتضييق الخناق على الإنسان سارع إلى الترفيه عنه والترويح عن نفسه فيحدث الخلاص.

وقد كثرت الأحاديث التي ظهر فيها الله ضاحكاً(٢) فظهر بذلك قريباً من الإنسان محبّاً للعبد لأنّ ضحكه خيرٌ كلّه(٣). وقد شمل ضحكه مناسبات عديدة نشر فيها السرور والحبور رغم أنّها في بعض الأحيان لا تبدو مدعاة إلى إثارة الضحك. فالله يضحك إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر(٤). والله يضحك إلى الرجل يقوم في الليل والقومِ إذا صُفّوا للقتال(٥). والله يضحك

---

(٢) انظر: أبو بكر البيهقي، **الأسماء والصفات**، ص ص ٤٦٧ـ٤٧٤. وانظر كذلك: D. Gimaret, *Dieu à l'image de l'homme*, pp. 265-279.

(٣) «[...] عَنْ أَبِي رَزِينٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ قَالَ قُلْتُ يا رَسُولَ اللَّهِ أَوَ يَضْحَكُ الرَّبُّ قَالَ نَعَم قُلْتُ لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْراً»، ابن ماجة، **السنن**، المقدّمة، حديث رقم ١٧٧؛ أحمد، **المسند**، مسند المدنيين، ١٥٦١٧.

(٤) «[...] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلانِ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْتَشْهَدُ»، البخاري، **الصحيح**، كتاب الجهاد والسير، ٢٦١٤؛ «[...] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ كِلاَهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَقَالُوا كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُسْتَشْهَدُ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْلِمُ فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُسْتَشْهَدُ [...]»، مسلم، **الصحيح**، كتاب الإمارة، ٣٥٠٤، ٣٥٠٥. وانظر كذلك: مالك بن أنس، ، **الموطّأ**، كتاب الجهاد، حديث رقم ٨٧٢، أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٧٨٧٧، ٩٥٩٧. ١٠٢٢٥؛ النسائي، **السنن**، كتاب الجهاد، حديث رقم ٣١١٥؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب المقدّمة، حديث رقم ١٨٧.

(٥) «[...] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَةٌ يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ الرَّجُلُ

من قنوط عبده وقُرب غيره[٦]. والله يضحك لِلصَّفِّ فِي الصَّلاةِ وَلِلرَّجُلِ يُصَلِّي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَلِلرَّجُلِ يُقَاتِلُ خَلْفَ الْكَتِيبَةِ[٧]. والله يضحك لصاحب البحر حين يركب البحر بعيداً عن أهله، وحين يميد متشحّطاً وحين يرى البرّ[٨]. والله يضحك ساعة يخلق الخلق ويُنْشِئُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ الْمَنْطِقِ وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ[٩].

ونشعر ونحن نقرأ الأحاديث الكثيرة التي جعلت الله ضاحكاً، أنّ الدين قد سعى بأسلوب جريء وفنّية عالية إلى بثّ المسرّة والحبور في عالم الناس العسير. لم يكن ضحك الله في الأحاديث اعتباطاً أو للذّة خاصة، بل كان من أجل أنْ يضحكَ الإنسانُ وتعمَّ حياتَه المسرّاتُ. فإذا ضحك الله ضحك بالضرورة رسول الله. وإذا ضحك رسول الله ضحك بالضرورة صحابة رسول الله. وإذا ضحك صحابة رسول الله ضحك بالضرورة تابعوهم وتابعو تابعيهم والمسلمون الذين اقتدوا بهم ونسجوا على منوالهم. وقد روت الأخبار أنّ عبد الله بن مسعود مثلاً كان ينفجر ضاحكاً كلما روى حديثاً جاء

= يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ وَالْقوم إذا صفُّوا للْقتال»، أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٣٣٧؛ النسائي، **السنن**، كتاب الجهاد، حديث رقم ٣١١٥.

(٦) «[...] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عَبْدِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ قَالَ أَبُو رَزِينٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَو يَضْحَكُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ الْعَظِيمُ لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْراً فَقَالَ نَعَمْ لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْراً»، أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المدنيين، حديث رقم ١٥٦١٢؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب المقدّمة، حديث رقم ١٧٧.

(٧) «[...] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ لَيَضْحَكُ إِلَى ثَلاثَةٍ لِلصَّفِّ فِي الصَّلاةِ وَلِلرَّجُلِ يُصَلِّي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَلِلرَّجُلِ يُقَاتِلُ[...] خَلْفَ الْكَتِيبَةِ»، ابن ماجة، **السنن**، كتاب المقدمة، حديث رقم ١٩٦.

(٨) D. Gimaret, *Dieu à l'image de l'homme*, p. 274.

(٩) «[...] قَالَ الشَّيْخُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ الْمَنْطِقِ وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ»، أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٢٥٧٤.

فيه أنّ الله يضحك. ثمّ كان يسأل مَنْ حوله: ألا تسألوني مِمَّ أضحك؟ فيسألونه مِمَّ يضحك؟ فيجيب: كذلك فعل الرسول، ضحك وسأل الناس أنْ يسألوه مِمَّ يضحك ولما سألوه أجاب: أضحك مِنْ ضَحِكِ رَبِّي(١٠).

إنّ الأحاديث التي يظهر الله فيها ضاحكاً تؤدّي دوراً فعّالاً في ترسيخ العالَم الفَكِه وتنهض بوظيفة فنّية غايتها انتقال الضحك من مُلْهِم الضحك الذي هو الله إلى المسلمين عامة عبر الرسول والصحابة. فإذا الضحك الواحد يُصبح متعدّداً، ويتضاعف شيئاً فشيئاً عبر الرواية حتى يعمّ الأمّة قاطبةً.

وقد صوّرت الأحاديثُ الخاصة بيوم الحساب الله في صورة الضاحك دائماً. فرغم ثقل ذلك اليوم الذي تنتظر فيه كلّ نفس الحكم الذي يخصّها، فإنّ الله لا يتجلّى إلاّ ضاحكاً مبشّراً المسلمين جميعاً بالفوز بالجنّة، حتى مَنْ كان منهم قد أعدّ للنار يفوز يومها بالجنّة ويُرمى مكانه في النار يهوديّ أو نصرانيّ(١١). وهكذا تتجلّى بوضوح وظيفة الدين المتمثّلة في السعي إلى نشر

---

(١٠) «[...] فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّا أَضْحَكُ فَقَالُوا مِمَّ تَضْحَكُ فَقَالَ هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مِنْ ضَحِكِ رَبِّي حِينَ قَالَ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ إِنِّي لا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَدِيرٌ»، أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، حديث رقم ٣٧٠٤، وانظر كذلك: البخاري، ، **الصحيح**، كتاب الرقاق، حديث رقم ٦٠٨٦؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الإيمان، حديث رقم ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤؛ الترمذي، **السنن**، كتاب صفة جهنّم، حديث رقم ٢٥٢٠؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الزهد، حديث رقم ٤٣٣٠.

(١١) «[...] عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الأُمَمَ فِي صَعِيدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بَدَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِهِ مَثَّلَ لِكُلِّ قَوْمٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فَيَتْبَعُونَهُمْ حَتَّى يُقْحِمُوهُمُ النَّارَ ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ وَنَحْنُ عَلَى مَكَانٍ رَفِيعٍ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتُمْ فَنَقُولُ نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ فَيَقُولُ مَا تَنْتَظِرُونَ فَيَقُولُونَ نَنْتَظِرُ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فَيَقُولُ وَهَلْ تَعْرِفُونَهُ إِنْ رَأَيْتُمُوهُ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ كَيْفَ تَعْرِفُونَهُ وَلَمْ تَرَوْهُ فَيَقُولُونَ نَعَمْ إِنَّهُ لا عِدْلَ لَهُ فَيَتَجَلَّى لَنَا ضَاحِكاً فَيَقُولُ أَبْشِرُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا جَعَلْتُ مَكَانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيّاً»؛ أحمد، **المسند**، كتاب مسند الكوفيين، حديث رقم ١٨٨٢٤،

اليسر وتجنّب العسر. فالقول بأنّ الله يتجلّى ضاحكاً لعباده المسلمين ليبشّرهم برفع العقاب عنهم ووقف النار التي تنتظرهم وتمكينهم من الجنّة قولٌ جُعِلَ للترويح عن النفس الخائفة من يوم القيامة والحساب. وحتّى لا تظلّ تلك النفس مريضة مقطّعة الأوصال في انتظار يوم مجهول، يتدخّل المقدّس، ممثّلاً هنا في أحاديث الرسول، لتنجو من المرض وتَقَطُّع الأوصال. وحتّى لا يُرفع عالمُ العسر كُلّياً، وحتى لا تكون النار بلا وظيفة تُذكر بعد أنْ نجا من شرّها المسلمون، تُسارع الأحاديث إلى جعل اليهود والنصارى أهلاً لذلك العسر وتلك النار، فيرتفع المسلم بدينه الذي ارتآه سَمْحاً وتسقط الأديان الأخرى في متاهات العقاب.

إنّ هذه الأحاديث تسعى إلى تشييد عالم جميل يُعبّر عمّا يطمح إليه المسلم، فيستقرّ فيه مطمئنّاً مرتاح البال، لا يخاف يوم العقاب ولا يرهب النار التي وقودها الأجساد، لأنّ الأجساد التي جُعلت للنار وقوداً يوم الدين لا يمكن أنْ تكون أجساد مَن اختاروا الإسلام ديناً، بل أجساد المحرّفين للدين من نصارى ويهود ومشركين وكفّار. يومها ينجو المسلم من كلّ شرّ كان يترصّده ويصدق المبدأ المنظّم للفكر الإسلامي الذي يجعل الدينَ عند الله الإسلامَ، وجعل كلّ دين غيره لا ينفع صاحبه يوم القيامة.

والناظر في ضَحِكِ الله في الحديث يجده إيجابياً كلّه إذ لا يبرز فيه الله إلاّ راضياً عن عباده المسلمين، عطوفاً بهم رحيماً، مُجزلاً العطاء، واهباً الخلود في جنّة السماء، فجاء ضحكه مخالفاً تماماً لضحك غيره من الأرباب. فربّ اليهود مثلاً لا يضحك إلاّ من أجل الاستهزاء والبطش بالأعداء(١٢). وقد جاء في العهد القديم: «السَّاكِنُ فِي السَّمَوَاتِ يَضْحَكُ.

= وانظر كذلك: مسلم، **الصحيح**، كتاب التوبة، حديث رقم ٤٩٦٩؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الزهد، حديث رقم ٤٢٨١.

(١٢) انظر: D. Gimaret, *Dieu à l'image de l'homme*, p. 277.

الرَّبُّ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ. حِينَئِذٍ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهِمْ بِغَضَبِهِ وَيَرْجُفُهُمْ بِغَيْظِهِ»(١٣). وجاء فيه أيضاً: «أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَتَضْحَكُ بِهِمْ. تَسْتَهْزِئُ بِجَمِيعِ الأُمَمِ»(١٤).

ولم يشكّل ضَحِكُ الله الخيّر عند علماء المسلمين أمراً تحارُ فيه العقول. لم يجدوا فيه حرجاً وبسطوه بسطاً يستجيب لمذاهبهم المختلفة في فهم صفات الله وأعماله وطرق علاقته بالخلق. وقد أخذه بعضهم على أساس أنّه ضحك حقيقي واستشهدوا على ذلك بسؤال بعض الصحابةِ الرسولَ إنْ كان الله يضحك وجوابه بالإيجاب(١٥). وأخذه بعضهم على أنّه ليس إلاّ صورة للنور والعدل، وأنّه مجاز لأنّ الله لا يضحك مثلما يضحك الإنسان فيكشّر عن الأسنان ويثغر فاه بل يعني ضحكه الإظهار والبيان فتتجلّى فضائله على الإنسان(١٦). ورغم ما في هذا القول من محاولة واضحة لرفع التشبيه، فإنّ الله يبقى في الذهن صورة ضاحكة. وقد تعدّدت محاولات رفع التشبيه وتنزيه الله، فاتُّخذ الضحك لغير ما وُضع له في الأصل فقيل هو رحمة الله بالعبد ورضاه عنه وصَفْحه(١٧)، أو هو أنْ «يُبدي عزّ وجلّ من فضله ونعمه وتوفيقه [وذلك لأنّ الضحك] إذا كان ممّا استعمل في اللغة على وجوه مخصوصة منها تكشير الأسنان وفتح الفم ومنها ظهور المكتوم من الأمور وبروز المستور من الفعل وكان يستحيل وصف الله عزّ وجلّ بالجوارح والعينين لحلول الحوادث في ذاته وجب أنْ يكون محمولاً على ما

---

(١٣) **الكتاب المقدّس**، **العهد القديم**، مزامير، ١/ ٤ـ٥.

(١٤) **الكتاب المقدّس**، **العهد القديم**، مزامير، ٥٩/ ٩.

(١٥) ابن ماجة، **السنن**، كتاب المقدّمة، حديث رقم ١٧٧؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المدنيين، حديث رقم ١٥٦١٧.

(١٦) «فمعنى قول النبي: «يضحك الله» أي يُبين ويُبدي من فضله ونعمه ما يكون جزاءً لعبده الذي رضي عمله»، أبو بكر البيهقي، **الأسماء والصفات**، ص ص ٤٧٣-٤٧٤.

(١٧) «قال البخاري معنى الضحك الرحمة»، أبو بكر البيهقي، **الأسماء والصفات**، ص ٤٧٠.

يصحّ ويجوز في وصفه وذلك هو الإبانة عن فضله والإظهار لنعمه»[١٨].

إنّ هذه التبريرات قصد رفع التشبيه لم تستطع أنْ ترفع عن الله ضحكه، فظلّ الله في الحديث ضاحكاً، وظلّت محاولات رفع التشبيه مجرّد سعي إلى بيان الفرق بين الله والعبد، فطُوِّعت لذلك الألفاظُ تطويعاً يُخرجها من واقعها المجرّد ويفتح أمامها أبواب المجاز الواسع، دون نفيها نفياً قاطعاً أو الطعن في وجودها. وإنّ الناظر في كلام ابن فورك الذي نورده في ما يلي مثالاً على ذلك ليقف على هذا الأمر بكثير من الوضوح:

«إنّ لفظ الضحك مشترك المعنى في اللغة وتختلف أحكامه باختلاف من يُضاف إليه ذلك ويوصف به، وليس هو من الألفاظ التي تختصّ بمعنى واحد حتى لا يليق به غيره، فمن ذلك أنّ العرب تقول في تكشير أسنان الإنسان وثغر فيه إذا وقع على وجه مخصوص ضحك، وكذلك تقول ضحكت الأرض بالنبات إذا ظهر فيها النبات وانفتق عن زهره، وكذلك قالت العرب لطلع النخل إذا انفتق عنه كافوره الضحك لأجل أنّ ذلك يبدو منه مع البياض الظاهر كبياض الثغر، يقولون ضاحك الطلعة إذا ظهر منه ما كان مستتراً وكذلك قال القائل: «يُضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ». وقال ابن الأعرابي ينشد في الربيع: [...] «وللربيع ابتسام في نواحيها»، يريد بالابتسام ظهور النبات فيها وطلوع النور عليها، وأنشد بعضهم في ذلك: «يضحك الروض من بكاء السماء». وكذلك «وضحك المزن بها» يريد بالمزن السحاب وبضحك البرق الذي ظهر منه وببكائه المطر. وحكى بعضهم أنّ العرب تقول للطريق الواضح البين هذا طريق ضاحك وهذا طريق لاحب إذا أرادوا وصفه بالظهور. واعلم أنّ مرجع الضحك في جميع هذا الذي ذكرنا إلى البيان والظهور، وأنّ كلّ من أبدى أمراً كان يستره فإنّه يقال له ضحك. وكذلك

(١٨) ابن فورك، **كتاب مشكل الحديث وبيانه**، ص ص ٤٠-٤١.

يقال لمن أبرز المكتوم وأظهر المستور ذلك فعلى هذا المعنى الخبر في قوله عليه السلام «يضحك الله» أنْ يُبدي عزّ وجلّ فضله ونعمه وتوفيقه»(١٩).

فهذا الخطاب في فقه اللغة وعلم اللسان من جنس الترف الفكري والرياضة العقلية لا غير. وهو خطاب يُغني اللفظ بمعانٍ كثيرة العدد ولكنّه لا يستطيع أنْ يُخرجه من حقله الدلالي الذي وُضع له، فيظلّ الضحك ـ سواء كان تكشيراً عن الأسنان أو انفراجاً للثغر أو إبرازاً للمسكوت عنه أو نِعَماً وفضلاً من عند الله ـ صورةً للسرور ورضى بالواقع الموصوف وفضاءً للتعبير عن قرب الله من العبد ويُسر الدين.

وإذ جعلت الأحاديث الله ضاحكاً فقد جعلته أيضاً متعجّباً من خلقه الذين ينهضون بأعمال تسرّه أو تدعو إلى السخرية اللطيفة التي تقوم نادرة وفُكْهة. فالله يتعجّب سروراً إذ يرى العائلة المسلمة تبيت على الطوى وتُكرم ضيفها وتُخفي عنه أمرها حتى لا يرى الحاجة التي هي عليها(٢٠). والله يتعجّب سروراً إذ يرى الرجل يغزو في سبيل الله وينهزم أصحابه ولكنّه يستمرّ حتى يهريق دمه، فيعجب الله ويُخبر ملائكته بذلك طالباً منهم النظر في أمر هذا

(١٩) ابن فورك، **كتاب مشكل الحديث وبيانه**، ص ٤٠.

(٢٠) «[...] عَنْ أبي هُرَيْرَةَ [...] أنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إلا الْمَاءُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَار أَنَا فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ مَا عِنْدَنَا إلا قُوتُ صِبْيَانِي فَقَالَ هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ فَجَعَلا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلانِ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ فَلما أَصْبَحَ غَدا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾»، البخاري، **الصحيح**، كتاب المناقب، ٣٥١٤؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الأشربة، حديث رقم ٣٨٢٩؛ الترمذي، **السنن**، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٣٢٢٦.

الرجل[٢١]. والله يتعجّب ساخراً سخرية لطيفة من عباده يقادون إلى الجنّة بالسلاسل[٢٢].

وقد شكّل عجب الله مجالاً للدرس والنظر[٢٣] خاض في أمره العلماء بالإجراء وفق موقف التشبيه أحياناً فجعلوا الله يعجب كما يعجب الإنسان أو وفق مبدأ رفض التشبيه فجعلوا العجب عنده تكبيراً أو استعظاماً لأنّ القول بالعجب حقيقة يفترض أنْ يكون المتعجّب جاهلاً بالأمر فيفجأه الأمر فيعجب، والجهل والمفاجأة لا يُمكن أنْ يكونا من صفات الله[٢٤]. ولكنّ العجب في الحالتين اتُّخذ على أساس أنّه مجال للرضى والسرور، فيظهر الله في هذه الأحاديث تعبيراً واضحاً عن صورة الدين النيّرة التي كانت تختلج في الإنسان ويُعبّر من خلالها عن حنينه إلى الإفلات من عُسر الدين.

وإذا كان علماء الإسلام لم يجدوا حرجاً في نسبة العجب إلى الله في الأحاديث الكثيرة فلأنّ كثيراً منهم، وخاصة من المفسّرين، وجدوا أنّ القرآن نفسه لم يخلُ من عجب نسبه الله إلى نفسه. فهم مثلاً عند تعرّضهم إلى الآية: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾[٢٥] قرأوا عجبت بالضمّ معتبرين الله متكلماً

(٢١) «[. . .] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَجِبَ رَبُّنَا [. . .] مِنْ رَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَانْهَزَمَ يَعْنِي أَصْحَابَهُ فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ فَرَجَعَ حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلائِكَتِهِ انْظُرُوا إلى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ»، أبو داود، **السنن**، كتاب الجهاد، حديث رقم ٢١٧٤؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، حديث رقم ٣٧٥٣.

(٢٢) «[. . .] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلاسِلِ»، البخاري، **الصحيح**، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٧٨٨؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الجهاد، حديث رقم ٢٣٠٢؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٢٦٧١، ٨٩٠٣، ٩٤٠٦، ٩٥٠٩.

(٢٣) انظر: D. Gimaret, *Dieu à l'image de l'homme*, pp. 280-286.

(٢٤) «وإنّما يعجب ويضحك من لا يعلم ثمّ يعلم، فيعجب ويضحك»، ابن قتيبة، **تأويل مختلف الحديث**، ص ٢١١.

(٢٥) **الصافات** ٣٧/ ١٢.

عن نفسه «بمعنى عظم عندي وكبر»[٢٦]. فإذا كان القرآن معبّراً عن ذلك عبّر عنه الحديث بالضرورة وهو الذي لا يسير إلاّ في رحاب القرآن.

ومثلما كرّست الأحاديثُ ضَحِكَ الله وعَجَبَهُ كرّست سعادتَه وفرحَه، فجعلت سعادة الله عارمةً وفرحه شديداً كلما رأى عبداً من عباده تائباً خاضعاً مسلماً: «[...] قال رسول الله ﷺ لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا»[٢٧]. ووصفتْ أحاديثُ أخرى هذه الحالة وصفاً دقيقاً فذكرت عن الرسول قوله: «[...] لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»[٢٨].

إنّ فرح الله وسعادته يُعبّران عن العلاقة التي أرادت السنّة الثقافية أنْ تُقيمها بين الله والعبد. وهي علاقة وإنْ أعلتْ من شأن العبد بإبراز أهمّيته عند الله، جعلتْ في الوقت نفسه الله قريباً من العبد وأظهرته لا غاية له غير أنْ

---

(٢٦) الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م١٠، ص ٤٧٦.

(٢٧) مسلم، **الصحيح**، كتاب التوبة، حديث رقم ٤٩٢٨؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب التوحيد، حديث رقم ٦٨٥٩، ٦٩٥١؛ الترمذي، **السنن**، كتاب الزهد، حديث رقم ٢٣١٠، كتاب الدعوات، حديث رقم ٣٥٢٧؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٣٨١٨؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٧١٥، ٨٧١٥، ٩٢٤٤، ١٠٢٨٦.

(٢٨) مسلم، **الصحيح**، كتاب التوبة، حديث رقم ٤٩٢٩؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب الدعوات، حديث رقم ٥٨٣٣؛ الترمذي، **السنن**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، حديث رقم ٢٤٢١، ٢٤٢٢؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، حديث رقم ٣٤٤٦.

يُسعدَ عبدَه ويَسعدَ بسعادته. وإنّنا لنشعر من خلال هذه الأحاديث بالرعاية الموصولة التي يغمر بها الله العبد، فيظهر الله كالأمّ الحنون تفرح لفرح وليدها، بل إنّ فرحها لأشدّ من فرح وليدها. وإنّ فرح الله كذلك لهو أشدّ من فرح عبده الذي أضلّ راحلته ثمّ وجدها.

ويظلّ هذا المعنى قائماً وفرح الله سائداً حتى عندما يتصدّى لهذا الأمر الرافضون للتشبيه ويُحاولون حمل المعنى على المجاز ويذهبون إلى «أنّ الفرح في كلام العرب على وجوه منها الفرح بمعنى السرور [...] وهذا المعنى لا يليق بالله عزّ وجلّ لأنّه يقتضي جواز الشهوة والحاجة عليه ونيل المنفعة، ومنها الفرح بمعنى البطر والأشر [...] والوجه الثالث من الفرح أنْ يكون بمعنى الرضى [...] ومعنى الخبر يحمل على ذلك لأنّ البطر والسرور لا يليقان بالله ويكون معنى ذلك أنّ الله تعالى أرضى بتوبة العبد من رضى من وجد ضالّته. واعلم أنّ أصل الرضى [...] إنّما يتعلّق بمن في المعلوم أنّه يوافي ربّه على الإيمان والطاعة وأنّ من وفّقه الله تعالى للتوبة من معاصيه فقد رضي أنْ يكون مثاباً على الخير مقبولاً منه الطاعة والعبادة ولم يزل الله عندنا راضياً عمّن يعلم أنّه يموت على الإيمان مزكياً مادحاً مثنياً عليه بالإيمان والخير والبرّ وتكون فائدة الخبر على ما ذكرنا تعريفنا أنّ الله عزّ وجلّ هو التائب على العبد [...] ويدل على صحّة ما نقول أنّ الله عزّ وجلّ هو الخالق لأعمال العباد والموفّق للخير»[٢٩]. فالقول بالمجاز هنا لا يُغيّر من أمر الفرح شيئاً، ولعلّه بفضل عمليات التأويل والإضافة والتبرير يزيد العلاقة بين الله والعبد متانة ويجعلها عالماً من الرضى يُخيّم عليه السرور وتطغى عليه السعادة فتنقلب الحياة الدنيا صورة زاهية جميلة.

إنّ المتأمّل في تلك الأحاديث يُلاحظ مدى اهتمامها بجعل الحياة فرصة

---

(٢٩) ابن فورك، كتاب مشكل الحديث وبيانه، ص ٥٢.

لليُسر والسعادة. ويلاحظ كذلك أنّها تسعى إلى القول بأنّ الإنسان مهما عظُمت ذنوبه فإنّ عفو الله أعظم. كلما أظهر الإنسان التوبة مَنّ الله عليه بالغفران. وكلما سُرّ الإنسان بما منّ به الله عليه كان سرور ربّه أشدّ. ويلاحظ أخيراً أنّها دعوة إلى العبد ليُبادر بالتوبة لأنّ عطاء الله في نهاية الأمر لا يكون إلاّ بتوبة العبد. فتحمل الأحاديثُ العبدَ على التوبة وتجعله مؤمناً بأنّ وراء التوبة الغفران ووراء الغفران الثواب.

وقد تميّزت هذه الأحاديث بصياغتها الفنّية الطريفة. فهي قد جعلت عثور الإنسان على ضالّته لا يكون إلاّ بعد يأس من عثوره عليها وبعد تسليم أمره للموت ومن ثمّة لربّ الموت. وهي بذلك تُبيّنُ أنّ اليأسَ يتبعه الفرجُ، وأنّ الفرجَ لا يحلّ إلاّ عندما يكون الإنسانُ لا ينتظر حلوله. فإذا تمّت الأمور على هذه الشاكلة كانت فرحةُ الإنسان بالشيء أعظمَ وسعادتُه به أشدَّ. وتخدم هذه الأحاديث غرضاً آخر، فهي تحمل الإنسان على الاعتقاد بقوّة تسنده وتُنْجِدُه عندما يكون في حاجة إلى نجدة. وهذه القوّة لا تكون إلاّ الله. فإذا ما امتلأ الإنسان بهذه الفكرة ازداد إيمانه وسارع إلى التوبة وإنْ كان من قبلُ على كفرٍ، وهو يعلم أنّ الله قريبٌ منه. فهذه الأحاديث تقوم هنا دعماً للآية التي جاءت من قبلُ لتكرّس هذا المبدأ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٣٠].

إنّ هذه الآية وتلك الأحاديث تسعى جميعاً إلى إقامة علاقة دائمة بين الله وعباده المؤمنين على أساس التواصل المستمرّ بينه وبينهم، فيشعر العباد بحاجتهم إلى الله، ويتوجّهون إليه بالدعاء وهم يعلمون أنّه قريب منهم مستجيب لهم إذا دعوه، فيستجيب الله بالضرورة لدعائهم، ويُلبّي حاجاتهم، فيشكرون له فضله عليهم. إنّ هذه العلاقة السمحة بينه وبينهم تسعى إلى بناء

(٣٠) البقرة ٢/١٨٦.

عالم الإيمان في إطار يتميّز بالانسجام والنظام بعيداً عن كلّ نفور وفساد.

وتذهب أحاديث أخرى إلى أبعد من ذلك فتُبرز الله يَبَشُّ للمسلم إذا أبدى إيمانه ولازم المساجد تماماً كما يَبَشُّ الإنسان لمن يحبّ. فقد جاء في الحديث: «[...] عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلاةِ وَالذِّكْرِ إلا تَبَشْبَشَ اللَّهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بغَائِبِهِمْ إذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ»(٣١). فإذا الله هنا يبدو مستبشراً مُظهراً الودّ الكبير لعبده دلالة منه على رضاه عنه وحبّه له وقد رآه متعبّداً متوطّناً المساجدَ للصلاة(٣٢).

إنّ ما يطغى على هذه الأحاديثِ عالمُ اليُسرِ الذي يُميّزها. وهذا اليُسر نشعر به من خلال ما تنشره تلك الأحاديثُ من فرحٍ كلما عظُم أمره عند العبد كان أعظم عند الربّ. فإذا جمعنا الآن بين هذه الأحاديث الخاصّة بفرح الله وتلك الأحاديث التي رأيناها سابقاً والخاصّة بضحكه وعجبه وقفنا على عناصر تدخل في باب الفَكَهِ وظيفتها تجميل عالم الدين وجعله يتغنّى بالحياة التي يفوز بها العبد في ظلّ رضى الربّ عنه.

إنّ رضى الربّ عن العبد قد تجلّى في الأحاديث التي ذكرناها من خلال صفات أسندت إلى الله فجعلته يتأثّر بما يسمع ويرى مثلما يتأثّر الإنسان بما يسمع ويرى، ويشعر ويُحسّ مثلما يشعر الإنسان ويُحسّ. فضَحِكُ الله من العبد أو من الشيء، وعَجَبُهُ لهذا الفعل أو لذاك، وفَرَحُهُ واستبشارُهُ وبَشاشتُهُ

---

(٣١) ابن ماجة، السنن، كتاب المساجد والجماعات، حديث رقم ٧٩٢؛ أحمد بن حنبل، المسند، باقي كتاب مسند المكثرين، حديث رقم ٧٧٢٠، ٨٠٠٠، ٨١٣١، ٩٤٦٥.
«تَبَشْبَشَ أصله تَبَشَّشَ فأبدلوا من الشين الوسطى باءً وتَبَشَّش به وتَبَشْبَش مفكوك من تَبَشَّشَ، والبَشّ فرح الصديق بالصديق واللطف في المسألة والإقبال عليه»، ابن منظور، لسان العرب، مادّة بشش.

(٣٢) وقد جمع دانيال جيماري مختلف هذه المعاني الواردة عند العلماء المسلمين فانظرها في كتابه:
D. Gimaret, *Dieu à l'image de l'homme*, p. 293.

أمام مشهد من المشاهد التي كثيراً ما يكون الإنسان مدار فعلها، تُبيّن بوضوح أنّ التصوّر العربي الإسلامي لله لم يكن شيئاً آخر غير تصوّر يُشخّص الله وأفعاله ويدخل في باب التشبيه الذي كثيراً ما خاض في أمره عُلماء الإسلام إنْ بالرفض وإنْ بالقبول.

وسواء انطلقنا من أعمال العلماء الذين قالوا بالتشبيه ونادوا بضرورة فهم الصفات وفق مبدأ المحافظة على المعاني الأوّلية الواردة في القرآن أو السنّة المستوحاة منه، أو انطلقنا من أعمال العلماء الذين اتجهوا وجهة مخالفة وغلّبوا الرأي وقالوا بضرورة الابتعاد عن فهم الأمور فهماً ظاهراً وتسييرها سيراً يقتضي التأويل واعتبارها مجازاً وصوراً جُعلت للتصوير لا غير(٣٣)، فإنّنا نجد أنفسنا إزاء علوم إسلامية شبيهة بما قامت عليه العلوم في كلّ الثقافات تقريباً. فنسبة الصفات إلى الربّ في عالم التوحيد أو التعدّد هي ذاتها في كلّ الحضارات، وهي تطرح الإشكالات نفسها تقريباً، فترد عند البعض حقيقة وترد عند البعض الآخر مجازاً، ويقرّها هؤلاء وينفيها أولئك. ويكفينا الوقوف عند الثقافة اليونانية لنتبيّن هذا الأمر الذي يقوم فيها مثالاً واضحاً على ما ذهبنا إليه بشأن الثقافة العربية الإسلامية، خاض فيه الشعراء والفلاسفة.

لقد جعل هوميروس آلهة الأولمب سعداء في عليائهم يتابعون بشغف الأحداث السارّة والمشاهد الهزلية ويضحكون ضحكاً لا يتوقّف ولا يفتر(٣٤)، فأضفى عليهم بذلك صفات البشر وصوّرهم في صورتهم دون حرج. ولكنّ هذا الاتجاه في وصف الآلهة لم يُرضِ الفلاسفة فقاموا يردّون أوصاف هوميروس ويرفعون التشبيه عن الآلهة ويرتقون بهم إلى درجة مفارقة لا علاقة

(٣٣) انظر: ابن فورك، **كتاب مشكل الحديث وبيانه**. وانظر كذلك: D. Gimaret, *Dieu à l'image de l'homme*, p. 9.

(٣٤) Homère, *L'Ilide*, chant I, p. 18.

لها بدرجة البشر. لذلك نجد أفلاطون لا يتردّد في اعتبار هوميروس قد أخطأ حين جعل الآلهة في نشيد من أناشيد الإلياذة يضحكون ضحكاً متواصلاً ويلهون ويمرحون. فهذه الأفعال التي يقومون بها لا تُناسبُ مقامهم وهم الساهرون على أمر تسيير الكون وحفظ توازنه ونشر العدل(٣٥)، وغيرها من الأمور التي تتعارض مع الضحك الذي من شأنه أنْ يُسبّب للضاحك تسيّباً واضحاً وأنْ يمنعه من التحكّم في أمره وأحاسيسه فيعجز عن القيام بالعمل الصالح فيعمّ الفساد(٣٦).

٢ ـ الفَكَهُ والتسامحُ في الدينِ

إذا كان الفَكَهُ في عالم الله قد بدا في ما تقدّم من أحاديث فضاءً للتشبيه الذي كان نتيجةً للضحك والابتسام والفرح والسرور والعجب، فإنّه في أحاديث أخرى ظهر من خلال ما صاغه الفكر من مشاهد وحركات وصور رُسمت بإتقانٍ كبير، فأضحكت الناس، بمن فيهم الرسول. وقد قامت هذه الأحاديث ـ بفضل ما احتوته من فَكَهٍ ـ تُكرّس التسامحَ وتبني بين الإسلام والأديان الأخرى علاقةً تتّسم بالتكامل والنسج على المنوال نفسه. ولنا في الحديث التالي خير مثال على هذا الأمر:

«[. . .] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَعَجُّباً مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ وتَصْدِيقاً لَهُ ثُمَّ قَرَأَ:

---

(٣٥) Platon, *La République*, p. 140.

(٣٦) E. Smadja, *Le rire*, p. 11.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[37]»[38].

إنّ اللافت للانتباه في هذا الحديث قيامه موازياً بين دين هذا الحَبْر ودين محمّد. وقد بدا هذا التوازي من خلال صورة مركّبة عناصرها السماوات والأرضون والجبال والشجر والماء والثرى وسائر الخلق تجتمع يوم القيامة في يد الله وتنتصب على أصابعه الخمس فيهزّها هزّاً كامرئ يهزّ حبّة خردل[39]. وتبرز من خلال هذه الصورة قدرة الله التي لا تُضاهى وعظمتُه التي لا تُقهر، فينتصب على الخلقِ الملِك الذي لا مَلِكَ غيره. فهذه الصورة المركّبة وصفها الحَبر اليهودي وصفاً دقيقاً ظهر من خلاله الربّ يُدير الكون ويهزّه على أصابعه هزّاً، ولكنّها صورة ما إنْ نطق بها ووصفها حتى وافقت الصورة التي كان محمد خبرَها في قرآنه ونطقت بها آيته: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

إنّ الناظر في هذا المشهد الجميل يرَى ربَّ العالمين وقد تحوّل مَلِكاً عملاقاً عظيماً يدير الكوَن بسماواته والأرضين والجبال الرواسي والبشر أجمعين على أصابعه دوراناً بهلوانيّاً، ويراه وهو «يجعلها في كفّه ثمّ يقول بها

(٣٧) الزمر ٣٩/ ٦٧.

(٣٨) مسلم، **الصحيح**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث رقم ٤٩٩٢؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٤٣٧، كتاب التوحيد، حديث رقم ٦٨٦٤، ٦٨٦٥، ٦٨٩٧، ٦٩٥٩؛ الترمذي، **السنن**، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٣١٦٢؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، حديث رقم ٣٤٠٩، ٣٨٧٨، ٤١٣٨.

(٣٩) «[...] عن ابن عبّاس قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع في يد الله إلاّ كخردلة في يد أحدكم»، الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م ١١، ص ٢٤.

كما يقول الغلام بالكرة: أنا الله الواحدُ، أنا الله العزيزُ»[٤٠]. ويتأثّر محمد بالمشهد الجميل فيضحك ضحكاً كبيراً تبدو له نواجذُه.

إنّ هذا الضحك الذي بدت له نواجذُ الرسول كان نتيجةَ التعجّب الذي أحدثه خبرُ الحَبرِ في الرسول. وكان هذا التعجّب نتيجةَ ما وجده الرسول من تطابق بين ما قاله الحبر وما يختمر في ذهن محمد بشأن الله ويوم القيامة وما جاء في القرآن.

وكان الضحك من ناحية أخرى تعبيراً عن تصديق محمد لقول الحبر الذي جاء بدوره تصديقاً لقول محمد. فجاءت صورة الربّ التي رواها الحَبر موافقة للصورة التي صاغها القرآن والمخيال العربي الإسلامي، وقامت من ثمّة مؤكّدة شرعيتها، وبدت صورة المسلمين الخاصة بهذا الأمر صادقة لأنّها نطقت بها الشرائع من قبل وجاء الإسلام لترسيخها في المخيال، وقد كان الإسلام في كلّ أمر يبحث عن موافقته الشرائع قبله واعترافها المسبق به وبرسوله والقرآن.

إنّ صورة الله وهو يمسك الكون بعناصره المختلفة ويرفعه هي في حدّ ذاتها صورة مفارقة عجيبة، مُثيرة للضحك الذي انبنى على العجب. فالله هنا يرفع ما لا يستطيع غيرُه رفعه، ويقوم بأمر لو اجتمع له الإنسُ والجنُّ لما استطاعوا أنْ يقوموا به، فيبدو قوّة عظيمة لا تماثلها قوّة. فإذا العجب ومن ثمّة الضحك الناتج عنه يخدم في النصّ غرضاً إيمانيّاً كبيراً يتمثّل في الاعتقاد بربّ يخضع له الكون قاطبة يوم القيامة، ويخضع له الجبابرة، وتقوم

---

(٤٠) «[. . .] عن عبد الله بن عمر أنّه رأى رسول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس فمرّ بهذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فقال رسول الله ﷺ يأخُذ السماواتِ والأرضينَ السبعَ فيجعلها في كفّه ثمّ يقول بهما كما يقول الغلام بالكرة: أنا اللّهُ الواحدُ، أنا اللّهُ العزيزُ، حتى لقد رأينا المنبر وإنّه ليكاد أنْ يسقط به»، الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م١١، ص ٢٥.

الكائنات والموجودات من نبات وجماد وإنسان مسبّحة باسمه. فالربّ الذي صوّره الحديث هو ربّ العالمين، لا هو خاصّ باليهود، ولا هو خاصّ بالمسلمين، ينتصب حاكماً في الجميع فيشعرون بالخشوع ويشعرون بالرهبة، رغم ما يطغى على الحديث من عالمَ فَكِهٍ وظيفته التخفيف من وطأة الإحساس بالرهبة والخوف من يوم القيامة الهائل. ولكنّ الفَكَهَ يُستعمل هنا أيضاً لإضفاء عالم من التفاهم والانسجام والاتفاق بين الرسول واليهوديّ، فيظهران من خلال النصّ يتحدّثان عن الأمر نفسه، ويستعملان الصور نفسها لبسطه، ويُصدّق أحدهما الآخر فيسود العلاقةَ بينهما عالمٌ من الثقة، فلا يدعو محمدٌ اليهوديَّ إلى الإسلام ولا إلى الاعتراف بنبيّ الإسلام ولا يطلب منه جزية أو كفارة، بل نراه يروم الحديثَ إليه ويأنس بمجالسته، فيبدو الدين الإسلامي متسامحاً مع أصحاب الأديان الأخرى، ينطبق عليه القولُ بأنْ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾(٤١).

وقد ذهب الرسول إلى أبعد من ذلك في بعض الأحاديث، فدعا اليهود لمحادثته وسألهم عن دينهم وعن الله وعن أشياء لم تتّضح له بعدُ، فعبّر بذلك عن اعتقاده بقرب دينه من دينهم، وعن شعوره بكونهم يعرفون العلم والدين وهم أهل كتاب قبله.

ويبدو الرسول من خلال هذه الأحاديث على غاية من التواضع وحذق آداب المناظرة. فرغم سعة علمه وحكمته نراه يُحدّث الناس من غير العرب والمسلمين ويسألهم، فيتمّ بذلك التلاقح الفكري وتكتمل المعرفة. وهذا شكل آخر من الأشكال التعليمية والوظيفية التي يريد الرسول أنْ يُرسّخها في ذهنية المسلم، وهي عدم الاكتفاء بمعارفه وضرورة الاطّلاع على معارف غيره ومعتقداته، فيتبلور الوعي وتحصل الفائدة.

(٤١) البقرة ٢/ ٢٥٦.

وكذلك كان شأن الرسول مع اليهود الذين كانوا يتوافدون عليه يسألونه عن أمر دينه والدنيا ويحفظون أحاديثه لموافقتها أحاديثهم، أو يُجرّبونه في بعض المسائل ويقرّون برسالته ويستجيبون لخطابه وقد أسلم منهم كثير ورووا عنه الأحاديث مثل كعب الأخبار الذي صار مرجعاً في الإسلام لا غنى عنه.

إنّ هذا النهج التربوي الذي اتبعه الرسول صالح لكلّ زمان ومكان. فمعرفة الآخر في الثقافة والدين واللغة مجال إلى نشر أسس التسامح وإقامة قنوات التواصل. فإنْ لم يتمّ ذلك ظلّ الآخر مجهولاً وصعب التعامل معه وانقلب إلى عدوّ يُهمّش ويُقصَى من دائرة التفكير. وقد تمّ هذا بالفعل ساعة نهج المسلمون نهجاً مخالفاً لما جاءت به الأحاديث التي رأيناها منذ حين، فَفَقَدَ التسامح أهمّيته وأصبح اليهودي في الإسلام صورة لِلّعنة والإنكار والتحريف في مجال الدين[٤٢].

(٤٢) وقد كثر ذلك عند المفسرين، فابن كثير مثلاً «لا يترك فرصة تمرّ دون أن يسلّط وابلاً مِن اللعن والسبّ والشتم على «أصحاب الخنازير» مِن اليهود والنصارى، مستنداً في ذلك إلى الآيات التي لُعنوا فيها»، وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ٣٩٥. وانظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص ٥٥٩؛ ج٢، ص ص ٧١، ٧٨-٧٩؛ ج٣، ص١١٨، وقد جاء ذلك في بعض الآيات أيضاً، انظر مثلاً: **المائدة ٥/** ٦٤، ٧٨-٧٩؛ **مريم ١٩**/٣٧.

الفصل الثالث

الفَكهُ والدينُ اليُسرُ

لقد اكتسب الفَكَهُ في الفصل السابق شرعيّةً مقدّسةً إذ ربطته الأحاديثُ بعالم السماء، فأضحكت الله، ونسبت إليه الفرح والعجب والبشاشة، وجعلته هازئاً ساخراً، وأقامته على خير المشاهد التي وإنْ عبّرت عن قوّة الله وجبروته لم تخلُ من فَكَهٍ وحملٍ لطيف على الضحك. وقد وردت في المجاميع أحاديثُ أخرى كثيرةٌ جاءت تسند الأحاديثَ التي جعلت الفَكَهَ من أصل مقدّس وتواصلها، فجعلت الرسولَ مقتدياً بربّه، فيضحك مثله ويفرح ويتعجّب ويُبشبش ويهزأ ويسخر.

١ ـ الاقتداء بالله

من بين هذه الأحاديث التي قامت سنداً لأحاديث الفصل السابق أحاديثُ جعلت الرسول يُشخّص دور الله الذي أمسك السماوات والأرض والخلق كلّه على أصابعه وراح يديرها. وقد سحبت هذه الأحاديثُ على الرسول ما كان الله قد فعله، فأصبح هو ذاته مشهداً من مشاهد الجمال: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ يَأْخُذُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدِهِ وَقَبَضَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ قَالَ: وَيَتَمَايَلُ رَسُولُ ﷺ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى

إنّي لأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[1].

إنّ الناظر في هذا الحديث الذي يصوّر الرسول وقد اعتلى المنبر العظيم لا يفوته أنْ يُلاحظ أنّه يعيد إلى الأذهان صورة الله وهو يُمسك السماوات والأرضين. كان الرسول يقبض يده ويبسطها مثلما يقبض الله يده ويبسطها. وكان يقول مثل قول الله: أنا الجبّار، أنا الملك، أين الجبّارون؟ أين المتكبّرون؟ وكان يتمايل عن يمينه ويتمايل عن شماله حتى لكأنّه ساقط من على المنبر.

كان الرسول على المنبر وكأنّه يُمثّل دوراً. كان كالممثّل اعتلى الركح ووضع القناع ليؤدّي دوراً. أو كان كالخطيب خرج إلى ساحة المدينة وقام في الناس خطيباً. ها هو يتمايل يمنة ويسرة فوق المنبر الذي كان يتمايل معه وكأنّه انتشى لقول عَجَبٍ فتحرّك «مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ». ونشعر بأنّ الرسول وقد اعتلى المنبر قد ازداد قرباً من ربّه. بل ونشعر به وهو يردّد قول الله: «أنا الجبّار، أنا الملك» قد حلّ في قائل القول وشعر بالامتلاء والتماهي مثل صوفيّ حلّ في الربّ.

وقد وُصِفَ المشهد بدقّة كبيرة حتى غدا صورة تَرسخ في الأذهان ولا تفارقها. ومع رسوخ هذه الصورة في الأذهان ترسخ عناصرها المتمثّلة في قوّة الله وجبروته وقدرته على تسيير الكون وفق مشيئته. ويؤدّي الرسول في المشهد دوراً هامّاً في ترسيخ العناصر ومن ثمّة ترسيخ تعاليم الدين في نفوس متلقّيه وأذهانهم. لذلك كان ـ وهو على المنبر الذي منه يتلقّى المسلم تعاليم دينه ـ يُسخّر جسده ويطوّعه بسلاسة ومرونة لأغراض الدين، فيتمّ بذلك تمرير التعاليم وفق طريقة بيداغوجية يتعاضد فيها القول والمقام والحركة لنسج

---

(١) مسلم، **الصحيح**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث رقم ٤٩٩٦؛ ابن ماجة، السنن، كتاب الزهد، حديث رقم ٤٢٦٥، كتاب المقدّمة، حديث رقم ١٩٤.

مشهد دينيّ مقدّس تدور أحداثه فوق المنبر. وإنّ الناظر في المشهد ليلاحظ أنّه لوحة فنّية صيغت عناصرها المتنوّعة صياغةً جميلة بكثير من الحذق والزينة فجاءت زاهية الألوان، وقد أضفى عليها الرسول بفضل قبض يديْه وبسطهما وتمايله يمنةً ويسرة وإيهام الناس بالسقوط حركيّةً تساهم في عملية التماهي والدخول كلّياً في العالم المقدّس.

ولما كان الفَكَهُ يختلف باختلاف الموقف والقول والحركة فقد تجسّد في هذا المشهد من خلال عناصر الصورة المكوّنة للإطار: رسول في حركة متواصلة، ومنبر يرتجّ، ومتلقّين في دهشة من أمرهم. فينشأ الفَكَهُ هنا من كسر النسق البديهيّ للخطبة، ويتحوّل الرسول بوقاره وهيبته إلى رجل يَميلُ فيَميلُ المنبر بميلانه، ويتغنّى بقول الله: أنا الجبّار، أنا الملك، فيرجع الصدى يردّد قول الرسول وخطبته.

ثمّ يزداد المشهد فَكَهاً إذ يزداد الرسول تمايلاً والمنبر اهتزازاً فيتصوّر المشاهدُ ـ وقد مثّله هنا عبد الله بن عمر الذي نقل الحديث ـ أنّ الرسول ساقط عن المنبر. وتتعدّد الصور في ذهن المشاهد أو السامع فيتصوّر المسلمين مسرعين إلى رسولهم الذي سقط عن المنبر، آخذين بذراعيه، نافضين عن ثوبه التراب، متمسّحين به. وتَفعلُ المفاجأة فِعلَها[٢] في المشاهد أو السامع ويتصوّر أنّ الرسول قد سقط فعلاً، فيضحك للمشهد القائم على الهزل الخفيف، ويعجب لرسول يسقط. ثمّ يعود إلى الواقع ويفهم أنّ الرسول بشر ككلّ البشر، وقد روت الأحاديث أنّه كان يسقط كما يسقط البشر عن ظهر بغلة أو فرس[٣]، أو كان يسقط

---

(٢) انظر ما يقول برغسون في المفاجأة الخاصّة بالسقوط: H. Bergson, *Le rire*, p. 7.

(٣) «[. . .] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَقَطَ عَنْ فَرَسِهِ فَجُحِشَتْ سَاقُهُ أَوْ كَتِفُهُ وَآلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْراً فَجَلَسَ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ دَرَجَتُهَا مِنْ جُذُوعٍ فَأَتَاهُ أَصْحَابُهُ يَعُودُونَهُ [. . .]»، البخاري، **الصحيح**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٣٦٥؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب =

عنه رداؤه فيتعرّى[٤].

في هذا الإطار الفَكِهِ يشعر المؤمن بالرسول وقد ازداد قرباً من المؤمنين. ويشعر بأنّ المشهد الذي لم يكن في الأصل شيئاً آخر غير التخييل، قد ارتبط بالواقع ارتباطاً شديداً، فيبدو الناس ملتفّين بالرسول، ويبدو الرسول يتحدّث إليهم مُعلّماً مُتفكّهاً، فيشعرون بأنّه منهم، وهو ينتمي إليهم، وقد جاء ليُعلّمهم من على المنبر الذي جُعل للتعليم والإرشاد والنصح[٥] كلامَ الله الذي هو معجزته التي خالفت معجزات الأنبياء السابقين فلا نزلت عليه موائد الطعام من السماء، ولا ادّعى تفجير الأنهار، ولا سالت له الينابيع، ولا مشى على الماء، ولا رمى عصاه فانقلبت حيّة تسعى، ولا أحيا الموتى أو أبرأ المرضى بإذن الله أو بكلام لا يفقهه الناس[٦].

= الصلاة، حديث رقم ٦٢٢؛ الترمذي، **السنن**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٣٢٩؛ النسائي، **السنن**، كتاب الإمامة، حديث رقم ٧٨٦، ٨٢٣؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٥٠٩؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، حديث رقم ٨٦٦؛ أحمد بن حنبل، **السنن**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٥٠٩؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، حديث رقم ٨٦٦؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٦٢٣، ١٢١٨٥، ١٢٥٩٨؛ مالك، **الموطّأ**، كتاب النداء للصلاة، حديث رقم ٢٨٠؛ الدارمي، **السنن**، كتاب الصلاة، حديث رقم ١٢٢٨، ١٢٨٦.

(٤) «[...] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ لَمّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادّاً يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءه فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ [...]»، مسلم، **الصحيح**، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٠٩؛ الترمذي، **السنن**، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٣٠٠٦؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الجهاد، حديث رقم ٢٣١٥؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند العشرة المبشّرين بالجنّة، حديث رقم ٢٠٣، ٢١٦.

(٥) **آل عمران ٣/ ١٦٤.**

(٦) **الإسراء ١٧/ ٩٠-٩٣.**

٢ ـ الدين اليُسر

كان الفصل السابق أيضاً فضاءً لنشر اليُسر الذي اتّسمت به الأحاديث التي عالجت فَكَهَ الله وجعلته أساس العلاقة الرابطة بينه وبين العباد. وعلى منوالها نسجت الأحاديث التي جاءت تُكرّس فَكَهَ الرسول فجعلته بدوره سنداً للعلاقة الرابطة بين الرسول والناس. وإنّ لفي الحديث التالي خير شاهد على ذلك:

«[...] عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: هَلَكْتُ، وَقَعْتُ عَلَى أهْلِي فِي رَمَضَانَ. قَالَ رسول اللَّه ﷺ: أعْتِقْ رَقَبَةً. قَالَ: لَيْس لِي. قَالَ: فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابعَيْنِ. قَالَ: لا أسْتَطِيعُ. قَالَ: فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً. قَالَ: لا أجِدُ. فَأُتِيَ بعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ فَقَالَ: تَصَدَّقْ بهَا. قَالَ: عَلَى أفْقَرَ مِنِّي؟ وَاللَّهِ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا أهْلُ بَيْتٍ أفْقَرُ مِنَّا. فَضَحِكَ النَّبيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ قَالَ فَأَنْتُمْ إذاً»(٧).

فهذا الحديث يتدرّج بسامعه أو قارئه من عالم الجدّ إلى عالم الهزل لينشر تعاليم دين سمح لا غاية له غير إرضاء العبد. وهو يتدرّج به كذلك من العالم المقدّس الذي يُشكّل شهر رمضان فضاءه عن جدارة إلى عالم تطغى عليه إرادة الفوز ببعض حاجة في الحياة الدنيا. وهو يتدرّج به أخيراً من عالم التكفير عن الذنب المقترف ودفع الكفارة عن ذلك الذنب إلى الحصول على رضى الرسول، ومن ثمّ الله والدخول في الإسلام بكلّ جوارحه، دون ضرر

---

(٧) البخاري، **الصحيح**، كتاب الأدب، حديث رقم ٥٦٢٣؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الصيام، حديث رقم ١٨٧٠، ١٨٧١، ١٨٧٢؛ الترمذي، **السنن**، كتاب الصوم، حديث رقم ٦٥٦؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، حديث رقم ٦٦٥٠؛ كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٦٩٨٩، ٧٣٦٧، ٧٤٥٣، ١٠٢٦٩؛ مالك، **الموطأ**، كتاب الصيام، حديث رقم ٥٨٢؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الصوم، حديث رقم ٢٠٤٢، ٢٠٤٣، ابن ماجة، **السنن**، كتاب الصيام، حديث رقم ١٦٦١؛ الدارمي، **السنن**، كتاب الصوم، حديث رقم ١٦٥٤.

أو خسارة. وقد وازى هذا التدرّج تدرّجاً آخر يتّضح لنا من خلال ما نفهمه من الحديث من إطار دالّ على زمن الأحداث عندما كان الإسلام حديث عهد بالوجود يتحسّس طريقه ويُثبّت خطاه بفنّ وحذق كبيرَيْن يدلاّن على قدرة الرسول على الاجتهاد بعيداً عن كلّ تزمّت وشدّة حتى يُسهّل على الناس أمر دينهم فينسجم مع حياتهم البسيطة انسجاماً تامّاً.

يبدأ الحديث بوصف حالة امرئ أصابه الارتباك وأدرك أنّه هالكٌ لا محالة لا لشيء إلاّ لأنّه وقع على أهله في شهر رمضان. وتدلّ هذه الحالة على أنّنا بصدد وضعية قصصية خضعت في بنائها لما يُميّز القصص والحكايات من فنّية تتميّز بقيامها تعبيراً عن إشكالية الحظر وتجاوز الحظر[8]. فوقوع الرجل على أهله في شهر رمضان يُبيّن أنّ هذا الرجل قد تجاوز حظراً كان مفروضاً على الناس، وأنّ هذا الحظر كان يقتضي منع الوقوع على الأهل في شهر رمضان. وقد كان هذا الأمر، حسب الأخبار الإسلامية الواردة في كتب الحديث والفقه والتاريخ وغيرها، كثيراً ما شكّل حرجاً لدى المسلمين في بداية الإسلام الذي لم يُحدّد بعدُ تعاليمه والعبادات والطقوس تحديداً تامّاً.

وقد روت الأخبار أنّ المسلمين «لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضانَ كلّه»[9] أو «كانوا في رمضان لا يمسّون النساء [. . .] بعد أنْ

---

(٨) انظر: وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ٨٤ حيث يذكر: «يشكل الحظر Interdiction وتجاوز الحظر Transgression الوظيفتين الثانية والثالثة في سلم الوظائف الإحدى والثلاثين الذي وضعه فلاديمير بروب، أحد روّاد المدرسة الشكلانية، انطلاقاً من دراسته الخرافات الروسية، وقد ناقش كلود بريمون تلك الوظائف وأعاد صياغتها وقارنها ببعض النظريات في البنيوية وعلم العلامات في أوروبا الغربية وأميركا»، انظر ذلك في كتابيهما:
V. Propp, *Morphologie du conte,* p.p. 35-80; Cl. Bremond, *Logique du récit,* p.p. 11-103.

(٩) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص ٢٠٩.

يناموا حتى الليل من القابلة»[١٠]. وقد كان هذا التحريم المجحف سبباً في عدم امتثالهم للتعاليم الجديدة، فتجاوزوا ما كان مسلّطاً عليهم من فرض، ووقعوا على النساء في الوقت الذي كان الإسلام يمنعهم من ذلك. ثمّ كانوا كلّما فعلوا فعلتهم ليلاً يأتون الرسول عند الصباح للاعتذار والاستفتاء دون حرج أو تستّر على ما أتوا من أمر. وقد فعل ذلك كثير من المسلمين، نذكر منهم عمر بن الخطاب الذي كثيراً ما كان يقع على زوجته ليلاً ثمّ يأتي الرسول صباحاً مستفتياً حتى نزلت الآية التي جاءت تُحلّ للناس ما كان حراماً[١١].

إنّ هذا الحديث يدلّ على أنّه ينتمي إلى الفترة التي لم يكن فيها للمسلمين أمر صريح بشأن الصوم والوقوع على النساء في شهر رمضان. فكان الرسول ـ في غياب النصّ ـ هو المتدخّل الوحيد في المسألة. وكان يجتهد في إيجاد الحلول، ويفعل ذلك وفق الوضعيات المختلفة وحالة كلّ مسلم.

كان المستفتي في الحديث الذي نحن بصدده فقيراً أو لعلّه أظهر الفقر أمام الرسول. وقد أخذ الرسول بعين الاعتبار فقره ذلك، وحكم بما يُناسب

---

(١٠) الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، م٢، ص ١٧٣.

(١١) «[. . .] عن ابن عباس قال: إنّ الناس كانوا قبل أنْ ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون ويحلّ لهم شأن النساء فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتي أهله حتى يفطر من القابلة، فبلغنا أنّ عمر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله ثمّ جاء إلى النبي فقال: أشكو إلى الله وإليك الذي صنعتُ. قال: وما صنعتَ؟ قال: إنّي سوّلت لي نفسي فوقعتُ على أهلي بعدما نمتُ وأنا أريد الصوم، فزعموا أنّ النبيّ قال: ما كنتَ خليقاً أنْ تفعل، فنزل الكتاب: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ [. . .] فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ [. . .] حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [**البقرة ٢/ ١٨٧**]»، ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص ٢٠٩. وانظر لمزيد الفائدة: وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ٣٤٩.

حالته، فسمح له بأنْ لا يُكفّر عن ذنبه الذي اقترفه. بل وزاد على ذلك أنْ أهداه تمراً كان جيء به ليُستعمل صدقةً تكفيراً عن ذنبه. فبدا الرسول في القصّة حليماً في حكمه، سمحاً في قضائه، كريماً في رفعه كفارةً عن مؤمن، مثالاً يُحتذى به في مجال نشر تعاليم الدين الجديد الذي أراده الرسول يسيراً فيُقبل عليه المؤمنُ وهو يومها حديثُ عهدٍ بالإسلام راضياً مطيعاً، فيزداد الإسلامُ نُصرة.

إنّ إسلام البدايات يبدو من خلال هذا الحديث لا غاية له غير أنْ يَدخُلَه الناسُ أفواجاً وجماعات بعيداً عن سنّ القوانين التي تُنظّم حياتهم اليومية ووضع القواعد التي تُضيّق عليهم الخناق في مجال الطقوس والعبادات. في ذلك الزمن الأوّل كان الرسول وحده قِبلتَهم، يبثّونه مشاعرهم ويعترفون له بذنوبهم ويتحاكمون لديه. فكان يسمع منهم وينصحهم. وكان يفرض عليهم الكفارة متى استوجب الأمر ذلك. وكان يقوم بينهم حَكماً إذا تخاصموا. كان الواسطة بينهم وبين الله، يُرشدهم إليه، ويَحكمُ فيهم بإذنه، ويُفتيهم إذا استفتوه وغاب النص أو غَمُضَ.

لم يكن هذا اليُسر في غير محلّه أو فرصة تُشجّع على التقاعس وعدم أداء الفرائض. لقد جُعِلَ للدلالة على حِلْم الرسول وسياسته الناسَ سياسةً سمحة، فعفا عن المخطئ وصفح عنه ووهبه علاوة على ذلك التمرَ. فإذا علمنا أنّ التمر في شهر رمضان هو خير ما يُفطر عليه الصائم، فهمنا المغزى من القصّة وعبرتَها: كلّما رفع هذا المؤمن إلى فمه تمرةً من التمر الذي وهبه له الرسول تذكّر الرسولَ وعفوَه عن ذنبه وتسامحَه الشديدَ. وكلّما تذكّر ذلك حَمِدَ الله وحَمِدَ الرسولَ وتشبّع بتعاليم هذا الدين السمح. وكلّما تشبّع بتعاليم الدين السمح ازداد إيمانه وآنس في نفسه القدرة على الصبر وترويض نفسه الأمّارة بالسوء على الالتزام بحدود الدين. فإذا راودته فكرةُ العود إلى الوقوع على أهله في شهر رمضان، خجل من المثول مرّة أخرى أمام الرسول فعمل

جاهداً على إثبات قدرته على تحمّل الحرمان وعدم تجاوز الحظر، ففاز الدين بدخول هذا المؤمن في حظيرته بالكلّية. ولكنّه قد يعود إلى ذلك الأمر فيقع من جديد على أهله في شهر رمضان وهو يعلم أنّ عفوَ الرسول عظيمٌ وعفوَ الله أعظمُ.

إذا ذهبنا هذا المذهب في التحليل تبيّنا إغراقَ الحديث السابق في عالم اليُسر وسَعيَه الدائم إلى معالجة الأمور معالجةً بسيطةً تتخذ الفَكَهَ فنّيةً لتبليغ تعاليم الدين حتى لا يراه الناس عسراً. ولكنّ ذلك الفَكَهَ لا يُناقض الصبغة التعليمية التي قام عليها النصّ في الأصل. فالنصّ جاء ليُبيّن بوضوح ما يجب على المؤمن من كفارة إذا ما أخلّ بفرض من فروض الإسلام، فالوقوع على الأهل في شهر الصيام يقتضي إعتاق رقبة أو صوم شهريْن متتابعيْن أو إطعام ستين مسكيناً، تماماً كما هي الكفارة بالنسبة إلى الظهار حسب ما تبيّنه الآيات(١٢).

ولكنّ الحديث الذي نحن بصدده لم يتقيّد بهذه الحدود المذكورة بل سمح للسائل عن الكفارة بأنْ يتجاوزها وقد أظهر الفاقة والحاجة. ولننظر في الحديث من جديد: «قَالَ رسول اللَّه ﷺ: أَعْتِقْ رَقَبَةً. قَالَ: لَيْس لِي. قَالَ: فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابعَيْنِ. قَالَ: لا أَسْتَطِيعُ. قَالَ: فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً. قَالَ: لا أَجِدُ. فَأُتِيَ بعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ فَقَالَ: تَصَدَّقْ بهَا. قَالَ: عَلَى أَفْقَرَ مِنِّي؟ وَاللَّهِ مَا

---

(١٢) ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، **المجادلة** ٥٨/ ٣-٤. «أصل الظهار مشتقّ من الظهر وذلك أنّ الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنتِ عليّ كظهر أمّي ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر. وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً فأرخص اللّه لهذه الأمّة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم»، ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص ٣٢٠.

بَيْنَ لابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنَّا. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ قَالَ فَأَنْتُمْ إذاً». فماذا نرى؟ سقوط الحدود وتجاوز الكفارة المفروضة على المخطئين.

ولكنّ الحديثَ وقد أسقط الحدودَ وتجاوز الكفارة المفروضةَ عبّر بوضوح عن نفسيّة الرسول وقد قام بعملية الإفتاء. لقد أعجبه من السائل ظَرْفه فضحك حتى بدت نواجذه[١٣]، وأغرق النصُّ في الفَكَهِ الذي بدا وسيلة الرسول للتفريج عن مؤمن جاء خائفاً من هَلاكٍ ظنّه وشيكاً. ولكنّ وظيفة الفَكَهِ تتجاوز ذلك الأمر إلى شيء آخر أهمّ وهو أنْ يَظهر الإسلام دين يُسرٍ يفوز فيه المؤمن بالنجاة من كلّ عقاب أو كفارة إذا ما آمن بالله ورسوله وأظهر التقوى واعترف بذنبه الذي اقترفه وطلب له الغفران. وإنّ ما جاء في الحديث ليُناسب ما جاء في الآيات القرآنية[١٤].

تأمّلْ هذا الحديثَ:

«[...] عَنِ الْمِقْدَادِ قَالَ: أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي وقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ، فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسنا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلَيْسَ أَحدٌ منهم يَقْبَلُنَا، فَأتينا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْطَلَقَ بِنَا إِلَى أَهْلِهِ فَإِذَا ثَلاثُ أَعْنُزٍ، فَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا. فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ منّا نَصِيبَهُ وَنَرْفَعُ لِلنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصِيبَهُ فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيماً لا يُوقِظُ نَائِماً وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ، ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ فَيُصَلِّي، ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ. فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وقدْ شربتُ نصيبي، فقَالَ: مُحَمَّدٌ يَأْتِي الأَنْصَارَ

---

(١٣) «النواجذ أقصى الأضراس، وقيل النواجذ التي تلي الأنياب وقيل هي الأضراس كلّها نواجذ. ويُقال ضحك حتى بدت نواجذه إذا استغرق فيه»، ابن منظور، **لسان العرب**، مادّة نجذ.

(١٤) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، **الحديد** ٥٦/٥٨.

فَيُتْحِفُونَهُ وَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ فَاشْرَبْهَا، وما زَال يُزَيِّنِ لِي حَتَّى شَرِبْتُهَا. فَلَمَّا وَغَلَتْ فِي بَطْنِي، نَدَّمَنِي الشيطانُ، فقَال: وَيْحكَ مَا صَنَعْتَ؟ شَرِبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ فَيَجِيءُ وَلا يَجِدُهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكَ فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ؟ فَجاءَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى، ثمَّ أَتَى شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئاً فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فقُلْتُ الآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ. فقَال اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي وَاسْقِ مَنْ سَقَانِي. فَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ فَانْطَلَقْتُ إِلَى الأَعْنُزِ أَجُسُّهُنَّ أَيُّهُنَّ أَسْمَنُ فَأَذْبَحُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ، فَعَمَدْتُ إِلَى إِنَاءٍ لآل مُحَمَّدٍ فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّى عَلَتْهُ الرَّغْوَةُ ثُمَّ جِئْتُ بِهِ إِلَى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَمَا شَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ يَا مِقْدَادُ؟ قُلْتُ: اشْرَبْ يَا رسُول اللَّهِ فَشَرِبَ. ثُمَّ نَاوَلَنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْرَبْ، فَشَرِبَ. ثُمَّ نَاوَلَنِي فلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ رَوِيَ وأَصَابَتْنِي دَعْوَتُهُ أَخَذْتُ مَا بَقِيَ فَشَرِبْتُ وضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقِيتُ إِلَى الأَرْض. قَالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِحْدَى سَوْآتِكَ يَا مِقْدَادُ؟ قُلْتُ: يَا رَسُول اللَّهِ كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذَا، صَنَعْتُ كَذَا. فَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا هَذِهِ إِلاَّ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ أَفَلا كُنْتَ آذَنْتَنِي فنُوقِظُ صَاحِبَيْكَ هَذَيْنِ فَيُصِيبَانِ مِنْهَا؟ قُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بالْحَقِّ مَا أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ».

لقد انقلب هذا الحديثُ قصّةً ذاتَ أطرٍ وشخصياتٍ وعناصرَ جميلةٍ فأصبح إبداعاً. ثلاثةُ نفرٍ أصابهم الجوع، ورسولٌ أضافهم، وعنزاتٌ تدرُّ اللبنَ، وشيطانٌ خبيثٌ ماكرٌ، وربٌّ جوّادٌ باللبنِ. ساد النظامُ في البدايةِ القصةَ: كانوا يحتلبون ويقتسمون اللبنَ والرسولِ. ثمّ وسوس الشيطانُ لمقدادَ فاختلّ النظامُ، فشرب نصيبَ الرسول، ثمّ أخافه الشيطانُ فندم وخشيَ دعاءَ الرسولِ. فلا غضبَ الرسولُ ولا ثارَ ولا دعا على مقدادَ. تدخّل المقدّسُ

فدرّ اللبنُ، وشرب مقدادٌ مرّة أخرى، واستلقى على ظهره ضاحكاً وقد انطلتْ حيلته على الرسولِ، وفاز بعطفه، وبطَلت ادّعاءاتُ إبليسَ.

لقد اختلط في المشهدِ الأمرُ المعجزُ ودعاءُ الرسولِ بحيلِ مقداد وتدخّل الشيطان، فلا نشعر بتضارب أو نفور. كلُّ شيءٍ تمّ في جوٍّ من الانسجامِ فكان المشهدُ جميلاً رائعاً، فيه ابتسامةٌ وفيه ضَحِكٌ، وفيه دعابةٌ يُرسلها الرسول إلى مقداد وقد وقف على أنّ ما جرى سوأةٌ من سوآتِه الكثرِ.

هذا الحديث موطنٌ من مواطن الفكهِ. لفظُه خَفيفُ الوقعِ طريفٌ، ومواقفُهُ على غايةٍ من الهزلِ، فيه يزدادُ الموقفُ فكهاً بقصْرِ مقداد الرحمةَ التي جُعلت لجميع المؤمنينِ عليهِ وعلى الرسول. كان شأنُ مقداد مع الرسول في هذا الحديث كشأن ذلك الأعرابيّ الذي قام بين يديْ الرسول يدعو الله ويقولُ: «اللهمَّ ارحمني ومحمداً ولا تُشركْ في رحمتنا أحداً»، فقال الرسولُ لصحبه: «ألم تسمعوا إلى ما يقولُ، أتقولون هو أضلُّ أم بعيرُهُ؟».

كان الأعرابيُّ على السجيّة، فكان قولهُ الساذَجُ البسيطُ مثاراً للنادرةِ والفكَهِ. كذلك هو الفكَهُ إذا كان على السجيّةِ كانَ أقربَ إلى النفس البشريّةِ، بعيداً عن التعقيد والتركيب والتحذلق. هنا نقفُ على وظيفةٍ أخرى من وظائفِ الفكَهِ: أنْ تتحوّلَ الأزمةُ انفراجاً، والخوفُ أمناً، والعسرُ يسراً، واليأسُ أملاً، والحزنُ فرَحاً وضَحِكاً. إنّه انتصارٌ للذاتِ البشريةِ لتفصحَ عن خباياها ونواياها وإنْ كانت سيّئةً، حتى يفصحَ الربُّ عن واسعِ رحمتِه وعظيمِ غفرانِه، ويُعبّرَ الرسولُ عن كِبَرِ نفسِه وحِلمِهِ، فيشعرُ المؤمن بحلاوة الإيمان فيدخل في الدين بالكلّية.

إنّ هذا المشهدَ الذي صوّرناه من خلال هذا الحديث، والمشاهدَ الأخرى التي صوّرتها الأحاديثُ التي عرضنا لها بالتحليل في عملنا، تَرسمُ للرسول بوصفه المثالَ الأنموذجَ المؤسّسَ للدين ملامحَ شخصيةٍ فَكِهَةٍ لا

تتحرّج من معالجةِ أمور الدين والدنيا بطريقةٍ واعيةٍ ذكيةٍ قائمةٍ على المزاحِ والضحكِ والهزلِ أحياناً، فتسهم في وضعِ أسس الدين اليُسر.

إنّ هذه المشاهدَ تُفصحُ جميعاً عن مواقفَ في الحديث بدتْ عالماً من البساطةِ نسجتهُ الحياة التي لا تخلو من فسحةٍ للمرح والمزح والهزل والتندّر واللعب والمداعبةِ، وهي لعمري كلّها عناصرُ تكوّنُ الحقلَ الدلاليَّ للفكَهِ.

٣ ـ الدينُ المزحُ

إنّ الأخبار الخاصّة بالجزيرة العربية تدلّ على أنّ أهلها كانت تغلب عليهم الشدّة والغلظة. ولكنّ الرسول الذي كان منهم كثيراً ما بدا في الأحاديث شخصيّةً نموذجيّةً سمحةً تمتاز بالرقّة والعطف والحِلم والفكَه. فلنتأمّله في الحديث التالي وقد تحوّل شخصيةً فريدة من نوعها: «[...] اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَلَى رَسُول اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَسْأَلْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ عَلَى صَوْتِهِ فَلما اسْتَأْذَنَ عُمَرُ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَضْحَكُ فَقَالَ أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَقَالَ عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلاءِ اللاتِي كُنَّ عِنْدِي لما سَمِعْنَ صَوْتَكَ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ فَقَالَ أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِنَّ فَقَالَ يَا عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبْنَنِي وَلَمْ تَهَبْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَ إِنَّكَ أَفَظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِيهِ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجّاً إلا سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ»(١٥).

لقد بُنِيَ الحديث على مقابلة بين الرسول وعمر بن الخطّاب، هذا غليظٌ

---

(١٥) البخاري، **الصحيح**، كتاب الأدب، حديث رقم ٥٦٢١، كتاب بدء الخلق، حديث رقم ٣٠٥١، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٤٠٧؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤١٠؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند العشرة المبشّرين بالجنّة، حديث رقم ١٣٩٢.

فظّ وذاك مَرِحٌ فَكِهٌ، وبين هذا وذاك قامت نسوةٌ يَخفْنَ هذا ويرهَبْنَهُ ويسألنَ ذاك ويستكثرنَ ويشعرن لديه بالعطف ورحابة الصدر.

كنّ نسوةً من قريش، لُذنَ بالرسول للسؤال. ولما جمعه وجمعهنّ المكان، جالسنه بدون حجاب، وعلت أصواتهنّ على صوته. ونشعر بالرسول في النصّ يجيب عن أسئلتهنّ بكلّ حذق وطيبة نفس. ونشعر كذلك في النصّ بالسرور يُخيّم على المجلس من خلال الأصوات المرتفعة وقهقهات الضحك. ثمّ يدخل عمر. ابتدرت النسوةُ الحجاب. اختفيْن من هول عمر، وأقفر المجلس الذي كان يُخيّم عليه الحبور، ونشعر بأنّ السرور قد اختفى بلا رجعة. ولكنّ الرسول أعاد بسرعةٍ إلى المجلس السرورَ إذ ضحك ضحكةً تغيّر لها مجرى القصّة وسادها الفَكَهُ.

كانت العناصر المكوّنة للموقف عديدة: نسوة ابتدرن الحجاب لما استأذن عمرُ على الرسول، خيفةً منه وتوجّساً شرّاً من بطشه وكلامه اللاذع الجارح، وهو الذي عُرِفَ بالشدّة والقسوة على النساء. ورسول يضحك من الموقف الفَكِهِ. وعمر يحتار في الأمر ويسأل الرسول عن سبب الضحك. والرسول يجيب بكلّ عفويّة أنّ السبب في دخوله المفاجئ وما سبّبه من خوف في النسوة. ويجري عمرُ إلى النسوة اللائي كنّ عنده عدوّات أنفسهنّ فيوبّخهنّ على فعلهنّ الشنيع وقد هَبْنَهُ ولم يَهَبْنَ الرسول. وتصدح النسوة بالحقيقة التي جاءت تفرّق بين الرسول وعمر، هذا فظّ غليظ وذاك طيّب فَكِهُ. ويزداد الموقف تعقيداً ساعة يُكرّس الرسول مقولة النساء فيُبرز عمر أغلظ ممّا كان، يهابه الشيطان ويفرّ منه سالكاً فجّاً غير فجّه.

لقد تضافرت العناصر في الحديث الذي نحن بصدد تحليله لتضفي عليه صبغةً فَكِهَةً. فالحركة الفُجئيّة المتوتّرة والآلية الناتجة عن ابتدار النسوة الحجاب بمجرّد سماع صوت عمر، أثارت ضحك الرسول. والتقابل بين رحابة صدر الرسول وشدّة عمر كان آليةً من آليات إنتاج الفَكَهِ. وموقفُ

الرسول من المسألة وجعْلُه الشيطانَ خائفاً من عمر كانا سبيلاً إلى إغراق النصّ في عالم الفَكَهِ العميق.

إنّ نصّ الحديث بُني على التقابلُ بين الشخصيات والتناقضُ بين المواقف والحالات. والتقابلُ والتناقضُ يمثّلان في القصص خير طريق إلى الضحك، «فسبب الضحك في كلّ حالة [...] هو ببساطة ذلك الإدراكُ المفاجئ للتناقض بين تصوّر معيّن وبين الموضوعات الواقعيّة المحدّدة التي تمّ الاعتقاد من قبلُ بوجود علاقة معيّنة بينها وبين ذلك التصوّر، يتّضح أنّها علاقة أخرى جديدة غير متوقّعة. والضحك نفسه هو مجرّد التعبير عن هذا التناقض»(١٦).

إنّ الفَكَهَ هنا مُستمدّ من الموقف المركّب وعناصره الكثيرة. فقد صِيغ الحديث صياغة فنّية تجعل منه قصّة مرويّة تبدأ بكلّ بساطة باجتماع النسوة إلى النبيّ، ثمّ تتأزّم بدخول عمر وابتدارهنّ الحجاب، ثمّ تنفرج بما أضفاه الرسول من فَكَهٍ على الموقف المتأزّم عندما غلّب النساء على عمر، فانقلبت موازين القوى، وغلب الضعف القوّة المسيطرة، ونشأ الفَكَهُ الذي كثيراً ما يكون وليد هذه المواقف التي تتغيّر فيها الأمور وتتبدّل فيها الأحوال. ورغم هذا التبدّل والانقلاب فإنّ الضحكَ الذي صاحب المشهدَ جاء في قالب مزح بدون إيلام فأضفى عليه مسحة من الأريحية والاطمئنان. فضَحِكُ الرسول هنا كان ضَحِكاً ترفيهيّاً لا يُقصد منه إلاّ الخروج عن الجِدّ الذي بدا كالكابوس المكبّل، وعن الموقف الثقيل الذي كاد ينحو نحو التأزّم.

وقد خُتم الحديث ختاماً مِسْكاً فأُقحِم فيه الشيطان. قال الرسول: «إيهِ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجّاً إلا سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ»، فأضفى على الحديث صبغة عجيبة وأخرجه من عالم الواقع المعيش

---

(١٦) A. Schopenhaur, *The world as will and idea*, p. 91. مذكور في: شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك**، ص ٩٢.

إلى عالم المخيال الواسع الشاسع الذي يُهوّل الأشياء فيجمع بين الشيطان وعمر فيهرب الشيطان عندما يلمح عمر ويُغيّر فجّه الذي كان يسلكه. وتسهم هذه الصورة التي ترتسم في المخيال في تضخيم هول عمر وشدّة قسوته، فيخافه الشيطان الذي لا يخاف أحداً وهو الذي اشتهر بالعصيان وقد رفض في البدء أمر الله القاضي بالسجود لآدم.

إنّ ورود الشيطان في هذا الحديث يُضفي على القصّة من العناصر المزيدة ما يقوم فيها زينةً ورونقاً فيزداد المشهد تركيباً ويبدو أجملَ. في هذا الإطار تُغادر الشخصيات عالم الناس لتُحلّق في عالم الجنّ والشياطين، ويُصبح عمرُ الإنسانُ قوّةً خارقةً للعادة، قد جُعلت للبطش بالبشر والانتقام من الشيطان الذي قضّ مضاجع الناس منذ الأزل. وإنّنا لنشعر هنا بأنّ الفَكَهَ قد أصبح نمطاً للحياة، وبلغ حدّاً لا مثيل له حتى بات عنصراً من عناصر الجمال في صياغة الحديث نفسه.

كان عمرُ هنا محورَ الحديث. أرادت القصة أنْ تسخر من شرّه الذي كان يتهدّد المسلمين. أرادت أنْ تُبيّن كيف كان صورة مغايرة للرسول، وكيف كان صورة لتبدّل الأحوال وخضوع الناس للتزمّت الكثير. وقد جاءت أحاديث كثيرة ساخرةً من عمر وإنْ خفيةً وتلميحاً، فكانت مدعاةً للضحك الخفيف وفضاءً للتندّر والتفكّه، وكأنّها صيغت تلك الصياغة لغاية بعينها فجُعلت للثأر من هذا الرجل الذي كثيراً ما غلب على شخصيته الجدّ والوقار والشدّة والغِلظة. وإنّ النظر في نصّ الحديث التالي ليمكّننا من الوقوف بوضوح على هذا الأمر: «[. . .] عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِساً فَسَمِعْنَا لَغَطاً وَصَوْتَ صِبْيَانٍ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا حَبَشِيَّةٌ تَزْفِنُ وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهَا فَقَالَ يَا عَائِشَةُ تَعَالَيْ فَانْظُرِي فَجِئْتُ فَوَضَعْتُ لَحْيَيَّ عَلَى مَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا مَا بَيْنَ الْمَنْكِبِ إِلَى رَأْسِهِ فَقَالَ لِي أَمَا شَبِعْتِ قَالَتْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ لا لأَنْظُرَ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُ إِذْ طَلَعَ عُمَرُ قَالَتْ فَارْفَضَّ النَّاسُ عَنْهَا قَالَتْ فَقَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنِّي لأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ قَالَتْ فَرَجَعْتُ»(١٧).

لقد بُني النصّ على مقابلة بين عالميْن فرّق بينهما كلّ شيء وباتا نمطيْن لحياتيْن مختلفتيْن، واحدة تنشر الحبور والسرور والفرحة مثّلها الرسول وعائشة والحبشيّة الراقصة والصبيان الذين كانوا حولها في صخب وضجيج فرحين بالمشهد الجميل، وواحدة مثّلها عمرُ الشديد، فقامت مناقضة للأولى تنشر الخوف والرعب في الناس كباراً وصغاراً وفي الجنّ أيضاً. هنا نرى الرسول مسروراً يدعو عائشة زوجتَه وأمَّ المؤمنين للتمتّع بالمنظر الجميل، فتأتي عائشة بدلالها الكبير لتضع لحييْها على منكب الرسول وتنظر ما بين المنكب ورأسه إلى الحبشيّة التي كانت تُرقص الصبية ويلتذّ لمشهدها المشاهدون. ونشعر في النصّ بروح الرسول الفَكِهَة وبعالمه اليسير فتدخل عائشة في ذلك آمنة مطمئنّة تنظر من خلاله إلى العالم بلا حجاب، بلا قوانين تُحرّم النظر إلى الآخرين، وتحرّم الفرحة والسرور. ونشعر كذلك بالودّ الرابط بين عائشة والرسول، وبالوئام الذي يسود العلاقة الزوجية بينهما.

ولكنّ هذا العالم الذي طغى عليه الودّ والسرور والحبور لا يستمرّ. كان مجرّد فسحة قصيرة من الهزل وضعتها القصّة في إطار عالم الجدّ العسير لتُعبّر بها عن حنين الإنسان إلى اللّهو والتمتّع بما توفّره الحياة الدنيا من مُتعة ولذّة. لذلك ترى المشهد يتوقّف بدخول عمر لتعود الحياة إلى سالف عهدها من النظام والخوف من شداد المسلمين. ومرّة أخرى يتدخّل الرسول ليطعن في سيرة عمر التي كان يجب أنْ تكون على تلك الشاكلة، فيسخر منه في شيء من العفوية وبعيداً عن كلّ إيلام أو ضرر. ومرّة أخرى يستعين الرسول بصورة الجنّ الخائف من عمر ليُعبّر عن منتهى الهزل في

(١٧) الترمذي، السنن، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٢٤.

الموقف الذي يطغى عليه العجيب فينقلب أجمل من ذي قبل ويُصبح أكثر تعبيراً عن الفَكَهِ.

وتتواصل السخرية اللطيفة من عمر الشديد في أحاديث أخرى لتُعبّر عن شوق المسلم إلى التخلّص من كلّ ما من شأنه أنْ يقوم في طريقه صورة للقوّة والبطش. من ذلك مثلاً الحديث التالي: «[. . .] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّه عَنْهمَا قَالَ قَالَ النَّبيُّ ﷺ رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أبي طَلْحَةَ وَسَمِعْتُ خَشَفَةً فَقُلْتُ: مَنْ هذا فَقَالَ: هَذَا بلالٌ. وَرَأَيْتُ قَصْراً بِفِنَائِهِ جَارِيَةٌ فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: لِعُمَرَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ. فَقَالَ عُمَرُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْكَ أَغَارُ»[(١٨)].

لقد استفزّ الرسول في هذا الحديث عُمَر أمام أصحابه بسبب غيرته المفرطة التي لم تفارقه حتى في الجنّة. وقد كانت هذه الغيرة وراء إحجام الرسول عن دخول القصر الذي خُصّ به عمرُ في الجنّة والاقتراب من الجارية التي جُعلت له. وقد روى الرسول ذلك بشيء من الدعابة اللطيفة والخفيفة الدالّة على أنّ هذا الحديث لم تكن له من وظيفة غير قيامه ترويحاً عن النفس، فاتُّخِذَ لها عُمرُ ـ على غلظته ـ موضوعاً فَكِهاً.

وقد كانت هذه الغلظة وراء هروب الناس وخاصّة النساء منهم، من عمر. فهذه أمّ كلثوم، ابنة الرسول، ترفض أنْ تكون زوجةً لعمر وتصرّح لعائشة التي جاءت تلومها في ذلك قائلة: «لا حاجة لي فيه [. . .] إنّه خشنُ العيش، شديدٌ على النساء»[(١٩)]. وهذه عائشة ترفض، لما قام بينها وبين

---

(١٨) البخاري، **الصحيح**، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٤٠٣، مسلم، **الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٠٨؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٣٨٠١، ١٤٤٧٢، ١٤٦٥٦. وانظر كذلك: ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**. ج٧، الباب ٧.

(١٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار التراث، ج٤، ص ٢٠٠.

الرسول كلام، أنْ يكون عمرُ بينهما، فتقول: «إنّي أفرق من عمر»[٢٠].

فهذه الأحاديث جُعلت للكشف عمّا كان في الرسول من روح فَكِهَةٍ، وللتعبير عمّا كانت المرأة تحلم به من حنين إلى الحياة في إطار الفرح والسرور بعيداً عن كلّ تزمّت وشدّة وعمّا يُمثّله عمرُ وأمثاله من توق إلى عالم العُسر الشديد. فتقوم الأحاديث بوظيفة تعليمية في المجتمع إذ تشكّل دعوة إلى نمط من العيش حبّذه الرسول ودعا إليه أزواجه وصحبه.

(٢٠) «[...] عن عائشة رضي الله عنها أنّه كان بينها وبين رسول الله ﷺ كلام فقال رسول الله ﷺ: ترضين أنْ يكون بيني وبينك عمر؟ قلت: مَنْ عمر؟ قال: عمرُ بن الخطّاب. قلت: لا والله، إنّي أفرق من عمر. قال النبي ﷺ: إنّ الشيطان يفرق من عمر»، السيوطي، **مسند عائشة**، ص ١٨٢.

الفصل الرابع

الفَكَهُ في حضرة الأهل

كثيراً ما نجد في الأحاديث التي روتها كتب التراث على اختلاف أنواعها أنّ الرسول «كان من أفْكَهِ الناس مع أهله»[1]، أو «كان من أفْكَهِ الناس مع نسائه»[2]. فأردنا في ما يلي من عملنا أنْ نتتبّع خطاه وهو مع نسائه وأهله المقرّبين حتى نقف على مظاهر الفَكَهِ الذي نطقت به تلك الأحاديث وجعلته نمطاً ساريَ المفعول في بيته.

١ ـ في حضرة الزوجات

ترتبط القصص في الثقافة العربية الإسلامية بالسمر. ويرتبط السمر باجتماع العائلة كلّما جنّ الليل للسهر والتفافها حول الكبار من أفرادها والاستماع إليهم يروون القصص للمتعة وتعليم الصبيان. وقد كرّست الأخبار الخاصّة بحياة الرسول هذا المبدأ العام، فجعلته يُسامر زوجاته، ويروي لهنّ أحسن القصص وأعجبها وأغربها، وينقلهنّ ـ بفضل قدرة المخيال على التحليق ـ إلى عوالم مجهولة يختلط فيها الإنس بالجنّ. وقد جاء في بعض هذه الأخبار ما يلي: «حدّث رسول الله ﷺ ذات ليلة نساءه حديثاً، فقالت امرأة منهنّ: كأنّ الحديثَ حديثُ خُرافةَ. فقال: أتدرون ما خُرافةُ؟ إنّ خُرافةَ

---

(١) انظر مثلاً: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٦، ص ٥٢؛ البيهقي، **دلائل النبوّة**، ج١، ص ٣٣١.

(٢) انظر مثلاً: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ١٢٤.

كان رجلاً من عُذْرَةَ أسرته الجنّ في الجاهلية، فمكث فيهم دهراً ثمّ ردّوه إلى الإنس، فكان يُحدّث الناسَ بما رأى فيهم من الأعاجيب، فقال الناس: حديثُ خُرافةَ»[٣].

يخرج بنا الحديث من العالم الواقعيّ ليُدخلنا في عالم قصصيّ تخييلي مفتوح على التأويل. وقد تمّ في هذا العالم القصصي تكريسُ الخرافة ـ وهي الكلام المستملح المكذوب[٤] ـ فنّاً قائماً بذاته، غايته إحداثُ المشهد العجيب والانفتاح على الغيب الذي لولا القصّة لظلّ موصد الأبواب. لقد استطاع الرسول وقد انتصب ذات ليلة يُحدّثُ زوجاته، أنْ يُغيّبَ العالم المقدّس وعباداته ومعاملاته، ويُدمجنا في عالم قصصيّ قوامه الخيال والرموز والإيحاءات. وقد استطاع الرسول أيضاً ـ بفضل قصّته العجيبة ـ حملَنا على مغادرة عالم الجدّ وإنزالنا في عالم الهزل الذي يتميّز بفضاء أرحب. ففضاء القصّ فضاءٌ للمتعة واللذّة، ينتقل فيه السامع بين المكان والزمان المفارقيْن المنتميْن إلى عالم الجنّ، والمكان والزمان الواقعييْن المتمثّليْن في بيت الرسول وقد ضمّه وزوجاته ليلاً. وينتقل السامع بين الفضاءيْن. ينتقل من المكان المغلق والزمان الواقعيّ إلى فضاء رحب يصنعه الخيال بما يُفتّقه عالم الجنّ في القريحة من صور، فيُسافر إلى هذه العوالم مأخوذاً بمتعة الحكْي. وفي الرحلة بين هذا الفضاء وذاك الفضاء نتعرّف على الوجه الآخر لمحمد، محمد الزوج يُسامر زوجاته ويَحمض معهنّ القول.

ونشعر من خلال السطور بأنّ المجلس كان يُخيّم عليه السرور ويملأه الحبور. لقد قام الرسول في هذا المجلس يُحدّث حديثاً عجيباً، فبات مثل شهرزاد وهي تروي قصصها لشهريار والجمهور. ويُغرق المحدّث في غرائب

---

(٣) الترمذي، **الشمائل المحمّدية**، ص ١٠٢.
(٤) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة خرف.

الأمور، فتُبادر زوجة من الزوجات إلى ملاحظة أنّ الأمر بات من عالم الخرافة الذي لا علاقة له بالواقع الذي يعرفه الناس ولا علاقة له بأرضهم التي فيها يسيرون. ولا يغضب الرسول ولا يثور على الزوجة التي جعلت كلامه مجرّد خرافة وعالم من الكذب والزور. بل جاراها في ما تقول وأصبح يُنظّر للمسألة ويبسط على الأسماع قصّة الخرافة وعلاقتها برجل كان اسمه خرافة. قال: «أتدرون ما خُرافةُ؟ إنّ خُرافةَ كان رجلاً من عُذْرَةَ أسرته الجنّ في الجاهلية، فمكث فيهم دهراً ثمّ ردّوه إلى الإنس، فكان يُحدّث الناسَ بما رأى فيهم من الأعاجيب، فقال الناس: حديثُ خُرافةَ».

اقتضى القصّ هنا أنْ يبحث الرسول عن عناصر حقيقية تؤكّد صلة حكْيه بالواقع وترسّخه في أذهان السامعين. ولكنّ العناصر التي جاءت تؤصّل الخرافة في الواقع كانت في الحقيقة فُسحة في عالم المخيال. التجأ الرسول إلى عالم مجهول ليُثبت صلته بالواقع. فإذا خرافة هذا رجل معروف من عُذرة التي هي قبيلة معروفة. ثمّ زُجّ بالرجل المعروف في عالم الجنّ العجيب. ثمّ أرجع إلى أهله من الإنس. فحدّث بأعاجيب الجنّ التي رسخت من بعدُ في الذهنية العربية الإسلامية وصارت واقعاً يسندها القرآن ويُثبت وجودها وتسندها الأحاديث وتقرّ بوجودها. فإذا القصّة الخياليّة تُصبح هنا أمراً على علاقة بالمعتقد، يؤمن به الإنسان ويُشرّع له الرسول.

كان خُرافةُ في القصّة التي رواها الرسول رجلاً من عُذرة. وعُذرة «بطنٌ من العرب عظيم» على علاقة بالسماء والتنجيم، إذ العُذرة «نجم من منازل القمر» أو «سنبلة النجّامين» أو «الجوزاء» على كلام بعضهم[٥]. فيبدو واضحاً من هذه المعاني أنّ الرجل بانتمائه إلى عذرة كان على علاقة بالغيب والسحر والسماء، ومن ثمّة بالجنّ.

---

(٥) ابن دريد، **الاشتقاق**، ص ص ٢٢٢-٥٣٠.

وكان خُرافةُ في القصّة التي رواها الرسول قد عاش في الجاهلية. وقد جاءت الجاهلية تعبيراً واضحاً عن ذلك الماضي العربيّ الذي حمّله الإسلام ما شاء أنْ يُحمّله من أخبار، فبدت عالماً من العجائب وغرائب الزمان. فلا غرابة إذن أنْ يُؤسَر في ذلك الزمان البعيد رجل من الإنس على أيدي جماعة من الجنّ ويعيش بينهم ويُردّ من بعد إلى أهله. وهكذا تقوم قبيلة الرجل وجاهلية العرب سنداً لترسيخ مقالة الرسول والشهادة على أنّها من العالم الواقعيّ المعيش وإنْ روت قصص الجنّ والشياطين.

نلاحظ أنّ الرسول، وقد قام في الحديث يُحدّث زوجاته بحكايات الجنّ وقصص الجاهلية العميقة الجذور في ثقافة العرب، قد أعطى هذا النوع من القصّ شرعية وجعله فنّاً تامّ الشروط. ونشعر في الحديث بأنّ المجلس الذي كانت تُروى فيه هذه الأخبار كان مجلساً يعمّه الأنس والدفء والتعطّش إلى مزيد الحكْي واكتشاف العجيب الذي يُداعب كلّ أذن ويشحذ كلّ ذهن(٦). إنّ الكلام يكتسب هنا سلطة على السامع تجعله مشدوداً إليه شدّاً، فتعظم منزلة الراوي ويصبح المتقبّل أسير الحكاية(٧) التي غايتها الدعابة والمُلحة والنادرة التي جُعلت للترويح عن النفس.

---

(٦) «العجيب له وقع طريف، يحمل في طيّاته الظرف، وله علاقة بالحسن، ويرتبط بالمؤانسة والقعود إلى النساء ومحادثتهنّ، ويدلّ على زهو المرء بنفسه وما يكون منه»، وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ٢٧. وانظر كذلك: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة عجب.

(٧) «كلّ ذلك يصبغه العجيب والغريب اللذان يتشكّلان سلاحاً في يد العالِم يضرب به أوتاراً حسّاسة في الإنسان، فيلين ويستقيم، لما للكلام العجيب من سلطان يقهر أحدّ السيوف الضاربة للأعناق»، وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ٧١٢. وانظر نقلاً عن المرجع نفسه: «الكلام هو قبل كلّ شيء سلطة، سلطة المتكلّم على السامع التي لا تقلّ تأثيراً عن سلطة الحاكم على المحكوم»، محمد عابد الجابري، **بنية العقل العربي**، ص ص ٣٠-٣١.

إنّ الفَكَهَ في هذا الحديث يختلف عمّا رأينا في الأحاديث السابقة. فهو هنا ليس وليد الضحك أو القهقهة بل يتجلّى في المجلس ذاته وما يُشعر به من ودّ وأنس ومسامرة. فالفَكَهُ هنا عالم القصّ بأسره، من مجلس وليل وباث ومتقبّل ونكتة دائمة وتحليق في عوالم الخيال الرحبة. الفَكَهُ هنا انفعال عام يطرأ على الإنسان، تُحْدِثُهُ فيه قصص الجنّ والشياطين والغيلان فيدخل فيها بالكلّية ويقترب من القاصّ ذاته ويستنجد به(٨). الفَكَهُ هنا يُقرّب بين الرسول وزوجاته فيعمّ الوئام ونشعر بالحياة بطيئة هادئة سعيدة. الفَكَهُ هنا يحضر من خلال سلطة العجيب، والعجيب كان دوماً عنصراً فعّالاً من عناصر الفَكَهِ. الفَكَهُ إذن في السمر ذاته وقد قام فسحة للنفس، بعيداً عن عالم الغزوة والحرب والتجارة والبحث عن القوت الصعب. والفَكَهُ ـ إنْ أخذناه بهذا المعنى ـ اتّضحت لنا وظيفته الترفيهيّة التي كثيراً ما رافقت وظيفته التعليمية المتمثّلة في تقديم العبر.

٢ ـ عائشة والرسول والفَكَهُ ثالثُهما

رأينا الرسول في الأحاديث الماضية يُسامر زوجاته وقد اجتمعن إليه كلّهنّ، فكان يقضي معهنّ جميعاً وتراً من الليل في جوّ من اللطف والمؤانسة، يروي لهنّ القصص فيستمتعن بما كان يروي. وقد جاءت أحاديث أخرى ـ نتناولها بالدرس في ما يلي من البحث ـ تُعالج علاقة الرسول الفَكِهَةَ بزوجته المفضّلة عائشة أمّ المؤمنين التي كان لها في الحديث النبويّ مكانة رفيعة بوصفها راويةً أو بوصفها فاعلةً في الأحداث.

كانت عائشة من بين نساء الرسول أصغرَهنّ سنّاً. وكانت البكرَ الوحيدةَ في النساء. لذلك أولاها حسب ما ورد في الأحاديث من العطف والحنان

---

(٨) انظر: محسن جاسم الموسوي، **مجتمع ألف ليلة وليلة**، ص ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩.

والودّ ما لم يولِهِ غيرَها. كانت حرّة في بيت زوجها الرسول، تلعب وصويحباتها، فلا يُثور ولا يغضب. بل كان يفرح للأمر ويسمح لها باللعب فيغدو البيتُ فضاءً للفَكَهِ. فقد روت عائشة في هذا الصدد قالت: «كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي»(٩).

كانت عائشة تلعب بالبنات، أي تلعب بالدمى. كانت تحرّكها فتهتزّ بين يديها وتشعر بنشوة الصبيان. وكانت صواحبها اللائي كنّ صغيرات مثلها يأتينها إلى البيت فيشاركنها لعبها بالبنات الدمى. وكان الرسول يُرخّص لعائشة وصواحبها في اللعب، متفهّماً طبيعة السنّ التي كانت وكنّ فيها، غير عابئ بكلام أبي بكر أو عمر اللذين كانا يُحرّمان اللعب والنظر إلى اللاعبين وكلّ مظاهر الطرب وإنْ في يوم عيد. وكانت عائشة تشعر بالفرق بين زوجها الرسول الذي يسمح لها بالطرب واللعب وأبي بكر وعمر اللذيْن كانا يمنعانها من هذا الأمر. كانت تروي وتقول بخصوص أبيها أبي بكر: «دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوارِي الأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ [. . .] فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً وَهَذَا عِيدُنَا»(١٠). وروت الأخبار أنّ عمر في عهد الرسول كان مثل أبي بكر لا

---

(٩) البخاري، **الصحيح**، كتاب الأدب، حديث رقم ٥٦٦٥؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣١٦٣، ٢٤١٦٩، ٢٤٧٧٠، ٢٤٧٧٧؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٤٢٦٤؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ١٩٧٢.

(١٠) مسلم، **الصحيح**، كتاب صلاة العيدين، حديث رقم ١٤٧٩؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٤٣٥، كتاب الجمعة، حديث رقم ٨٩٧؛ النسائي، **السنن**، كتاب صلاة العيدين، حديث رقم ١٥٧٥، ١٥٧٦، ١٥٧٧، ١٥٧٩؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ١٨٨٨؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، =

يسمح باللعب وإنْ في حضرة الرسول الراضي بالأمر: «بَيْنَمَا الْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحِرَابِهِمْ إِذْ دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَهْوَى إِلَى الْحَصْبَاءِ يَحْصِبُهُمْ بِهَا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَعْهُمْ يَا عُمَرُ»(١١).

لقد اكتسب لعبُ عائشة شرعيةً إذ قام الرسول له سنداً فأحبّت اللعب ولعبت. أمّا أبو بكر أبوها فكان يمنعها من ذلك ويعتبر أنّها لم تعد بنتاً صغيرة بل زوجَ الرسول. كان محمد يرى فيها الطفلة الصغيرة على الدوام فلا يحرمها من طفولتها بل يوفّر لها كلّ ما تقتضيه حالة الطفولة. لذلك كانت تلوذ به هاربة ممّا فرضه عليها أبو بكر من حظر. كانت لا تستحي من لعبها، بل تطالب به حقّاً من حقوقها شرّعه لها زوجُها الرسول، فبات نِعْمَ الزوج لعائشة. وكانت تقول: «فَاقْدِرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ حَرِيصَةً عَلَى اللَّهْوِ»(١٢).

كانت عائشة حريصةً على اللهو، لا تنظر بعين الجدّ إلى حالتها بوصفها زوجة. وهذا طبيعيّ فيها وهي الطفلة، والطفلة مثل الطفل ميّالانِ بالطبع إلى

= حديث رقم ٢٣١٦١، ٢٣٣٩٢، ٢٣٤٠٠، ٢٣٥٤١، ٢٣٧٠٩، ٢٣٨٠٤، ٢٣٨٧٩، ٢٤١٦٨، ٢٤٣٥٨، ٢٤٩٠٦.

(١١) مسلم، **الصحيح**، كتاب صلاة العيدين، حديث رقم ١٤٨٥؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٨٦؛ النسائي، **السنن**، كتاب صلاة العيدين، حديث رقم ١٥٧٨؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٧٧٣٤، ١٠٥٤٤.

(١٢) «[. . .] قَالَتْ عَائِشَةُ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ عَلَى بَابِ حُجْرَتِي وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ لِكَيْ أَنْظُرَ إِلَى لَعِبِهِمْ ثُمَّ يَقُومُ مِنْ أَجْلِي حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَنْصَرِفُ فَاقْدِرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ حَرِيصَةً عَلَى اللَّهْوِ»، مسلم، **الصحيح**، كتاب صلاة العيدين، حديث رقم ١٤٨١؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٤٣٥؛ النسائي، **السنن**، كتاب صلاة العيدين، حديث رقم ١٥٧٥، ابن ماجة، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ١٨٨٨؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣١٦١.

اللعب. ويوافق هواها هوى الرسول فيسمح لها باللعب. كان لا يرى في الطرب واللعب ما كان يراه أبو بكر وعمر، عملاً من عمل الشيطان، ومزامير لهو يُحرّكها بإتقان. فتُغنّي المغنّيات وترقص الصبايا. كان الطرب واللعب في ذلك الزمان، مثلما تدلّ على ذلك الأخبار، عملاً محظوراً على اللاعبين والمغنّين والصبيان. ولكنّ الرسول سعى إلى إعادة الاعتبار إلى ما كان محظوراً فسمح بما منع أبو بكر وعمر، وأمر بإقامة الأفراح يوم العيد. وقد روت عائشة من بعدُ أحاديث لا تترك مجالاً للشكّ في هذا الأمر، قالت متذكّرة الأيام الخوالي: «وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ وَالْحِرَابِ فَإِمَّا سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَإِمَّا قَالَ تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ فَقُلْتُ نَعَمْ فَأَقَامَنِي وَرَاءه خَدِّي عَلَى خَدِّهِ وَهُوَ يَقُولُ دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ حَتَّى إِذَا مَلِلْتُ قَالَ حَسْبُكِ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَاذْهَبِي»(١٣). وجاء في ذات الأمر: «أَنَّهَا قَالَتْ لِلَعَّابِينَ [فُرس أو حبش] وَدِدْتُ أَنِّي أَرَاهُمْ فَقَام رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقُمْتُ عَلَى الْبَابِ أَنْظُرُ بَيْنَ أُذُنَيْهِ وَعَاتِقِهِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ»(١٤).

تجمع هذه الأحاديث في الفضاء نفسه بين أمور عديدة: قيام اللهو في عهد الرسول نمطاً من أنماط التسلية، واحتفال الناس بالعيد، وفتح الجزيرة أبوابها أمام الفرس والحبش والسودان ليقوموا باللعب والتسلية، وقيام هؤلاء محترفين لهذه الفنون، يجوبون الأمصار لنشر الزهو والطرب.

كان المشهد رائعاً جميلاً، وكانت عائشة مسرورة بالمشهد الجميل الذي زاده تسامح الرسول جمالاً. كان فَرِحاً لفرح عائشة. كان يظهر عليه الحبور

---

(١٣) البخاري، **الصحيح**، كتاب الجمعة، حديث رقم ٨٩٧؛ كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٩١؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب صلاة العيدين، حديث رقم ١٤٨٠ـ١٤٨٤؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٢٩٢٠، ٢٥١٢٣.

(١٤) مسلم، **الصحيح**، كتاب صلاة العيدين، حديث رقم ١٤٨٤؛ وانظر تخريج الحديث السابق أيضاً، فقد جاء ضمنه.

وعائشة تداعبه وكأنّها تعبِّر عن فُسحة فريدة من نوعها قام الرسول يحميها من الاندثار. كانت متعة عائشة متعتيْن لا متعة واحدة: متعة النظر إلى الحبش أو السودان أو الفرس يلعبون وهي كأنّها تشاركهم اللعب، ومتعة قربها من زوجها الرسول واحتكاكها به، مرّة تحكّ خدّها بخدّه، ومرّة تطلّ برأسها من وراء أذنيه أو عاتقه. كان زوجها الرسول الإطار الذي منه تطلّ على عالم السرور دون أنْ تشعر بأنّ العالم مهدّد بالزوال. كان الرسول هنا حامياً لهذا العالم. فنشعر بأهمّيته في قيام الترفيه عن النفس والضحك واللعب نظاماً يحميه صاحب الدين ويقيمه موازياً للدين. ونشعر بالاطمئنان يخيّم على عائشة وبالأمن يملأ عالمها وهي بجانب الرسول أو على ظهره تطلّ على العالم الجميل. كان الرسول يُشاركها الفرجة، وخير الفرجة ما اشترك في النظر إليها الناس. كان الرسول بعمله هذا يُشرّع للفرجة، يُشرّع للفكَهِ طريقةً في الحياة.

ومن اللافت للانتباه أنّ لعب اللاعبين وغناء المغنّيات والمشهد والفرجة كانت أشياء تتمّ في بيت الرسول أو في مسجد الرسول والرسول راضٍ بالأمر، بل يحثُّ عليه ويُشجّع، ولا حرج يبدو في ذلك ولا نهي ولا حظر. كان الأمر عنده طبيعيّاً ممّا يشهد على أنّ المسجد مثلاً كان المكان العامّ عن جدارة، فيه التعبّد والاجتماع للصلاة، وفيه يقصّ القاصّ ويلعب اللاعب ويلهو اللاهي، وفيه يتذاكر الناس أخبارهم الماضية ويخطّطون لمستقبل أيّامهم. وفيه يحتفل الناس بالعيد ويقيمون أفراحهم.

إنّ المسجد الذي استحال من بعدُ فضاءً للصلاة وحدها، يُغلق في وجه غيرها، كان في عهد الرسول، كما تدل على ذلك الأخبار، فضاءً للفرجة، يؤدِّي دور المسرح، فيه حلقات القصّ تجاور حلقات الذكر، وفيه تعليم أمور الدين تُجاور لَعبَ اللاعبين. وقد روت الأخبار أنّ الرسول وضع في المسجد منبراً لحسان بن ثابت يعتليه ليقول الشعر الذي كثيراً ما روت الأخبار من بعد

أنّه كان محظوراً، وأنّه من عمل الشيطان الذي لا يتبعه إلاّ الغاوون. وكان الرسول يقول في حسّان الشاعر «إنّ الله تعالى يؤيّد حسّاناً بروح القدس ما يُفاخر عن رسول الله»[١٥]. كان المسجد إذن فضاءً مفتوحاً لكلّ الناس، المؤمنين المسلمين، والفنّانين الشعراء والقصّاص، والعرب واليهود والعجم والسودان. ولنتأمّل المشهد الذي مررنا به، فماذا نرى؟ نسيجاً من الفنون وخليطاً من الأجناس والديانات واللغات تتمازج وتختلط فتنشأ فسيفساء جميلة، ويأتلف المختلف في انسجام ونظام، سيطبع من بعدُ الثقافةَ بطابعه، ويؤدّي دوراً فعّالاً في الفتوحات الإسلامية وفي مأسسة دار الإسلام وظهور مختلف التصانيف والمؤلّفات التي أسهم في نحتها الفرس والترك واليهود والنصارى.

إنّ الأحاديث التي نحن بصدد تحليلها تجعل الأحداث تتمّ يومَ عيدٍ. فلعب اللعّابين في المسجد كان يوم العيد، وغناء المغنّيات كان يوم العيد. ونشعر هنا بالزمن قد تحوّل إلى فرحة عارمة وعالم من المسرّات فغاب طيف الجدّ وبرز للعيان واضحاً وجهُ الفَكَهِ السمح. ولما نهر أبو بكر الجاريتيْن المغنّيتيْن ونهر عمر السودان أو الحبش اللعّابين وحصبهم بالحصباء، قام الرسول رادّاً حكمهما، مشرّعاً للعيد فضاءً للفرحة وفرصة لنسيان جدّ الحياة. لقد بدا الإسلام في حديث الرسول قريباً من النفوس، يُحبّب إلى الناس الأعياد[١٦]، ينتظرونها فتجيء هديّة من الرحمان وجزاء للمؤمنين. ونشعر في

---

(١٥) «[. . .] عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضَعُ لِحَسَّان مِنْبَراً فِي الْمَسْجِدِ يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِماً يُفَاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ قالَ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّاناً بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا يُفَاخِرُ أَوْ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، الترمذي، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٢٧٧٣.

(١٦) «[. . .] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ لِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَانِ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَلَما قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ قَالَ كَانَ لَكُمْ يَوْمَانِ تَلْعَبُونَ فِيهِمَا وَقَدْ أَبْدَلَكُمُ اللَّهُ بِهِمَا خَيْراً مِنْهُمَا يَوْمَ الْفِطْرِ وَيَوْمَ الأَضْحَى»، النسائي، **السنن**، كتاب صلاة العيدين، حديث رقم ١٥٣٨؛ =

كلام الرسول وهو يقول: «إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً وَهَذَا عِيدُنَا»[١٧]، بأنّ عيد الفطر جُعِلَ كرامة للصائم، فيُفطرُ بعد أيّام صومٍ طالت عليه، ويأكل ما لذّ وطاب، وتزهو نفسه بعد الشدائد. ثمّ يأتي عيد الأضحى فيُولِمُ القوم احتفالاً بعدم ذبح الأبناء، فتعمّ الفرحة وتتصاعد التسابيح إلى السماء، وتُقامُ صلاة العيد، وتتصاعد روائح الشواء. تلك هي فرحة العيد، فرصة يترقّبها المؤمن السعيد، فضاءً للمتعة المنشودة واللذّة التي منّى بها النفس في انتظار يوم العيد.

هنا يترك الدين للمسلم فُسحةً وزمناً للهو والمتعة. ويؤكّد الرسول هذا المعنى إذ مرّ «ذات عيد بالذين يُدَرْكِلُونَ بالمدينة، فقام عليهم [...] وهو يقول: خُذوا يا بني أرفدة حتى يعلم اليهودُ والنصارى أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ»[١٨]. وقد شعر العلماء بهذه الحنيفية السمحة فأنشأ بعضهم فيها جميل الفقرات واصفاً محمداً قائلاً فيه: «محمد الذي أخرجنا من الضيق إلى الفسحة، وبُعثَ إلينا بالحنيفية السمحة، ليضع عن وِلْدِ إسماعيل أغلال بني إسرائيل، بل ليرفع عن كلّ مَنْ دخل في السلم، من جملة العرب والعجم، ما أضلع حمله وأظلع ثقله»[١٩].

كان الرسول في ظلّ هذه الحنيفية السمحة يُشرّع للحياة في ظلّ اللعب والضحك والسرور، فلا يحرم زوجاته من ذلك ولا يحرم المسلمين، فيخرج السرور من بيت الرسول ليعمّ جماعة المسلمين، وربّما أغرى ذلك غير المسلمين فدخلوا الدين مخلصين حنفاء. كانت الحنيفية السمحة عند الرسول

= أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٢٣٦٢، ١٢٩٨٥؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٩٥٩.

(١٧) انظر نص الحديث في عملنا أعلاه، ص ١١٦.

(١٨) أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣٧١٠، ٢٤٧٧١. وانظر: السيوطي، **مسند أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها**، ص ١٢٤. يدركلون: يلعبون الدِّرَكْلَة وهي ضرب من لعب الصبيان قيل هي حبشية؛ أرفدة: جد الحبشية الأكبر.

(١٩) الحصري، **جمع الجواهر في الملح والنوادر**، المقدّمة، ص ١.

تمرّ وجوباً بالترويح عن النفس وإيجاد الفسحة للعب واللهو والفَكَهِ والسرور.

كان الفَكَهُ في هذه الأحاديث إطاراً عامّاً أينع فيه اللعبُ والقفز والرقص والغناء وضرب الدفوف. كان فضاءً للحركة تُطلق العنان للجسد والأعضاء فتتحرّك لتعبّر عن عالم السرور والفرحة العارمة. ولكنّ الفَكَهَ في بعض الأحاديث جاء خارج هذا الإطار، فعبّرت عنه الكلمة وحدها. ولنا في الحديث التالي خير مثال على هذا الأمر: «عَنْ عائشة رَضِي اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ لَوْ نَزَلْتَ وَادِياً وَفِيهِ شَجَرَةٌ قَدْ أُكِلَ مِنْهَا وَوَجَدْتَ شَجَرةً لَمْ يُؤْكَلْ مِنْهَا فِي أَيِّهَا كُنْتَ تُرْتِـعُ بَعِيرَكَ؟ قَالَ: فِي الَّتِي لَمْ يُرْتَعْ مِنْهَا، تَعْنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْراً غَيْرَهَا»[٢٠].

إنّ الناظر في هذا الحديث لا يرى شيئاً آخر غير التلاعب بالألفاظ والتراشق بالكلمات وإطلاق العنان للغة لتبوح بأسرارها وتفضح أمر أصحابها في غير ما وُضعتْ له. هنا تُصبح الشجرةُ امرأةً، والشجرةُ التي أُكِلَ منها ثيّباً والتي لم يُؤكل منها بكراً، ويُصبح البعيرُ الراتعُ في هذه الشجرة أو تلك ذكراً يَطَأُ هذه وتلك. هنا نشعر بأنّ النصّ قد انقلب بئراً عميقة القعر إذا ما حرّكت فيه بلطف تدفّق ماؤها مدراراً وفاضت جداول من الفَكَهِ الذي تملأنا به الكلمات، فنرى «عائشة الفَكِهَةَ التي كانت تُكلِّم محمداً رمزاً فيفهم محمد رمزها»[٢١] وقد انقلبت موطناً لأحاسيس مكبوتة تُعبّر عن حنين عائشة إلى أنْ تظهر البكر الوحيدة التي تزوّجها محمد ومن ثمّةَ تفوز على الزوجات الثيّبات وخاصة على خديجة التي لم ينسها محمد، بل ظل لاهجاً بذكرها كما دلّت على ذلك الأحاديث الطوال التي دُوِّنت في كتب السيرة والتاريخ[٢٢].

في إطار النصّ الفَكِهِ والكلمات اللطيفة، يتعرّى وجه عائشة الغيور.

---

(٢٠) البخاري، **الصحيح**، كتاب النكاح، حديث رقم ٤٦٨٧.

(٢١) وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ٣٧٠.

(٢٢) انظر المرجع السابق، ص ص ٣٧٠-٣٧٢.

كانت تغار من شبح خديجة التي كان يلهج بذكرها الرسول، وكانت تغار من الزوجات أو الإماء اللاتي كنّ في بيت الرسول. وكانت من بعدُ لا تتحرّج في ذكر ذلك باسمة ضاحكة، لتعبّر بطريقة فَكِهَةٍ عمّا كان يختلج فيها من كُرهٍ لضرائرها ومن رغبة في أنْ تفوز وحدها بالزوج الرسول. حدّثت ذات مرّة قالت: «فَقَدْتُ النبيّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ قَامَ إِلَى جَارِيَتِهِ مارية فَغِرْتُ عَلَيْهِ فَقُمْتُ أَلْتَمِسُ الجِدارَ فَوجَدْتُهُ قَائِماً يُصَلِّي فَأَدْخَلْتُ يَدي في شَعْرِهِ لأَنْظُرَ هَلِ اغْتَسَلَ أَمْ لا، فَقَالَ: مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ أَغِرْتِ؟ فَقُلْتُ: وَمَا لِي لا يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ؟ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ مَعِيَ شَيْطَانٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَمَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ»[٢٣].

إنّ اللعب بالكَلام في هذا الحديث لعب ذو شفرات يمرّ عبر خطاب يفهمه الزوج والزوجة ومأتاه الغيرة. لما ظنّت عائشة بالنبيّ سُوءاً كشف لها شيطانها الكافر خفايا نفسها الغيور. وبدا شيطانها الكافر مقابلاً لشيطان الرسول الذي أسلم. فإذا هذه المقابلة عالمٌ من الدعابة الخفيفة تنقلب فيها الشياطين، مثل الإنس، كافرة ومسلمة. ويُفجّر قول الرسول هنا الضحك في نفس عائشة وفي أنفسنا، للبساطة المعبّرة تعبيراً دقيقاً عن حالة لم تكن تنتظرها ولا نحن ننتظرها. فالشيطان الذي لا يبرز إلاّ عاصياً أوامر الربّ كافراً به وبها، ينقلب هنا مسلماً مؤمناً خاضعاً للرسول ولربّه الذي أرسله. وهذا الانقلاب يُسبّب الضحك ويجعل من الحديث نُكتة[٢٤] طريفة، يُستعمل فيه

---

(٢٣) مسلم، **الصحيح**، كتاب صفة القيامة والجنّة والنار، حديث رقم ٥٠٣٥؛ النسائي، **السنن**، كتاب عشرة النساء، حديث رقم ٣٨٩٨؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣٧٠١.

(٢٤) انظر: عبد المجيد حنون، «النكتة جنساً أدبيّاً»، في: **مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم**، ص ص ٢٠٥-٢١٨.

الاقتصاد في القول والإيجاز في اللفظ والتكرار من دون عناء ـ مثل كلمة الشيطان هنا ـ في اللعب المتواصل الذي يُخفي في بساطته براءة لطيفة. فردّ الرسول على عائشة، وإنْ كان فيه بعض لوم وعتاب، يُظهر عطفاً عليها وحنوّاً، ويُظهر الرسول عارفاً بنفسيّة الزوجة الغيور، حكيماً في ردّه عليها، فلا يُسبّب ذلك ضرراً أو إيلاماً.

ونرى الرسول في بعض الأحاديث وهو في حضرة زوجتيْن من زوجاته تلهوان فيشاركهما لهوهما، فتَسِمُ روحُ الدعابة الجوَّ بمِيسم خفيف، لطيف ظريف. وشاهدنا على ذلك الحديثُ التالي: «[...] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة، فصنعتُ خزيراً، فجئتُ به، فقلتُ لسودة: كُلي، فقالت: لا أحبّه، فقلتُ: والله لتأكُلين أو لألطّخنّ وجهك، فقالت: ما أنا بذائقة. فأخذتُ من الصحيفة شيئاً فلطّختُ به وجهها، ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض لها ركبتيْه لتستقيد منّي، فتناولت من الصحيفة شيئاً فمسحت به وجهي، ورسول الله ﷺ يضحك»(٢٥).

كانت الزوجتان تتبادحان(٢٦) بالخزير في حضرة الرسول، تُلطّخ كلّ منهما وجه الأخرى، وهو يتفرّج عليهما دون التدخّل لصالح هذه أو تلك. فيبرز من خلال ذلك عدلُه بين نسائه، والودُّ الذي كان يُخيّم على الحياة في بيته، واللعبُ والدعابةُ اللذان كانا لا يُفارقانه. لم يكن التراشق بالخزير وتلطيخ الوجه واحتماء هذه المرأة أو تلك بالرسول إلاّ من علامات الفرح والسرور. لم يكن الصراع شيئاً آخر غير لعبٍ كلعب الصبيان بريء. فنحن لا

(٢٥) السيوطي، **مسند عائشة**، ص ١٧٩، والخزير لحم يقطع صغاراً ويصبّ عليه ماء كثير، فإذا نضج ذر عليه الدقيق، فإذا لم يكن فيها لحم فهي عصيدة.

(٢٦) تتبادحان: بدح الشيء، رماه، وتبادحوا، ترامَوا بالبطيخ والرّمان ونحو ذلك. ابن منظور: **لسان العرب**، ج٢، مادة بدح، ص ٣٣.

نجد أنفسنا هنا في حضرة ضرّة تغار من ضرّتها، ولا نشهد صراعاً حقيقيّاً. بل إنّ الأمرَ لا يعدو أنْ يكون خدعةً، فنفهم من ذلك ما كان يربط بين عائشة وسودة من محبّة وعطف. ونفهم اعتراف عائشة لسودة بالجميل. فسودة هي تلك الزوجة التي ـ لمّا تقدّم بها السنّ وشاخت ـ وهبت نوبتها من محمّد لعائشة. وكانت عائشة تروي ذلك مزهوّة فتقول: «مَا رَأَيْتُ امْرَأَةً أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ فِي مِسْلاخِهَا مِنْ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ مِنِ امْرَأَةٍ فِيهَا حِدَّةٌ [. . .] لما كَبِرَتْ جَعَلَتْ يَوْمَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَائِشَةَ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ جَعَلْتُ يَوْمِي مِنْكَ لِعَائِشَةَ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ لِعَائِشَةَ يَوْمَيْنِ: يَوْمَهَا وَيَوْمَ سَوْدَةَ»[27].

كلّ شيء هنا يتمّ في عالم من التسلية والمتعة والضحك: إهداء اليوم لعائشة، ومطالبة عائشة به، واللعب والتراشق بالطعام، وتلطيخ الوجه، والاحتماء بالرسول، وخفض الرسول ركبتيه حتى تستجير به المستجيرة وتختفي في ظلّه. كلّ شيء صار مشهداً فَكِهاً، فيلتذّ اللاعب باللعب، ويلتذّ المشاهد بما يُشاهد، ويشعر القارئ بعالم الكهول قد انقلب عالماً للأطفال الذين لا يعرفون غير الحبور.

كانت الزوجتان تلعبان كما يلعب الأطفال فتنقلبان من ضرّتين كان يُمكن أنْ يجمع بينهما العداء إلى طفلتيْن تمرحان. هكذا هو الفَكَهُ، يُعيد إلى النفس نقاوتها وبراءتها ويطهّرها من كلّ رجس. وهكذا هو الرسول، يحبّ الحبور ويأنس بمن كان ينشر الحبور، فلا هو ينقلب واعظاً شديداً، يعظ الزوجتيْن ويوبّخ، ولا هو ينقلب بخيلاً يخاف ضياع الخزير والتبذير. وتطغى صورة محمد على المشهد فيعمّه التسامح والمحبّة، فلا تتصنّع الزوجتان المهابةَ، بل

(٢٧) مسلم، **الصحيح**، كتاب الرضاع، حديث رقم ٢٦٥٧؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب النكاح، حديث رقم ٤٨١١؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣٢٥٩، ٢٣٣٣٧، ٢٣٧١٤؛ أبو داود، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ١٨٢٦؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ١٩٦٢.

تواصلان المزاح الذي كان يُمارسه الرسول في غير مبالغة أو إسراف، إذ «للضحك موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد أو قصّر عنهما، صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً»[٢٨]. لذلك كان الرسول يمنح زوجاته فرصة التحابّ والتقارب، فيُذهب البغضاء عن نفوسهنّ ويشاركهنّ الضحك.

وتشهد مواقف أخرى على لعب الرسول. ها هو في الحديث التالي يُسابق عائشة، مرّة تسبقه ومرّة يسبقها. قالت عائشة: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أبْدُنْ فَقَالَ لِلنَّاسِ تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ قَالَ لِي تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ فَسَكَتَ عَنِّي حَتَّى إِذا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَقَالَ لِلنَّاسِ تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ قَالَ تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ هَذِهِ بِتِلْكَ»[٢٩].

إنّ ما يلفت الانتباه في هذا الحديث هو أنّ الرسولَ كان يَصطحبُ عائشة في أسفاره ويُسابقها ويُلاعبها. لم يكن الرسول يطلب نزال أحد الصحابة، ولا سباق أحد الفرسان، بل كان يخصّ عائشة وحدها بالسباق والنزال، لا غاية له من ذلك غير التسلية واللعب. فالرسول هنا مثل أبٍ يلاعب ابنه أو ابنته، فتنتفي في السباق الغلبة لمن تكون، ولا يبقى إلاّ وجهان ضاحكان يعبّران عن السعادة والإيمان بالحياة الدنيا.

وسواء كان الرسول سابق عائشة فسبقته فعلاً لخفّتها ونحافة جسدها وصغر سنّها، أو سبقته لأنّه تباطأ وخفّف من سرعته لتفوز عليه وتشعر

(٢٨) الجاحظ، **البخلاء**، ص ١٩.

(٢٩) أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٥٠٧٥؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الجهاد، حديث رقم ٢٢١٤؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ١٩٦٩.

بالاطمئنان وبروح التفوّق على الزوج الذي بلغ من العمر مبلغاً، فإنّ النصّ يُخلّد الروح الفَكِهَةَ لرجل أحبّ هذه الطفلة الصغيرة ودلّلها كما يدلّل الزوج المحبّ زوجته أو الأب الحنون ابنته. وحتّى ساعة سبقها وقد كبرت وبدنت فإنّنا لا نشعر بروح الأخذ بالثأر والعزم على الغلبة، بل إنّ النصّ يجعل الأمر بسيطاً بساطة الحياة التي كان يحياها الناس يومها. وحياة الناس يومها كانت دعابةً لطيفةً ولعباً بريئاً ومشهداً جميلاً يُطلق فيه رجلٌ وامرأةٌ أرجلهما للريح، وصحابة في الركب يتقدّمون الراكضيْن حتى لا يفسدوا عليهما اللعب ولا يحرجوا رسولاً يُلاعب امرأته الطفلة.

إنّ المشهد هنا لا غاية له غير تخليد اللحظة التي غاب فيها جدّ الحياة الدنيا واختفى حكم الآخرة الذي كان يُثقل كاهل الناس. إنّ المشهد هنا لحظة من لحظات الدنيا التي يترك فيها الإنسان العنان لنفسه كي تجوب عوالم الفَكَهِ، لتمزح وتمرح وتشعر بالسعادة العظمى في ظلّ الوئام يُخيّم على حياة زوجية كثيراً ما كانت عند المسلمين فضاءً للكبتِ والأزمةِ وحُكمِ الرجلِ المرأةَ حُكماً مُجحفاً.

إنّ هذا المشهد الذي صوّره الحديث يعبّر عن طموح الإنسان إلى العيش في ظلّ السعادة والتوق إلى الطمأنينة والأمن. لذلك كان كأغنية للحياة الدنيا صاغها القُصّاص بكلّ فنّ لتخليد لحظات السعادة بين الرجل والمرأة التي رُفِع من شأنها وباتت مدلّلة عند الرجل زوجها، لا يرى جمال الحياة إلاّ بها. في هذا الإطار السعيد يُصبح الفَكَهُ عنصراً فنّيّاً وظيفته ترسيخ الأحداث الجميلة في الذاكرة وتخليدها في الأحاديث المروية.

٣ ـ الفَكَهُ في العبادات

ولا يقف الفَكَهُ مع النساء عند الحياة الخاصّة، بل إنّه يتعدّى ذلك ويمسّ مجال العبادات على صرامته وقداسته ويجعله يسيراً طيّعاً. ذلك ما نتبيّنه من

خلال الحديث التالي: «[. . .] عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا قَالَتْ إنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيُقَبِّلُ بَعْضَ أَزْوَاجِهِ وَهُوَ صَائِمٌ ثُمَّ ضَحِكَتْ»(٣٠).

في هذا الحديث تنشر عائشة على الملأ العظيم سُنّةً من سُنن الرسول كثيراً ما تستّرت عليها الأخبار. كانت تُحدّث وتقول إنّ الرسول كان يُقبّل بعض أزواجه وهو صائم. وكانت تضحك وهي تنقل هذا الخبر حياءً أو تستّراً على الأمر الذي كان لا يُباح به. ونضحك لضحكتها التي تقودنا إلى الفهم الصحيح، فنفهم أنّ «بعض نسائه» الواردة في الحديث لا تعني إلاّ عائشة. هنا يبرز المسكوت عنه ونفهم سبب حياء عائشة الذي أضمرته. كانت بالإشارة الخفيفة والضحكة اللطيفة تريد أنْ تقول إنّ الرسول كان يُقبّلها وإنْ في رمضان الذي ينذر فيه العبد للرحمان صوماً فلا يُقبّل إنسيّاً.

وإذا كانت عائشة قد تستّرت، أو كادت تتستّر، على الأمر في هذا الحديث، فإنّها جهرت به في حديث آخر، إذ حدّثت قالت: «كان رسول الله ﷺ يتوضّأ ثمّ يخرج إلى الصلاة فيُقبّلُني ثمّ يمضي إلى الصلاة، فما يُحدِث وضوءاً»(٣١).

كان الرسول إذن يقبّل المرأة أثناء الصوم فلا يبطل صومه. وكان يقبّلها بعد الوضوء فلا يُنقض له وضوء. وكان يُصلّي بعد التقبيل فلا تُردّ له صلاة. بل إنّه كان أحياناً يُصلّي في حضرة عائشة وهي باسطة رجليها في قبلته فلا

(٣٠) البخاري، **الصحيح**، كتاب الصوم، حديث رقم ١٧٩٣؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الصيام، حديث رقم ١٧٥١ـ١٧٦١؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الصوم، حديث رقم ٢٠٣٤ـ٢٠٣٦؛ الترمذي، **السنن**، كتاب الصوم، حديث رقم ٦٦٠، ٦٦١؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الصوم، حديث رقم ١٦٧٣ـ١٦٧٧؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٢٩٨١، ٢٣٠٠٠، ٢٣٠٢٥، ٢٤٠٥٠، ٢٥٢٠٨؛ الدارمي، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٧٦٢، كتاب الصوم، حديث رقم ١٦٥٩؛ مالك، **الموطأ**، كتاب الصيام، حديث رقم ٥٦٩.

(٣١) السيوطي، **مسند عائشة**، ص ٤٧.

يتحرّج ولا يتوقّف عن الصلاة. وقد روت الأخبار: «عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَنَامُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرِجْلايَ فِي قِبْلَتِهِ فَإِذَا سَجَدَ غَمَزَنِي فَقَبَضْتُ رِجْلَيَّ فَإِذَا قَامَ بَسَطْتُهُمَا»(٣٢).

في فضاء الصلاة المقدّس نرى الرسول في هذا الحديث يُلاعب عائشة ـ مثلما سنراه في أحاديث لاحقة يُلاعب أحفاده الحسن والحسين وأميمة. كان يُلاعبها لعبة السجود والقيام، إذا سجد غمزها فقبضت رجليْها، وإذا قام بسطتهما. وتتكرّر العملية بتكرّر الركعات، وهي قابضةٌ رجليها حيناً باسطةٌ حيناً آخر، فيحلو اللعب لعائشة، ويحلو لها غمز الرسول في صلاته، وتحلو له حركاتها الطفولية تلك. هنا يبدو الرسول مُداعباً مازحاً حتى وهو قائم بين يدي الله يُصلّي، فتأخذ الصلاة منحى غير الذي عرفنا. إنّ الصلاة تُقام هنا في حضرة المرأة التي اعتبرها الفقهاء والمنظّرون للدين عورة تُفسد على الإنسان صلاته وصومه. وهي تُقام والمرأة مضطجعة أمام بعلها، باسطة رجليها قبلته، فتسمع الآيات التي يجهر بها، وتسمع دعاءه الذي يتوجّه به إلى ربّه، وتحفظ عنه ذلك، وقد يدعو لها زوجها خير الدعاء في صلاته فتنقلب سعيدة بالدعاء(٣٣).

كان الرسول، كما روت الأحاديث: «لا يهوله شيء من أمر الدنيا». كان

---

(٣٢) البخاري، **الصحيح**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٣٦٩؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٧٩٢ـ٧٩٦؛ النسائي، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ١٦٦ـ١٦٨؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٦٠٩ـ٩١٣؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣٠٢٤، ٢٣١٢٨، ٢٣٥٦٥، ٢٣٩٩٢، ٢٤٣١١، ٢٤٦٩٧؛ مالك، **الموطّأ**، كتاب النداء للصلاة، حديث رقم ٢٣٨؛ الدرامي، **السنن**، كتاب الصلاة، حديث رقم ١٣٧٧.

(٣٣) «[...] عن عائشة رضي الله عنها قالت: أوّل سورة تعلّمتها من القرآن طه، فكنتُ إذا قلتُ: ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ إلاّ قال ﷺ: لا شقيتِ يا عائشة»، السيوطي، **مسند عائشة**، ص ٩٧.

يُصلّي ويصوم ويُحبّ نساءه. كان يُوازي بين دينه ودنياه، لا يُفْرِطُ في حبّ الدنيا، ولا يُفَرِّطُ في جزاء الآخرة. كان مُعتدلاً مثالاً في الوسطية. وكان يسعى إلى أنْ يكون أصحابه والناس مثله اعتدالاً ووسطية. فكان إذا وعظهم ودعاهم إلى ذكر الله كثيراً لا يغفل عن توصيتهم بمُلاعبة أطفالهم والنساء، وجَعلِ وقتهم قسمة بينه وبينهم: «عَنْ حَنْظَلَةَ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فوَعَظَنَا فَذَكرَ النَّارَ قَالَ ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ وَلاعَبْتُ الْمَرْأَةَ قَالَ فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ فَلَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَافَقَ حَنْظَلَةُ فَقَالَ مَهْ فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فَقَالَ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ»(٣٤).

إنّ هذا الحديث لا يترك مجالاً للشكّ في أنّ دعوة الرسول أصحابه إلى جعل الحياة ساعةً فساعةً، واحدة للجدّ والتقوى والإيمان، وواحدة للحياة الدنيا وملاعبة الأطفال والنساء، فبهم زينة الحياة الدنيا وجمال الوجود. وقد كان الرسول، والعهدة في ذلك على الأحاديث، محبّاً للحياة في ظلّ الفَكَهِ والبساطة واليُسر الكبير.

وقد تفكّه الرسول في أمور أخرى تهمّ الطهارة، فقد روت عائشة قالت: «قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَاوِلِينِي الْخُمْرَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ، قَالَتْ فَقُلْتُ إِنِّي حَائِضٌ فَقَالَ إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ»(٣٥).

---

(٣٤) مسلم، **الصحيح**، كتاب التوبة، حديث رقم ٤٩٣٨؛ الترمذي، **السنن**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، حديث رقم ٢٣٧٦، ٢٤٣٨؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الزهد، حديث رقم ٤٢٢٩؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند الشاميين، حديث رقم ١٦٩٤٩، كتاب مسند الكوفيين، حديث رقم ١٨٨٦٨.

(٣٥) مسلم، **الصحيح**، كتاب الحيض، حديث رقم ٤٥٠؛ الترمذي، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ١٢٤؛ النسائي، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ١٢٤، كتاب الحيض =

يُعَدّ هذا الحديث طريفاً، من ناحية احتوائه على تنكيت الرسول واعتبار عائشة حائضاً بالجزئيّة لا بالكلّية، فاقتصر حيضها على فرجها ولم يشمل سائر بدنها، فحيضها كما قال الرسول ليس في يدها. وفي هذا ترخيص للحائض بإتيان ما شاءت من أفعال حتى وإن كان دخول المسجد وأخذ خُمْرة[٣٦] الصلاة. وفيه من ناحية أخرى ردّ لطيف على تعلاّت عائشة بأنْ لا تذهب إلى إحضار ما طلب الرسول. فقد أجابها في أسلوب مقتضب بسيط لا يترك مجالاً للشكّ في أنّ صاحبه كان عارفاً بتوجيه الأمور وجهتها التي أرادها لها في عالم من البساطة والمداعبة الخفيفة. ولكنّ هذا القول على انتمائه إلى عالم المداعبة لم يخلُ من نظرة سمحة إلى المرأة الحائض التي كانت تعرض لكلّ أشكال الرفض والإبعاد لا لشيء إلاّ لأنّها حائض، فجاء قول الرسول هنا معبّراً عن موقف مخالف، فأبعد عنها النجاسة التي كانت تُتّهم بها. وقد جاءت أحاديث كثيرة في الغرض، فظهر الرسول فيها واضعاً رأسه في حجر بعض أزواجه وهو يتلو القرآن، فتنزل السكينة عليه وعلى زوجه[٣٧].

= والاستحاضة، حديث رقم ٢٧١؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٢٢٨؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الطهارة وسننها، حديث رقم ٦٢٤؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣٠٥٤، ٢٣٥٥٤، ٢٣٦٠٤، ٢٣٦٥٠، ٢٤٦٣٥، ٢٤٢٨٨، ٢٤٨٩٠؛ الدارمي، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٧٦٤، ١٠٤٧، ١٠٥٣.

(٣٦) «الخُمرة حصيرة صغيرة من السعف». الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مادة خمر.

(٣٧) «[. . .] عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَّكِئُ فِي حِجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ»، مسلم، **الصحيح**، كتاب الحيض، حديث رقم ٤٥٤؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب الحيض، حديث رقم ٢٨٨؛ النسائي، **السنن**، كتاب الحيض والاستحاضة، حديث رقم ٣٧٨؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٢٢٧؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الطهارة وسننها، حديث رقم ٦٢٦؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣٢٦١، ٢٣٢٩٨، ٢٣٧١٧، ٢٤٣٩٨، ٢٥٠٢٤.

٤ ـ فَكَهُ الدنيا وفَكَهُ الآخرة

رأينا في ما تقدّم من فصول الرسولَ في الأحاديث التي أثبتناها ضاحكاً مازحاً مع أهل بيته في ساعات الألفة والأنس. وكانت الأخبار التي أضحكته أو أضحك بها هو نفسه على علاقة بالحياة الدنيا والتشريع للفَكَهِ الجميل نظاماً بين الناس للترفيه عليهم وتيسير أمر الدين في حياتهم اليومية. ولكنّ أمر الفَكَهِ لم يقف به عند ذلك الحدّ إذْ نراه ضاحكاً مازحاً وهو على فراش الاحتضار: «[...] عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحداً أَشْبَهَ سَمْتاً وَدَلاًّ وَهَدْياً بِرَسُولِ اللَّهِ فِي قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَتْ: وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَامَ إِلَيْهَا فَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ مِنْ مَجْلِسِهَا فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا. فَلما مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ دَخَلَتْ فَاطِمَةُ فَأَكَبَّتْ عَلَيْهِ فَقَبَّلَتْهُ ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا فَبَكَتْ ثُمَّ أَكَبَّتْ عَلَيْهِ ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ: إِنْ كُنْتُ لأَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ مِنْ أَعْقَلِ نِسَائِنَا فَإِذَا هِيَ مِنَ النِّسَاءِ. فَلما تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ قُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْتِ حِينَ أَكْبَبْتِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَفَعْتِ رَأْسَكِ فَبَكَيْتِ ثُمَّ أَكْبَبْتِ عَلَيْهِ فَرَفَعْتِ رَأْسَكِ فَضَحِكْتِ مَا حَمَلَكِ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَتْ: إِنِّي إِذاً لَبَذِرَةٌ، أَخْبَرَنِي أَنَّهُ مَيِّتٌ مِنْ وَجَعِهِ هَذَا فَبَكَيْتُ ثُمَّ أَخْبَرَنِي أَنِّي أَسْرَعُ أَهْلِهِ لُحُوقاً بِهِ فَذَاكَ حِينَ ضَحِكْتُ»(٣٨).

لما كانت فاطمة بنت الرسول أحب النساء إلى الرسول خصّها بالحبّ والعطف، فكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبّلها وأجلسها في مجلسه. وكانت تعامله بالمثل. وقد خصّها دون سائر أهله، وهو يحتضر، بالسِّرار

---

(٣٨) الترمذي، **السنن**، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٨٠٧؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٥٣؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٨٦؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب ما جاء في الجنائز، حديث رقم ١٦١٠؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣٣٤٣، ٢٤٨٣٩، ٢٥٢٠٩.

فسارّها نبأ موته وشدّة الوجع في مرّة أولى فبكت حزناً عليه، ثمّ سارّها في مرّة ثانية أنّها تكون أسرع أهله لحوقاً به فأضحكها.

كان الرسول على فراش الموت يقول كعادته حقّاً فيُبكي ويُضحك. وإذا كان البكاء هنا طبيعيّاً جدّاً لارتباطه بالموت والفراق، فإنّ الضحك كان فرصة للأمل مكّن منها الرسولُ فاطمةَ ابنتَه التي حزنت لسماعها بفراقه فاطمأنّ بالها ومنّت نفسها بملاقاته من جديد قريباً. جاء الضحكُ هنا كالمزاح يُروّح عن نفسها المتألّمة ويُخفّف من وطأة الموت الشنيع عليها، فأصبح مجالاً للفرح والسرور، ووسيلة لمقاومة قوى الموت[(٣٩)]. هنا يقوم الحديث موازياً للقرآن، ويقوم الرسول فاعلاً فعل الله الذي يُضحك ويُبكي[(٤٠)]. ولكن إذا كان الله قد «وضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت»[(٤١)]، فإنّ البكاء، رغم أنّه جعل بحذاء الموت، سرعان ما يختفي تماماً تاركاً مكانه للضحك ينوبه حتى في حالة الموت. هنا تبرز خاصية مميّزة للرسول وأهله المقرّبين، هي سعيهم الدائم إلى تبسيط الأمور وجعلها من قبيل ما يُضحك ويحمل على الدعابة والطرفة وإنْ في أحرج الحالات وأعسر اللحظات.

إنّنا في هذا الحديث نتعرّف بعمق شخصيّة الرسول الذي كان يُكابد الآلام والأوجاع من جهة ويحرص من جهة أخرى على ألاّ يُحزن ابنته فيسعى إلى إضحاكها، بطريقة ذكيّة تدلّ على نفس عميقة الإحساس بالآخر. لا تريد له ألماً أو حزناً رغم معاناتها في تلك اللحظة من تلك الآلام والأحزان. هنا يبرز الفَكَهُ في أحلك اللحظات وأقساها على الذات البشريّة، فيتحدّى الإنسان الموت، ويتحدّى الآلام، ليخرج منتصراً بضحكة أو بسمة. قد كانت تلك

---

(٣٩) انظر: S. Clapier-Valladon, «l'homme et le rire», in *Histoire des moeurs*, t. 2, p. 252.

(٤٠) ﴿وأنَّهُ هُوَ أضْحَكَ وَأبْكَى﴾، **النجم** ٥٣/ ٤٣.

(٤١) الجاحظ، **البخلاء**، المقدّمة، ص ١٨.

حال الرسول لما اشتدّ به مرضه الذي توفّي فيه، فضحك من خلف الحجاب لصحابته الذين حضروا في مسجده الصلاة، ففرحوا للأمر وافتتنوا وظنّوا أنّه سيؤمّهم في صلاتهم[٤٢]. فإذا الضحك هنا تعبير آخر من تعبيرات الحياة في الوضعيات الدرامية المؤذنة بالموت. فضحك الرسول قبل موته بلحظات يُفصح عن سنّته التي خلّفها فيهم والمتمثّلة في استقبال الموت بالضحك والسرور حتى تخفّ ساعة الموت. كان ضحكه هنا سعياً إلى طمأنة الجماعة وإيذاناً بالرحيل وتوديعاً إلى حين يلقاهم في الحياة الأخرى. كان ضحكه لغة خاصّة تكشف عن سرّ لا يعلمه إلاّ هو والله وقد أذنت الساعة بالرحيل، إذ «إنّ معنى مرجع الضحك في جميع هذا الذي ذكرنا إلى البيان والظهور وإنّ كلّ مَنْ أبدى أمراً كان يستره فإنّه يُقال له ضحك وكذلك يُقال لمن أبرز المكتوم وأظهر المستور»[٤٣].

كان ضحك الرسول في هذه الحال إبانة عن الرضاء بالرحيل وقد خلّف في صحبه تعاليم الدين الجديد الذي بُعث من أجله وأتمّه على أحسن وجه. كان ضحكاً بالفوز برضى الربّ، ورضى الربّ حياة أخرى في جنان الخلد

---

(٤٢) «حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ قَالَ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصارِيُّ وَكَانَ تَبِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَخَدَمَهُ وَصَحِبَهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلاةِ فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَنَكَصَ أَبو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَارِجٌ إِلَى الصَّلاةِ فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَتِمُّوا صَلاتَكُمْ وَأَرْخَى السِّتْرَ فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ»، البخاري، **الصحيح**، كتاب الأذان، حديث رقم ٦٣٩؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٦٣٧؛ كتاب الصيام، حديث رقم ١٩٩٦؛ النسائي، **السنن**، كتاب الجنائز، حديث رقم ١٨٠٨؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب ما جاء في الجنائز، حديث رقم ١٦١٣؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٦٢٩، ١٢٢٠٥، ١٢٥٥٧، ١٢٦٢٠، ١٢٧٢٧.

(٤٣) ابن فورك، **كتاب مشكل الحديث وبيانه**، ص ٤٠.

جزاء ما أتى الإنسان من عمل يستحقّ الجزاء. وقد كانت مثل هذه الحال حاضرة عند شعوب كثيرة اعتقدت بالحياة الأخرى ومسألة البعث بعد الموت. لذلك برزت ظاهرة الضحك ساعات الموت في عدّة حضارات وصاحبتها فيها الاحتفالات والطقوس. كلّ ذلك من أجل التخفيف من حدّة أمر الموت والاستعداد لاستقباله بالأمل في حياة الأخرى(٤٤).

كان الرسول في الأحاديث الكثيرة يدعو أهله وصحبه إلى الضحك وينهى عن البكاء حتى إنّه جعل البكاء من الشيطان. فقد رُوي عنه أنّه قال لمعاذ: «يَا مُعَاذُ إِنَّكَ عَسَى أَنْ لا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا وَلَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي وَقَبْرِي فَبَكَى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ جَزَعاً لِفِرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لا تَبْكِ يَا مُعَاذُ إِنَّ الْبُكَاءَ مِنَ الشَّيْطَانِ»(٤٥).

وكان الرسول حريصاً على الضحك ومسرّات النفس، يحبّ المُضحك الذي كان يُضحكه ويرفّه عنه بعد ساعات الجدّ: «[. . .] عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلاً عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَاراً وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ فَأُتِيَ بِهِ يَوْماً فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لاَ تَلْعَنُوهُ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»(٤٦).

إنّ اللافت للانتباه في هذا المضحك لقبه حمار. فإلى جانب طبعه المازح كان يُلقّب حماراً، وربّما كانت خلقته تتظافر مع لقبه ومزاجه وطبعه المازح فتجعل من حمار رجلاً فَيْكهانَ(*) بامتياز، سواء أضحك بحمقه وغبائه

---

(٤٤) انظر توسيعاً لهذه المسألة:
S. Clapier-Valladon,. «l'homme et le rire», in *Histoire des moeurs,* t. 2, pp. 253-255.

(٤٥) أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند الأنصار، حديث رقم ٢١٠٤٢.

(٤٦) البخاري، **الصحيح**، كتاب الحدود، حديث رقم ٦٢٨٢.

(*) فيكهان: هو الطّيّب النّفس المزّاح. انظر **لسان العرب**، ج١١، ص ٢١٣، مادة فكه.

أو بفطنته وذكائه. وكان حمارٌ مُضحكَ الرسول، قد حاز حبّه وعطفه، فدافع عنه، وردّ عنه بعض الصحابة لما أراد لعنه. كان فَكَهُ الرجل وإضحاكه الناس شافعاً له وسبباً في تخفيف العقاب عنه وسبيلاً إلى الفوز بحبّ الرسول ومن ثّمة حبّ الربّ. ألم يقل الرسول في مثل هذا الأمر: «مَنْ أدخلَ على أهلِ بيتٍ من المسلمين سروراً لم يرضَ اللّه له ثواباً دون الجنّة»(٤٧)؟

---

(٤٧) الحافظ زكي الدين بن عبد القوي المنذري، **كتاب الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، ص ٣٩٤، باب الترغيب في قضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم، حديث رقم ٢١.

الفصل الخامس

الفَكهُ اللَّعِبُ

رأينا الرسول في الفصل السابق يلاعب زوجته عائشة، ويمازح نساءه من غير عائشة، ويُداعب بجميل الكلام وخفيف العبارة ابنته فاطمة التي كانت لها عنده مكانة خاصّة، ولكنّ الرسول لم يتصرّف ذلك التصرّف مع هؤلاء من أهله المقرّبين فقط، بل كان يُلاعب الأطفال عموماً ويجاري البدو والأعراب ويمازح العجائز. ولنا في ما يلي من الأحاديث أمثلة معبّرة عن ذلك تعبيراً صريحاً.

١ ـ في اللعب مع الأطفال

لقد حظي الحسن والحسين في الحديث النبويّ بمكانة رفيعة وحضور متميّز. وكان الرسول يلاعبهما مثلما كان يُلاعب عائشة زوجته المفضّلة. فعرفا عنده مثلها الرعاية الدائمة وتمتّعا مثلها بالتعليم السمح في ظلّ اللعب والفَكَهِ. وقد جاء في الحديث: «[...] عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعِشَاءَ فَإِذَا سَجَدَ وَثَبَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَى ظَهْرِهِ فَإِذَا رَفَعَ رَأسَهُ أَخَذَهُمَا بِيَدِهِ مِنْ خَلْفِهِ أخْذاً رَفِيقاً وَيَضَعُهُمَا عَلَى الأَرْضِ فَإِذَا عَادَ عَادَا حَتَّى إِذَا قَضَى صَلاتَهُ أَقْعَدَهُما عَلَى فَخِذَيْهِ قَالَ فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرُدُّهُمَا فَبَرَقَتْ بَرْقَةٌ فَقَالَ لَهُمَا الْحَقَا بِأُمِّكُمَا قَالَ فَمَكَثَ ضَوْؤُها حَتَّى دَخَلا»[١].

(١) أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٠٢٤٦.

لا غرابة في أنْ يُلاعب الرسول الحسن والحسين إذ لا غرابة في أنْ يُلاعب جدٌّ حفيديْه. فهذا أمر طبيعيّ لا يجلب انتباهاً ولا يُكرّس علاقة من العلاقات البدعة. الغرابة في أنْ يقوم اللعب ساعة الصلاة. ففي حالة التعبّد القصوى التي هي الصلاة، وفي المسجد، فضاء القداسة عن جدارة، اختلطت العبادات باللعب. اختلط الدين بالدنيا ودخل الأطفال عالم الطُّهر.

كان الحسن والحسين يثبان على ظهر الرسول وهو ساجد فيلتصقان به ويتشبّثان به فيسجد بهما ثمّ يرفعهما في قيامه آخذاً بهما أخذاً لطيفاً ويضعهما على الأرض. كان في سجود وركوع وتكبير وقراءة قرآن عظيم. وكان يُمسك بهذا الحفيد ويُمسك بذاك الحفيد، يرفعهما تارة ويضعهما أخرى. كان سعيداً بدينه، سعيداً بدنياه. كان متسامحاً تسامحاً لا مثيل له. كان لا يخاف نجاسة تنقض الوضوء وتُبطل الصلاة(٢).

هنا يبرز الحسن والحسين، ومن ورائهما كلّ الأطفال، صورة لملائكة الرحمان ترفرف بأجنحتها على رأس الرسول الذي تزيده صلاته قرباً من الربّ. وليس هذا من باب المبالغة، فالحديث ـ كما دلت على ذلك نهايته ـ يُدخلنا بكلّ بساطة في العالم المقدّس إذ جعل بَرقةً بَرقتْ فالتحق الولدان بأمّهما محفوفين بضوئها العجيب.

في هذا الإطار العجيب ينحت النصُّ للطفلين صورة مقدّسة ترتقي بهما إلى مصافّ الأنبياء وأصحاب الكرامات والمعجزات. ولا يخفى على المتأمّل

---

(٢) «[. . .] عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصَبِيٍّ فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ فَدَعَا بِمَاءٍ فَأَتْبَعَهُ إِيَّاهُ»، البخاري، **الصحيح**، كتاب الوضوء، حديث رقم ٢١٥؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٤٣٠، ٤٣١؛ النسائي، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٣٠١؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣٠٦٢، ٢٣١٢٢، ٢٤٥٨٦؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٤٤٤٢؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الطهارة وسننها، حديث رقم ٥١٦؛ مالك، **الموطّأ**، كتاب الطهارة، حديث رقم ١٢٧.

في النصّ ما احتواه من صور نحتها المخيال الشيعي ليرتفع بالحسن والحسين إلى مصافّ الأئمّة الذين يوازون في المقام الأنبياء ويختصّون بالمعجزات الكبار[٣].

إنّ الفَكَهَ هنا ينشأ من ازدواج المقدّس بالدنيوي. فالصلاة التي هي من باب العبادات وطقس من الطقوس المقدّسة قوامه الجدّ بعيداً عن كلّ أشكال الهزل، تمتزج هنا بلعب الأطفال فيخفّ حملها على القائم بها، ويدخل السرور والبهجة على أفئدة المصلّين، ويعمّ الفضاءَ مشهدُ التعايش السلمي للجدّ والهزل.

إنّ ما قام به الرسول من فعل إذ سمح للطفلَيْن باللعب على ظهره جُعل للتخفيف من وطأة الدين فتستحيل التعاليم الصلبة سمحة بسيطة، وينتصب الطفلان مَلَكيْن يحرسان الرسول ويحميان ظهره يميناً وشمالاً. وتُثير هذه الصورة عاطفة المؤمنين، وتُحبِّب إليهم الصلاة حين يمتطي أبناؤهم ظهورهم للعب، ويعطفون على من عطف عليهم الرسول فيقبّلونهم حيث قبّلهم[٤]، ويلاعبون أطفالهم ويقبّلونهم تماماً كما كان يفعل الرسول[٥].

---

(٣) الطبرسي، **الاحتجاج**، ج٢، ص ص ٥٠٦-٥٠٩.

(٤) «[...] حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِساً فَقَالَ الْأَقْرَعُ إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَداً فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»، أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٥٥٣٨.

(٥) «[...] عن أبي هريرة قال: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ جَالِساً فَقَال الأَقْرَعُ إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَداً فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»، البخاري، **الصحيح**، كتاب الأدب، حديث رقم ٥٥٣٨؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الفضائل، حديث رقم ٤٢٨٢؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٠٢٥٧؛ الترمذي، **السنن**، كتاب البرّ والصلة، حديث رقم ١٨٣٤؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٤٥٤١.

وكان الرسول يأخذ حفيديْه على ركبتيه يعلّمهما القرآن ومكارم الأخلاق أمام الملأ، فيتعلّم الناس من رسولهم كيفيّة تنشئة الأولاد وملاعبتهم وملاطفتهم وتحفيظهم نصيباً من القرآن وتعويدهم ارتياد بيوت الرحمان. فإذا الفَكَهُ منهجٌ في التربية والتعليم يُرغّب به الرسول الإنسان المؤمن والطفل الصغير في دين الإسلام عن طريق اللعب تارة، وعن طريق المحادثة تارة أخرى، وعن طريق الصلاة طوراً آخر. ولا يقتصر هذا الفعل الصادر عن الرسول على حفيديْه المدلّليْن الحسن والحسين. بل إنّه يتجاوزهما إلى حفيدته أمامة التي كانت هي أيضاً تلعب على ظهره في صلاته، فيستوي عند الرسول من الأطفال الذكر والأنثى، لا ينجّسانه ولا يفسدان عليه صلاة ولا جلوساً في مسجد. فقد جاء في الحديث: «[...] عَنْ أبي قَتَادَةَ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أَمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [...] فَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا وَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا»(٦).

كان الأطفال يلعبون على ظهر الرسول ذكوراً وإناثاً لا يُفرّق بينهم. وكانوا ينتشون بالقيام والقعود أثناء السجود والركوع حتى ليُخيّل إليهم أنّ الرسول لا يركع أو يسجد إلاّ ليمتطوا ظهره. وكان لا يملّهم ولا يملّونه بل يقبلون عليه عن طواعية وحبّ، يجدون عنده الأمن، والطفل لا يأمن إلاّ مَن أحسّ تجاهه بالانجذاب الطبيعي. وقد وفّر الرسول ما كانت تصبو إليه نفوس الأطفال البريئة، لا فرق في ذلك عنده بين ذكر وأنثى. وإنّنا لنلاحظ في هذا العمل تغيّر الحالة بين الجاهلية والإسلام. لقد كانت الطفلة في الجاهلية

---

(٦) مسلم، **الصحيح**، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٨٤٤ـ٨٤٦؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٤٨٦؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢١٤٨١، ٢١٤٩٣؛ النسائي، **السنن**، كتاب السهو، حديث رقم ١١٨٩، ١١٩٠؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٧٨٢-٧٨٥؛ مالك، **الموطّأ**، كتاب النداء للصلاة، حديث رقم ٣٧٢.

ـ مثلما ذكرت أخبار العرب[٧] ـ تُوأَدُ بسبب الفقر أو الإملاق أو الكُره. أمّا في الإسلام فإنّها أصبحت تنعم بالحياة واللعب والزوج والذرّية، فتمتلئ الحياة حبوراً وسروراً، ويبرز الإسلام حامياً للأنثى، مبجّلاً إياها ومكرّماً، فتستطيع بفضله «موؤودة القربان»[٨] أنْ تتجاوز موتها وقد خصّها كالذكر بالحقّ في الحياة.

وإذا اختلط جدّ الصلاة بلعب الأطفال اتّخذت مقولة «علّموا الأطفال وهم يلعبون» بُعدها التربوي الذي وُضعت له. فالتربية في هذا الإطار تُصبح ذات أهمية في نحت شخصية الطفل وتكوينه النفسي والمعرفي[٩]. فالرسول كان يُلاعب الأطفال ولكنّه كان في الوقت نفسه يُعلّمهم ما شاء أنْ يُعلِّم من أمور الدنيا والدين. ولم يخصّ بهذا الأمر أحفاده وحدهم وذوي القربى، بل لاعب غيرهم، من ذلك ما كان من أمره مع خادمه الصغير أنس بن مالك الذي حدّث قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقاً فَأَرْسَلَنِي يَوْماً لِحَاجَةٍ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لا أَذْهَبُ وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لما أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي قَالَ فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ فَقَالَ يَا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَنَسٌ وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ هَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا»[١٠].

---

(٧) انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص ٤٧٨.

(٨) انظر: وحيد السعفي، **القربان في الجاهلية والإسلام**، ص ٢٣.

(٩) عن أهمية اللعب في حياة الطفل وضرورة الجمع بينه وبين التعليم، انظر مثلاً:
N. Feuerhahn, *Le comique et l'enfance;* N. Feuerhahn, «l'impensé du risible et les contraintes culturelles de l'humour chez Freud», in *Freud et le rire,* pp. 185-187.

(١٠) مسلم، **الصحيح**، كتاب الفضائل، حديث رقم ٤٢٧٢؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب =

إنّ هذا الحديث يؤكّد لنا إيمان الرسول بضرورة اللعب لدى الأطفال، فها هو يبعث أنساً لحاجة فيستبطئه، فلما خرج وجده لاهياً مع صبية يلعبون، فلا غضب ولا ثار ولا حنق لعدم قيام خادمه بالخدمة التي أمره بالقيام بها، بل قبض عليه من قفاه ضاحكاً، تماماً كما يفعل اللاهي مع من يلهو معه، يقبض عليه من هناك مازحاً ليس غيرُ. إنّ الرسول يبدو هنا مازحاً فَكِهاً، في أخذه بقفا أنس وفي مناداته باسمه تصغيراً. فهو إذ سمّاه أُنَيساً عبّر عن كلّ ما في التصغير من عطف ومحبّة ومحاباة وروح فَكِهَةٍ. ويبرز من الحديث اليُسر في المعاملة التي كان من بعدُ أنس يذكرها بفخر معبّراً عمّا امتاز به الرسول في هذا المجال من تسامح وطيبة نفس وحبّ لخدّامه. كان يقول: «وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ هَلاّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا».

كان الرسول يُسيّر شؤونه وشؤون المسلمين في ظلّ هذه الطريقة الفَكِهَةِ في الحديث وهذا اليُسر في المعاملة بعيداً عن القَسْر والإرغام على الشيء، وكأنّ الأمر عنده لا يعدو أنْ يكون دُعابة ولعباً ومزحاً. وهي أمور اشتهر بها من بين الناس فتسابق إليه الصغار يجدون عنده الأمن ويجد فيهم البراءة التي كانت تُماشي الدين السمح الذي كان ينشره. فقد جاء في الحديث: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُفُّ عَبْدَ اللَّهِ وَعُبَيْدَ اللَّهِ وَكَثِيراً مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ثُمَّ يَقُولُ مَنْ سَبَقَ إِلَيَّ كَذَا وَكَذَا قَالَ فَيَسْتَبِقُونَ إِلَيْهِ فَيَقَعُونَ عَلَى ظَهْرِهِ وَصَدْرِهِ فَيُقَبِّلُهُمْ وَيَلْزَمُهُمْ»(١١).

= الأدب، حديث رقم ٥٦٦٤؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٦٩٤، ١١٧٥٤؛ الترمذي، **السنن**، كتاب البر والصلة، حديث رقم ١٩١٢؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٤٣١٨؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٣٧١٠.

(١١) أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند بني هاشم، حديث رقم ١٧٣٩.

هنا يبرز الرسول أباً لجميع الصبيان. تراه يلعب مع صبيان بني العبّاس، يصفّهم ويضع لهم مكافأة للفوز بالسباق. ويجري الأطفال نحو الرسول، بعضهم يسقط، وبعضهم يتعثّر، وبعضهم يهرول. كلّهم يقصدون الرسول وقد تحوّل كعبة الأطفال، يحجّون إليه لنيل رضاه وتلبية ندائه، فيقعون على صدره وقوع الفراش على الضوء[١٢]، فيكون جزاؤهم التقبيل والعناق والملازمة الطيّبة. ما أروع هذا المشهد الذي نسمع فيه صياح الأطفال يفوزون برضى الرسول، ونسمع هتافهم واحتجاجهم على مَنْ فاز بوابل من القُبل تميّز به عن الأقران.

في هذا الإطار الفَكِهِ يشعر المسلم بأنّ الرسول يزداد قرباً منه ومن عامة المؤمنين وحتى من غير المؤمنين. ويغتنم النصّ هذا المشهد الذي أعجبنا فيه بشخصية الرسول وشعرنا يقربها منّا ليمرّر خطاباً أيديولوجيّاً، ويمرّر عبره أموراً عديدة في مجاليْ السياسة والاجتماع، توجّه الحديث توجيهاً معيّناً. فالحديث إذ جعل الرسول يلاعب أطفال بني العبّاس يُشعرنا أنّ لبني العبّاس حظوة خاصّة عند الرسول فيكتسبون بذلك شرعية كبيرة. وهذا من شأنه أن يُبيّن لنا أنّ الفَكَه ليس عفوياً أو بريئاً، بل توجّهه أيدٍ خفيّةٌ فيصبح تغنّياً ببني العبّاس وإنْ في شيء من التستّر والتخفّي.

فإذا ما تجاوزنا هذه الإشارات ذات العلاقة بالسياسة والاجتماع، وجدنا الرسول في الحديث بشراً يمتاز بالبساطة والتواضع والطيبة وينشر الفرح والسرور بين الناس. وقد كرّست هذا الأمر أحاديث كثيرة، فجعلت الرسول لا يرى غلاماً باكياً إلاّ واساه[١٣]، ولا يمرّ على صبية إلاّ بثّهم التحيّة ولاعبهم

(١٢) القزويني، **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، ص ٤٠٢.

(١٣) «[. . .] عَنْ أَنَسٍ أَنَّ ابْناً لِأُمِّ سُلَيْمٍ صَغِيراً كَانَ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ وَكَانَ لَهُ نُغَيْرٌ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ ضَاحَكَهُ فَرَآهُ حَزِيناً فَقَالَ مَا بَالُ أَبي عُمَيْرٍ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاتَ نُغَيْرُهُ قَالَ فَجَعَلَ يَقُولُ يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ»، أحمد بن =

ومازحهم[١٤]. وقد كان متواضعاً طيّباً مزّاحاً مع الكبار أيضاً. وكان، بشهادة علماء الإسلام، «من أفْكَهِ الناس»[١٥]، كثير المزاح، لا يُرى إلاّ مبتسماً أو ضاحكاً.

٢ ـ في دُعابة البدو والأعراب

لم يكن فَكَهُ الرسول خاصّاً بالأطفال أو الأهل وحدهم بل تجاوزهم ليشمل الرجال من أصحاب وبدو وأعراب. حدّث مالك قال: «إنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِراً كَانَ يُهْدِي لِلنَّبِيِّ ﷺ الْهَدِيَّةَ مِنَ الْبَادِيَةِ فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ زَاهِراً بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ وَكَانَ رَجُلاً دَمِيماً فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْماً وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ لاَ يُبْصِرُهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَرْسِلْنِي، مَنْ هَذَا؟

= حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٢٦٠٤؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٣٦٧؛ الترمذي، **السنن**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٢١٧، ٣٠٥؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة، حديث رقم ٥٠٤، ٥١٧؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، حديث رقم ٩٦٥؛ النسائي، **السنن**، كتاب المساجد، حديث رقم ٧٢٩؛ مالك، **الموطأ**، كتاب النداء للصلاة، حديث رقم ٣٢٦.

(١٤) «[...] عَنْ أَنَسٍ قَالَ مَرَّ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَلْعَبُ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا صِبْيَانُ»، أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٢٤٢٩؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب السلام، حديث رقم ٤٠٣١، ٤٠٣٢؛ كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥٣٣؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب الاستئذان، حديث رقم ٥٧٧٨، ٥٨١٥؛ الترمذي، **السنن**، كتاب الاستئذان والآداب، حديث رقم ٢٦٢٠؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٤٥٢٦؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٣٦٩٠؛ الدارمي، **السنن**، كتاب الاستئذان، حديث رقم ٢٥٢٢.

(١٥) انظر مثلاً: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٦، ص ٥٢؛ البيهقي، **دلائل النبوة**، ج١، ص ٣٣١.

فَالْتَفَتَ فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ فَجَعَلَ لا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ يَشْتَرِي هذا الْعَبْدَ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذاً وَاللَّهِ تَجِدُنِي كَاسِداً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ أَوْ قَالَ: لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَ غَالٍ»(١٦).

تتظافر في هذا الحديث أنواع متعدّدة من الفَكَهِ، جُسّدت بأساليب مختلفة فأدّت وظائف متباينة، نتناولها بالتحليل في ما بعدُ. أمّا الآن فنقف عند الإطار العام للحديث. تدور الأحداث هنا في السوق، والسوق فضاء عامّ، ما يجري فيه ويحدث يتمّ أمام الملأ، على كلّ مرأى ومسمع. كان الرسول يُداعب بدويّاً دميم الخلقة، خفيف الروح، فتغلب خفّة روحه دمامة خلقته، ويحتلّ مكانة مرموقة عند الرسول. كان يُحبّه ويُداعبه ويمازحه والناس يُشاهدون ويسمعون. وقد خضعت الدعابة هنا لثلاثة أنماط كبرى هي:

أ ـ **الدعابة بالحركة**: إنّ من أسباب إدخال السرور على نفس المؤمن قربه من الرسول وفوزه بمحبّته. وقد فاز زاهرٌ في هذا الحديث بذلك الأمر، فقرّبه الرسول منه، وقبل منه الهديّة التي كان يحملها إليه عند حلوله، وجهّزه كلما أراد الخروجَ من المدينة والعَوْدَ إلى البادية. ونشعر بزاهر الدميم يُصبح مثالاً للمسلمين، إذ أحبّه الرسول، واحتضنه احتضاناً شديداً ولاصقه بالبدن لصاقاً كبيراً. وقد أضفى هذا الأمر على المشهد جمالاً خاصّاً، وكأنّ دميم الخلقة تحوّل باحتضان الرسول له جميلاً، فينال إعجاب الناس، ويحبّونه، وقد يُقبلون على بضاعته فيبتاعونها.

إنّ القبحَ في هذا الحديث يتحوّل جمالاً، ويغلب فيه الباطنُ الظاهرَ، ويطغى جمال النفس الخالدة على جمال الجسد الفاني، فيؤمن الإنسان بقيمة نفسه، ويتجاوز عُقده الخِلْقية، مهما كانت درجة بشاعتها، ويتخلّص منها عن

(١٦) أحمد بن حنبل، المسند، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٢١٨٦.

طريق العمل الصالح ومحبّة الناس، فيفوز بالدنيا ويفوز بالآخرة.

في هذا المشهد الذي تمّ فيه الاحتضان والتصاق جسد البدوي بجسد الرسول، تنتفي الفروق. فلا شيء يبرز للعيان غير التبرّك بالصدر الذي امتلأ بالوحي وامتلأ بالقرآن. لا شيء غير حركة حميميّة تتمّ فيها لحظة المكاشفة فيتمّ العناق الطويل، عناق المحبّة والمودّة يُعبّر به البدوي بكلّ بساطة وعفوية وطبيعة متجذّرة في أرضه البدويّة عن اعتزازه بالرسول وإكباره له وقد اكتشف أنّه وراءه يحضنه.

ب ـ **دعابة القول**: تتواصل مداعبة الرسول لزاهر بعد الاحتضان، فيزداد المشهد فَكَهاً. شدّ على زاهر وقال: «من يشتري هذا العبد؟». وردّ زاهر الدعابة بالدعابة، قال: «إذاً وَاللَّهِ تَجِدُنِي كَاسِداً». وتشعر بدعابة زاهر فيها شيء من المرارة. كان بدويّاً يشعر بتفاهة أمره. كان يعرف أنّ مثله لا يكون إلاّ بضاعة كاسدة. ولكنّ الرسول فاجأه وفاجأ الحاضرين بأنْ كرّمه وشرّفه وبشّره بمرتبة عالية عند اللّه.

في هذا الجوّ الفَكِهِ اغتنم الرسول الفرصة ليمرّر خطاباً على غاية من الجدّية. في قالب هزل جاء الجدّ واضحاً جليّاً. جاءت الكلمة نافذة. كان خطابُ الرسول الفَكِهُ سبيلاً إلى تبليغ رسالة هامّة: إنّ هذا البدويّ البسيط لذو حظوة عند اللّه ورسوله. إنّ هذا البدويّ البسيط لبضاعة غالية. وكان هذا الخطاب ينشره الرسول على الملأ في السوق بمثابة التنبيه إلى أنّ ما صدر عن الرسول في بداية الحديث من أمور الهزل لا يعدو أنْ يكون دعابة لطيفة، لا سخرية فيها لإضحاك الناس على بدويّ تعوّدوا في أسواقهم الضحك منه.

ج ـ **دعابة الموقف**: كان الرسول في هذا الحديث صانع الفَكَهِ. فقد اختلق الموقف ليداعب واحداً من أهل البادية المحبّبين إليه، فبدا الموقف مثيراً للضحك إجمالاً، لا ضحك الرسول والبدوي وحدهما، بل ضحك الجميع ممّن كانوا في السوق، فيعمّ بذلك الفَكَهُ فضاء السوق وقد حمقت،

فيتجمّع الخلق، ويكثر البيع والشراء، ويتناقل الناس الخبر: احتضن الرسول زاهراً البدويّ، وقال فيه كذا وكذا. ويتمنّى بعضهم أنْ يكون زاهراً.

إنّ الفَكَهَ هنا يقوم حافزاً لتأجيج العواطف البشريّة[١٧]، فيؤدّي وظيفة اجتماعية[١٨]. وقد تميّزت في كلّ ثقافة جماعات بشرية عن غيرها، فنُعتت بالغباء أو الحمق أو حتى شدّة الذكاء[١٩]. فصدرت عنها أقوال عجيبة وأفعال غريبة، أو نُسبَ إليها كلّ ذلك لغاية من غايات القصّ، فكان ذلك مصدراً لإثارة الضحك والتندّر. ويُمكن أنْ نعتبر الأعراب وما يروى عنهم في هذا الباب شيئاً من هذا القبيل. فنحن نجدهم في الأخبار العربية يتميّزون بالجهل بقواعد الدين والعلوم على اختلافها، فيُشكّلون مجموعة بشرية جُعلت للتفكّه والتندّر. ولم يُخالف الحديث هذه القاعدة، فجاء بعضه في هذا الغرض. من ذلك هذا الحديث: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ ثُمَّ عَقَلَهَا ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلما سَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَى رَاحِلَتَهُ فَأَطْلَقَهَا ثُمَّ رَكِبَ ثُمَّ نَادَى اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّداً وَلاَ تُشْرِكْ فِي رَحْمَتِنَا أَحَداً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى مَا قَالَ؟ قَالُوا بَلَى»[٢٠].

كلّ شيء في هذا الحديث يسير سيراً طبيعيّاً: أعرابيّ قصد المسجد وأناخ راحلته وعقلها، ثمّ دخل المسجد مصلّياً وراء الرسول. صلّى الرسول بالناس وسلّم فقام الأعرابيّ إلى راحلته وأطلقها ثمّ ركبها عائداً من حيث جاء. لا شيء يُثير الانتباه حتى الآن. ثمّ تنقلب الأمور فيختلّ سير الأحداث

---

(١٧) N. Feuerhahn, «La mécanique psychosociale du rire chez Bergson», in *Humoresques*, n° 7, p. 25.

(١٨) H. Bergson, *Le rire*, p. 6.

(١٩) انظر: ابن الجوزي، **أخبار الحمقى والمغفّلين**؛ ابن الجوزي، **كتاب الأذكياء**.

(٢٠) أبو داود، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٤٢٤١.

الطبيعي لمّا تكلّم الأعرابي وفاه بالدعاء راجياً: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّداً وَلاَ تُشْرِكْ فِي رَحْمَتِنَا أحَداً». فتعجّب الرسول من قول الأعرابيّ وساءل القوم: «أتَقُولُونَ هُوَ أضَلُّ أمْ بَعِيرُهُ».

كان قولُ الأعرابيّ سبيلاً إلى الفَكَهِ. عقَل بعيره ولكنّه لم يعقِلْ[٢١]. أخطأ حيث كان يظنّ أنّه أفلح. كان دعاؤه المتمثّل في طلب الرحمة له وللرسول وحدهما مثاراً للضحك. أوَ يُعقلُ أنْ يطلبَ المسلمُ الانفرادَ والرسول بالغفران، وهو الذي كان يُعلِّم الإخاءَ والمحبّةَ في ظلّ الأمة التي كان يجب أنْ تكون كالبنيان المرصوص؟ تلك هي سليقة الأعرابيّ. يقول الكلام على عواهنه، لا يُبالي بإحساس الناس وبما يُخالف تعاليم الدين.

وقد تولّدت عن هذا الموقف سخريةٌ لا إيلام فيها ولا ضرر عبّر عنها الرسول بلطف متسائلاً عن الأعرابيّ وبعيره أيّهما أضلّ. وفي هذا التساؤل ما يُنبئُ بأنّ الأعرابيّ كان أضلَّ من البعير. فالرسول إذ قال ذلك أعاده إلى المرتبة التي كان ينبغي أنْ يتبوّأها، فساواه في ضلالته بالبعير بل جعله أكثر منه ضلالةً. ورغم ما في قول الرسول من سخرية، فإنّها لا تكاد تتجاوز التعبير عن شخصية الأعرابي المرتبطة كثيراً بأرضها، القريبة من عالم الطبيعة الذي لا يعرف ما يفرض عالم الثقافة من تعقّل في الأمور وإجرائها إجراءً يناسب الأهواء والأعراف والتعليم الجديد. فالأعرابي ضَيّقَ من رحمة الله حتى كاد يقصرها على نفسه، بينما رحمة الله رحمة للعالمين قادرة على احتواء الناس أجمعين، وقد عبّر الرسول عنها لما خاطب الأعرابيّ تعبيراً فصيحاً فقال: «لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعاً يَرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ»[٢٢].

---

(٢١) «رجلٌ عاقلٌ هو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عَقَلْتَ البعير إذا جمعتَ قوائمه، وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها»، ابن منظور، **لسان العرب**، مادة عقل.

(٢٢) جاء في الحديث: «أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَلاةٍ وَقُمْنَا مَعَهُ فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ فِي الصَّلاةِ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّداً وَلاَ تَرْحَمْ مَعَنَا أحداً فَلما سَلَّمَ النَّبيُّ ﷺ قَالَ

ورغم ما في هذه الخاتمة من دعوة إلى تمثّل رحمة الربّ تمثّلاً واسعاً والشعور بعظمته، فإنّ الحديث لا يخلو من فَكَهٍ نجده في قول الأعرابيّ الذي لا يخلو من سذاجة وبساطة، ونجده في قول الرسول الذي قارن بين جنسيْن ـ هما الإنس والحيوان ـ لا مقارنة بينهما في العادة، ونجده كذلك في موقف المستمعين الذي قام على الضحك والسخرية وإنْ لم ينطق بذلك النصُّ صراحةً.

وقد كان للرسول مع الأعراب قصص تُروى وأخبار تُساقُ، حتى إنّنا لنجزم بأنّه كان خبيراً بأحوالهم، عارفاً بطبائعهم، مُدركاً لخفايا أنفسهم. ولكنّ تلك القصص والأخبار على كثرتها تدلّ على حبّ الرسول لمداعبتهم وممازحتهم وملاطفتهم بعيداً عن كلّ تعنيف أو تقذيع حتى عندما يتطاول عليه بعضهم. ولنا في الحديث التالي خير مثال على هذا الأمر: «[. . .] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ ثُمَّ قَالَ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»(٢٣).

يضحك الرسول في هذا الحديث فيما كان الموقف يستوجب أنْ

لِلأَعْرَابِيِّ: لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعاً يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ»، البخاري، **الصحيح**، كتاب الأدب، حديث رقم ٥٥٥١؛ الترمذي، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ١٣٧؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الطهارة وسننها، حديث رقم ٥٢٢؛ النسائي، **السنن**، كتاب السهو، حديث رقم ١٢٠١، ١٢٠٢؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٦٩٥٧، ٧٤٦٧، ١٠١٢٩.

(٢٣) البخاري، **الصحيح**، كتاب فرض الخمس، حديث رقم ٢٩١٦؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الزكاة، حديث رقم ١٧٤٩؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب اللباس، حديث رقم ٣٥٤٣؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٢٠٩٠، ١٢٧١٧، ١٢٨٦٠.

يغضب. لقد جذبه الأعرابيّ جذبة شديدة أثّرت في عاتقه ومع ذلك لم يثر ولم يردّ الفعل بالفعل. عرف منذ الوهلة الأولى أنّ ذلك كان نتيجة طبيعة البدويّ، وعرف أنّ جذبته كانت مفاجئة، عفوية، صادقة، فضحك لها ولجرأة صاحبها على التعامل بتلك الطريقة مع رسول لا يجد سوى التبجيل والإجلال من قِبل المسلمين. ولم يقف أمر الرسول مع الأعرابيّ عند الضحك، بل تجاوز ذلك، فغمره بعطفه وجازاه في حين كان يجب أنْ يُعاقبه. فبدا الفرق شاسعاً بين شخصيتيْن لا جامع بينهما في الأصل، يلتقيان ليجمع بينهما الودّ الكبير. كان الأعرابيّ في ظاهر الأمر مثالاً للقلق والتعجرف. وكان الرسول مثالاً للتسامح والحلم ومعالجة الأمور معالجة ودّية، في إطار فَكِهٍ، نفهم من خلاله ما كان يُحيط به الرسول من علم بمختلف فئات المجتمع الذي كان يعمل على إخضاعه للإسلام.

في هذا الإطار الفَكِهِ سعى النصّ إلى تقديم نفسية الأعرابيّ وفق ما اشتهر عن الأعراب من تصرّف لا يخضع لنظام الثقافة بل ظلّ مرتبطاً بالطبيعة الأولى والسليقة البدوية التي كثيراً ما تجعل من تصرّفاتهم فضاءً للنكتة والمداعبة وحتى الهزل والسخرية. ونشعر من خلال النصّ بأنّ فَكَهَ الرسول كان بعيداً عن السخرية والهزل الجارح، فاقترن ضحكه بتلبية رغبة الأعرابيّ في الفوز ببعض مال من بيت مال المسلمين.

وكان الرسول حسب الأحاديث الكثيرة يُجالس الأعراب ويُمازحهم ويثيرهم أحياناً بالنكت التي كان يقولها فيهم. ولكنّ ذلك كلّه كان يتمّ دائماً في قالب بريء، لا ينمّ عن كره أو سخرية أو ازدراء. وكان الرسول يغتنم هذه الفرص التي تجمعه بهم فيعلّمهم ويصحّح أخطاءهم ويبثّهم مكارم الأخلاق وفق تعاليم الدين الجديد. وكان إلى ذلك لا يترك أصحابه يسخرون منهم سخرية لاذعة أو يهزأون منهم لبساطتهم وطبيعتهم التي لا تتماشى وما تعوّده الناس في مكّة أو المدينة.

ولم تقصر الأحاديثُ الفَكَهَ على الأعراب وحدهم، بل جعلت الرسول يُفاكه أهل المدينة من الأنصار أيضاً. وقد وردت في الغرض أحاديث منها هذا الحديث: «عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَكَانَ فِيهِ مِزَاحٌ بَيْنا يُضْحِكُهُمْ فَطَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي خَاصِرَتِهِ بِعُودٍ، فَقَالَ: اصْبُرْنِي، فَقَالَ: اصْطَبِرْ، قَالَ: إنَّ عَلَيْكَ قَمِيصاً وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَمِيصِهِ فَاحْتَضَنَهُ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ، قَالَ: إنَّمَا أَرَدْتُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ»(٢٤).

يبدو أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ في الحديث رجلاً مزّاحاً، طيّبَ النفس، ضحوكاً، يُحدّث الناس فيُضحكهم(٢٥). ويبدو الرسول في الحديث محبّاً للفَكَهِ، يسعى إلى القوم بنفسه فيُمازحهم ويُمازحونه، ويُلاعبهم ويُلاعبونه، ويُداعبهم ويُداعبونه(٢٦). وهو ما فعله في هذا الحديث الذي نحن بصدد تحليله. فبينما كان رجلٌ من الأنصار يُفاكهُ القومَ ويُمازحهم تدخّل الرسول في المشهد مُفاكهاً مُمازحاً. فازداد المشهد جمالاً. فها هو الرسول ذو الوقار والجلال يطعن بعود خصر رجل من الأنصار. وإذا بالرجل يطلب الثأر. كان خصر الرجل عارياً من القميص. وكان خصر الرسول يغطيه القميص. فاشترط الرجل أنْ يخلع الرسول قميصه الذي يُغطي خصره، حتى تعادل الطعنة الطعنة، ويعمّ العدل عالم الفَكَهِ الجميل. استجاب الرسول لمطلب المظلوم فعرّى خصره واستعدّ للطعنة. ويستعدّ مشاهد «المعركة» لمتابعة الطعنة التي ستردّ على الطعنة، ولكنّه يفهم أنّ النصّ كلّه يتحرّك في عالم فَكِهٍ بليغ، فلا

---

(٢٤) أبو داود، السنن، كتاب الأدب، حديث رقم ٤٥٤٧.

(٢٥) وهي كلّها المعاني التي تحويها مادة فكه، انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة فكه.

(٢٦) «[. . .] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا. قَالَ: إنّي لا أقُولُ إلا حَقّاً». الترمذي، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ١٩١٣؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٨٣٦٦.

يثور على الرجل الذي كان يريد طعن الرسول، بل يضحك من بساطة أمره ومن السذاجة التي كانت تُخيّم على عالم الناس في ذلك الحين. ولكنّ النصّ يميد بالمشاهد إذ يتغيّر مجرى الأحداث من حيث لم يكن ينتظر ولا ينتظر الرسول.

لم يطعن الرجلُ الرسولَ بل اغتنم عُريَه ليضمّه إليه ويحتضنه ويقبّل كشحه(٢٧)، وهو يردّد ويقول: «إنَّمَا أَرَدْتُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ». فإذا بساطة الرجل والسذاجة تنطويان على ذكاء وحيلة يدفعان إلى التعجّب من أمره. وإذا قبلته البريئة تدعو إلى الغرق في بحر من الضحك يجعل من المشهد مشهداً للفَكَهِ.

إنّ الانقلاب في النصوص فنّية من فنّيات القصّ لا غاية لها غير إضفاء صبغة من الجمال عليه من حيث لا ينتظر القارئ أو المشاهد. والانقلاب في النصوص يخدم غرض المفاجأة ويبعث في الناس الرغبة في الضحك والقهقهة. وهو ما صوّره هذا الحديث، فكان كمشهد من محكمة ينتصب فيها العدل حَكَماً بين الرسول والرجل الذي طلب الصبر فاصطبره الرسول(٢٨). وقد غاب من المحكمة الجَلْد وحضرت الدغدغة عقاباً وقصاصاً. يرفع الرسول قميصه فلا يُطعن بعود ولا يُجلد بسوط ولكن يُقبّل تقبيلاً في كشحه، ويُدغدغ دغدغة لطيفة، فيطغى على الموقف الودّ والألفة والأنس.

كانت المحكمة المنتصبة محكمة للهزل. وكان القصاص فيها ضرباً من الفَكَهِ الناتج عن عدوان مازح مُداعب يتّخذ شكل اللهو أو اللعب «ممّا يدفع بالشخص [. . .] إلى الاستجابة إلى الضحك على سبيل الدفاع عن نفسه ضدّ

---

(٢٧) «الكَشْحُ ما بين الخاصرة إلى الضِّلع الخَلْف»، الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مادة كشح.

(٢٨) اصبُرني مكّنّي من القصاص، «صبر كفَل، واصبُرني أعطني كفيلاً»، الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مادة صبر.

هذا الموقف العدواني المِزاحِيّ، قبل أنْ يتّخذ شكلاً جدّياً ينقطع فيه الضحك ليُفسح مجاله للغضب أو الحنق»[٢٩].

لا يمكن أنْ نتصوّر الرسول في هذا الموقف إلاّ ضاحكاً مقهقهاً وقد بدت نواجذه نتيجة دغدغة هذا الرجل في كشحه، استجابةً لهذا المثير الذي تُحدثه بعض المناطق الحسّاسة في جسم الإنسان، مثل الكشح والخاصرة. فالدغدغة أكثر أشكال الفَكَهِ تعبيراً من حيث الظهور فيقع إشباع الجانب الفيزيولوجي الذي يأتي الضحك فيه تعبيراً عن الإحساس بالمتعة والسرور. وينبري المُنبّه الفيزيولوجي عاملاً لإثارة الجانب النفسي لدى الإنسان، وتحدث الإثارة وتنشأ الغبطة. فالضحك له آثار فيزيولوجية لا تقلّ أهمية عمّا له من آثار بسيكولوجية[٣٠].

إنّ المفاجأة تؤدّي دوراً هامّاً في عملية الضحك. فالقبلة غير المنتظرة والدغدغة العفويّة أضفيا على المشهد عناصر تجميل وحفز على الضحك، بفضل ما طغى على الموقف من شيء كاللعب واللهو. وقد أدّى هذا الأمر إلى «تغيّرات عقلية أو لغويّة مدركة في النكات أو المواقف الضاحكة»[٣١]، كثيراً ما تُصاحب مثل هذه المواقف. وقد احتوى الحديث هنا على الأمرين، فكان مُضحكاً بالموقف، وكان مُضحكاً بالكلمة. وقد دلّ على شخصيتين مُحبّبتيْن للفَكَهِ رغم اختلافهما الظاهر على مستوى المزاج وطريقة التصرّف. فالرجل من الأنصار بدا ساذجاً ذا تصرّف بسيط ولكنّه طيّب النفس فَكِهاً لطيفاً، يُمازح الناس ولا يُناصبونه العداء، في جدّه هزل، وفي هزله جدّ. والرسول بدا على وقاره ذا مزح ودعابة ولعب ولهو حسب ما يقتضيه المقام.

---

(٢٩) Ch. Darwin, *The expression of the emotions In man and animals*, p. 100. مذكور في: زكريا إبراهيم، **سيكولوجية الفكاهة والضحك**، ص ٣٩.

(٣٠) انظر: زكريا إبراهيم، **سيكولوجية الفكاهة والضحك**، ص ٣٨.

(٣١) شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك**، ص ١٦١.

فهذا الرجل يُحدّث القوم ويمازحهم فلا ينهاه الرسول أو يمنعه، بل يشاطره اللعب واللهو، فيشرّع بذلك للفَكَهِ المشروع والمزح واللعب، فتنتصب تلك الأمور موازية للجدّ وتعليم أمور الدين[٣٢].

٣ ـ العجوز والرغبة في الجنّة

كان الرسول، حسب الأخبار الكثيرة التي نقلتها الأحاديث والمواقف المختلفة التي وضعته فيها، مركزاً للاستقطاب. وكان المسلمون يقصدونه للتبرّك به وطمعاً في عفوه وطلباً للعلم والمعرفة، ونهلاً من دينه الذي لا يتوقّف سيله، ورغبة في أنْ يكون واسطةً بينهم وبين اللّٰه فيدعو لهم أجمل الدعاء. كان يأتيه الناس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية وتنوّع أجناسهم. وكان كالشيخ في حلقة الدرس، مالكاً للمعرفة. لذلك شدّوا إليه رحالهم ينهلون من معارفه الكثيرة فتطمئنّ نفوسهم وتستكين قلوبهم. كان يُقبل عليه المسلم يستزيد من أمور دينه ويستفتيه في كثير من الأمور. وكان يُقبل عليه اليهوديّ يمتحنه أو يبحث عنده عن مدى التوافق بين دينه ودين الرسول.

أقبلت عليه ذات يوم عجوزٌ وقالت له: «يا رسولَ اللّٰهِ، ادْعُ اللّٰهَ أنْ يُدْخِلَنِي الجَنَّة. فقال: يا أمَّ فُلان، إنّ الجَنَّة لا تدخُلها عجوزٌ. فولّتْ تَبكي. فقال: أخْبروها أنّها لا تدخلها وهي عجوزٌ، إنّ اللّٰه يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا * عُرُبًا أَتۡرَابًا﴾[٣٣]»[٣٤].

يتناول الحديث بالوصف ثلاثَ لحظات حاسمة في الخبر: لحظة جدّ

---

(٣٢) «[. . .] عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ألا أخْبرُكُمْ بِخِيَار أمَرَائِكُمْ وَشِرَارِهِمْ خِيَارُهُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَتَدْعُونَ لَهُمْ وَيَدْعُونَ لَكُمْ وَشِرَارُ أمَرَائِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، الترمذي، **السنن**، كتاب الفتن، حديث رقم ٢١٩٠؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الإمارة، حديث رقم ٣٤٤٧.

(٣٣) **الواقعة** ٥٦/ ٣٥-٣٧.

(٣٤) الترمذي، **الشمائل المحمّدية**، ص ٩٨.

مثّلتها العجوز وقد جاءت الرسول تطلب منه أنْ يدعو لها الله أن يُدخلها الجَنَّة، ولحظة هزل مثّلها الرسول لما أجابها مازحاً أنّ الجَنَّة لا تدخلها عجوز، ولحظة جاءت تركّز الحقيقة الدينية وتنشر في الناس، استناداً إلى القرآن، أنّ العجوز لا تدخل الجنّة عجوزاً بل بكراً من الأبكار. فينتقل الحديث بسامعه من مرحلة إلى مرحلة، ويُساهم في بناء المنظومة الفكرية الإسلامية، ويُعبّر بجلاء عن اعتقاد المسلم في الجنّة. ويتمّ كلّ ذلك في إطار قصصي يظهر الفَكَهُ فيه نظاماً صالحاً لتعليم الدين.

وقد قام الحديث على ثنائيات تمثّلت في السؤال والجواب، والجنّة والنار، والثواب والعقاب، والضحك والبكاء، والجدّ والهزل. وقد ارتبطت أطراف الثنائيات بعضها ببعض، كما سنبيِّن ذلك في ما يلي. في باب السؤال جاءت الأمور على غاية من الأهميّة تُعبّر عن موقف اتّسم بالمهابة والاحترام والقداسة. فهذه العجوز تسأل الرسول أنْ يتوجّه بالدعاء إلى ربّه الذي أرسله لتنعم هي بجنان خُلده. كانت تطمح إلى أنْ ترى الرسول رافعاً يديْه إلى السماء، مبتهلاً لله، شافعاً لها، طالباً دخولها الجنّة. كان ذلك ما يجب أنْ يكون: نبيّ يقوم واسطة بين الله والعبد، ودعوة صريحة للفوز بالجنّة، وعجوز تُحرز الثواب بتلك الدعوة وتنجو من العقاب والنار.

ولكن هذا العالم الممثّل للنظام ينهار بسرعة، لأنّ جواب الرسول كان مُعاكساً لما كانت تنتظر العجوز ومن ورائها سامع الحديث أو القارئ. كان الجواب مفاجأة عجيبة. قال لها الرسول: «إنّ الجَنَّة لا تدخلها عجوز». لقد انهار النظام بهذا القول وسقط قناع المقدّس والجدّ الممثّل للدين وضحك الرسول وضحك من كان في المجلس. وهكذا قام الفَكَهُ حيث انقصم ظهر الجدّ وأقفر الكون من النظام.

كان الجواب طريفاً. وقد تمثّلت طرافته في التأكيد على أنّ جنّة ترتع فيها الحور العين لا يُمكن أنْ تكون للعجائز منزلاً، ولو تمّ لهنّ ذلك لتغيّر مفهوم

الجنّة الذي صاغه المخيال العربي الإسلامي. ولكنّ الجواب الطريف كان يحمل سخرية ضحك لها مَنْ كان في المجلس وآلمت العجوز فأبكتها فأقفلت راجعة تجرّ أذيال الخيبة وتخامرها مشاعر السوء وقد أيقنت أنْ لا دخول لها الجنّة وقد أعلمها الرسول بما أعلم. لم تفهم العجوز مزاح الرسول فبكت. ساد اللَّبْسُ الموقفَ وتأزّمت الحالُ.

ولكنّ الرسول ظلّ سيّد الموقف. كان صاحب اللعبة يجذب خيوط الدمى فتتحرّك. لقد سارع إلى التدخّل وأوقف الحالة المتأزّمة حتى لا تُثقل على العجوز فيتواصل ألمها ويواصل الناس ضحكهم ساخرين منها بإيلام وضرر. فسارع إلى انفراج الموقف بأنْ بعث في إثر العجوز يُعلمها أنّ قصده لم يكن ما فهمت، وأنّه أراد أنّ يقول إنّ العجوز لا تدخل الجنة وهي على حالتها تلك بل يحوّلها الله بكراً. وذكّر هنا بما جاء في القرآن: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾». وما جاء في القرآن وضّحه المفسّرون وفق ما ذهب إليه الرسول، فقالوا إنّ معنى الآيات الواردة هنا: «إنّا أعدناهنّ في النشأة الأخرى، بعدما كنّ عجائز رمصاً صرن أبكاراً عرباً، أي بعد الثيوبة عُدن أبكاراً عُرُباً، متحبّبات إلى أزواجهنّ بالحلاوة والظرافة والملاحة»(٣٥).

وقد نزل هذا التوضيح من الرسول برداً وسلاماً على العجوز. تهلّلت أساريرها بعد أنْ ولّت باكية. تخلّصت من انفعالاتها السلبية لتعيش انفعالات إيجابية. وهذا الانتقال من الانفعالات السلبية إلى الانفعالات الإيجابية كثيراً ما عدّه علماء النفس حافزاً من الحوافز على الفَكَهِ. فالانتقال السريع من الرهبة والخوف إلى الطمأنينة والأمن، ومن البكاء والحزن إلى الضحك والفرح، ومن القنوط واليأس إلى الرجاء والأمل والثقة بالنفس يسبّب

---

(٣٥) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص ص ٢٩٢_٢٩٣.

بالضرورة إدراكاً لعناصر متناقضة متقابلة في زمن قصير جدّاً، تبعث بطبيعتها على الضحك، فينشأ الموقف الفَكِهُ. وفي الموقفِ الفَكِهِ يتمّ تجاوز الإحراج وتجنّب ما يحويه من آثار سلبيّة، فيتمّ التنفيس عن الطاقة المكبوتة التي تسرّبت إلى النفس من جرّاء سلبيّة الموقف الأول والإحساس فيه بالألم. فالعجوز ولّت تبكي، ولكنّ إدراكها الذي كان مصحوباً باليأس من دخول الجنة والخوف من العقاب سرعان ما تحوّل إلى إدراك مبهج يُحدث الضحك(٣٦). فالفَكَهُ حينئذ كان نتيجة خرق السير الطبيعي للمشهد وتكسيره بتحويل حالة العجوز من الأمل في دخول الجنة إلى اليأس من دخولها في مرحلة أولى، الشيء الذي أثار تبسّم الرسول ومن ثمّة بكاءها لإيقانها بعدم دخولها الجنة، ثم تحويل بكائها إلى ضحك في مرحلة ثانية، وهو ما يُحيلنا على الثنائية الثانية، ثنائية البكاء والضحك.

فلئن بكت العجوز لعدم دخولها الجنّة فإنّها ستفرح وتضحك مسرّةً وغبطةً لخبر دخولها الجنّة. وتتعاظم فرحتها وهي تعلم أنّها ستدخل الجنّة عذراء عروباً. فها نحن ننتقل من مرحلة أولى بدت فيها العجوز طامعة في الجنّة ثمّ خُذلت ثم فرحت في مرحلة ثانية، فيكون بذلك طعم الفرحة أعظم وألذّ وأمتع عندما تختلط بدموع البكاء(٣٧). وإنّنا لنجد مثل هذه الظاهرة عند أفلاطون نفسه في ما سمّي نظريات التناقض الوجداني، أي تلك التي تذهب إلى أنّ الفكاهة تنشأ عن إدراكنا لنوعين من المشاعر المتضاربة أو المتصارعة أو المتناقضة.

---

(٣٦) Ruch, W., *The sense of humor, explorations of a personality characteristic,* pp. 18-19. ؛ شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك**، ص ١٣٠.

(٣٧) كثيراً ما يأتي الضحك ممزوجاً بدرجة من الحزن والبكاء. وكثيراً ما يُخفي البكاء شيئاً من المتعة والسرور. انظر: شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك**، ص ٦٢؛ B. Sanders, *Sudden Glory: Laughter as a subversive history,* p. 35.

ونحن لا نشكّ في أنّ وضع هذه العجوز قد أضحك الرسول وصحبه، كما أضحك العجوز نفسها في ما بعد. فقد كان الرسول يمزح ولا يقول إلاّ حقّاً، كما رسّخت ذلك السنة الثقافية. كما أنّه لا يسخر من عيوب هذه العجوز الخلقية، فلم يصوّرها عجوزاً رمصاء، بل ارتقى بها إلى مصاف الحور العين، فجاء مزاحه خفيفاً لطيفاً لا سخرية فيه. ولئن تألّمت العجوز لحظة، فقد سعدت بقية حياتها وهي تُمنّي نفسها بالجنة وباليوم الذي يتمّ فيه انقلابها وتصبح حوريّة من حور الجنّة.

انطلقنا إذن من الجدّ في السؤال عن الجنة لنلج عالم الهزل في مزاح الرسول ولنعاود الرجوع إلى عالم الجدّ عن طريق الحديث عن العالم المقدّس. فإذا الأشياء تكتمل بأضدادها، فمن لم يعرف المزح لم يعرف الجدّ، ومن لم يذق مرارة التهكّم لم يعرف الاقتصاد في القول، ومن لم يعرف السؤال لم يتجنّبه «فمتى سمعت التهكّم في القول عرفت فضل النعمة في الاقتصاد. ومن لم يعرف الإضاعة لم يعرف الحزم. وقِيل لعمر: فلان لا يعرف الشرّ. قال: ذلك أجدر أن يقع فيه»(٣٨).

إنّ فَكَهَ الرسول هنا هزلٌ يهدف إلى الترويح عن النفس بين جدّ وجدّ تماشياً مع ما تقتضيه طبيعة النفس البشرية من توازن واعتدال، فلا إسراف في اللهو حدّ المجون والتهوّر، ولا إسراف في الجدّ حدّ الكبت والسأَم، فلا «هي إلى العُبوس المنفّر ولا هي إلى الاسترسال الذي يجلب الاستخفاف بها»(٣٩).

وإنّنا لنلاحظ في الأحاديث تركيزاً هامّاً على الألفاظ نفسها لغاية إحداث الفَكَهِ. لذلك نجد الرسول «يُسلّط الأضواء على دلالة لفظ واحد دون بقيّة

---

(٣٨) التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ج٢، ص ٢٦٧.
(٣٩) صلاح الدين عبد الله، «الفكاهة الدينية»، في مجلّة **الهلال**، أغسطس ١٩٩٦، ص ٣٥.

الألفاظ، حتى إذا ما انصرفت النفس إليه كان موضع الفكاهة أنّها تجد في ما بعد ألفاظاً تساويه في الدلالة»(٤٠). وهذا الأمر بالذات نلاحظه في الحديث الذي نحن بصدده. فقد تمّ التركيز فيه على لفظ عجوز تركيزاً واضحاً، فضخّم ذلك وصف حالة المرأة السائلة، ثمّ أكسب حالة انقلابها بكراً أهميةً بالغة. كما تمّ التركيز على لفظ الجنَّة باعتبارها محور السؤال والأمر المنتظر فيه. فالعجوز والجنة يشكّلان هنا لفظيْن من الألفاظ المفاتيح، يُحيلان على الثنائية الثالثة وهي ثنائية الثواب والعقاب، أو ثنائية الجنَّة والنار.

إنّ لفظ عجوز يُحيلنا على عالم دنيوي. فسؤال السائلة عن الجنة يفترض بلوغها سنّاً لا تنتظر فيه سوى الموت ولا تهتمّ فيه إلاّ بالتعبّد لنيل رضى الله، وبالتالي لنيل الجنة حيث لا موتَ ولا شيخوخةَ بل انقلاب إلى بكر. وتضمين الرسول حديثه الآية ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ هو تنصيص وتذكير بالجنة وبالحور العين، لا للعجوز وحدها بل لكلّ الحضور الذين يدلّ عليهم قوله «أخبروها أنّها لا تدخلها وهي عجوزٌ». فانقلاب العجوز بكراً يسرّ العجوز إذ بذلك تعود إلى أيامها الخوالي وتنعم بالشباب المتجدّد مع عودة عُذرتها كلما افتقدتها ولا تخاف موتاً ولا تقدّمَ سنٍّ ولا شيخوخةً(٤١)، ولكنّه يسرّ أيضاً كلّ مَنْ كان في مجلس الرسول إذ يشعر بأنّه صاحب الحور العين العذارى على الدوام جزاءً له على فعله الخيرَ وجهاده في سبيل الله وإتيانه الحسنات في دنياه، فتراه في أخراه ينكح السبعين، أو ينكح المائة، دون كلل أو ملل ودون وهن أو تعب(٤٢).

---

(٤٠) صلاح الدين عبد الله، «الفكاهة الدينية»، ص ٣٥.

(٤١) «[. . .] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال له: أنطأ في الجنّة؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده دحماً دحماً، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكراً»، ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص ٢٩٣.

(٤٢) «فبينما هو عندها لا يملّها ولا تملّه، ولا يأتيها مرّة إلاّ وجدها عذراء، ما يفتر ذكره، ولا يشتكي قبلها إلاّ أنّه لا مني ولا منية، فبينما هو كذلك إذ نودي: إنّا عرفنا أنّك لا تَملُّ ولا =

إنّ هذه الصورة المغرية لتؤثّر في وجدان المسلم وتجعله صابراً قادراً على الشدائد في الدنيا كي يُعوَّض خيراً في الآخرة، فيحلم بالحور العين وبالخلود في العالم المنشود. ويحتفظ المؤمن بهذه الصورة التي رسمها الرسول ويعمل مخياله على تطويرها في نطاق ما يحلم به وما يتمنّاه. فكلّ شيء حُرِمَهُ في الدنيا يُعوَّضُه في الآخرة، إنْ هو تقيّد بتعاليم الدين وأخلص الإيمان وسبّح لله وذكر نعمه عليه وصبر على ما ابتُلي به من أمر. فهذه هي العصا السحرية في يد الرسول، يضرب بها من يشاء فيدخل جنّة الخُلد وينعم بالحور.

إنّ وظيفةَ الفَكَهِ هنا تتمثّل في أنْ يرسّخ المقدّسَ في عالم الإنسان الدنيويّ بطريقة عفوية وعن طريق الابتسام والضحك، فيتبدّى الغيب عالماً من الحور العين يتوق إليها الإنسان. هنا يبرز الرسول متفكّهاً مازحاً، بعيداً عن التزمّت في الدين، ولكنّ مزاحه لا يخلو من حكمة وعبرة، فيُذكّر بطريقة ذكيّة بالجنّة وبجزاء المؤمنين، بعيداً عن التعليم الذي سترسّخه السنّة الثقافية من بعدُ، وهو تعليم يتخذ من الوعد والوعيد وكلّ أنواع الترهيب نظاماً وطريقةً.

= تُملّ، ألا إنّ لك أزواجاً غيرها، فيخرج فيأتيهنّ واحدة واحدة، كلما جاء واحدة قالت: والله، ما في الجنة شيء أحسن منك، وما في الجنة شيء أحبّ إليّ منك»، ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص ٢٩٣. وانظر هناك أحاديث أخرى في الغرض منها: «قال رسول الله ﷺ: إنّ الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء»، ص ٢٩٤؛ وقال: «فيدخل الرجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة»، ص ٢٩٣. وانظر: أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٠٥١١، كتاب مسند الشاميين، حديث رقم ١٦٥٥٣؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الزهد، حديث رقم ٤٣٢٨؛ الترمذي، **السنن**، كتاب فضائل الجهاد، حديث رقم ١٥٨٦.

الفصل السادس

الفَكَهُ في حضرة الصحابة

يبدو الضحك كالعدوى تصيب الشخص الواحد ثم تسري منه إلى غيره. لذلك نراه في الحديث ينتقل من مصدر إلى مصدر، فيضحك اللّه[1]، ويضحك الرسول[2]، ويضحك الصحابة، ويضحك التابعون[3]، فيغدو الضحكُ ظاهرةً من الظواهر التي تميّز المجتمعات، في إطارها ينمو الفَكَهُ وينْع ويُصبح فنّاً يمارسه بعض من اشتهر بالمزاح وبرع في اختلاق القصص

---

(١) انظر عملنا أعلاه، ص ٧٠.

(٢) انظر عملنا أعلاه، ص ٧٠.

(٣) «[...] عَنْ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ دَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ وَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاثاً وَذِرَاعَيْهِ ثَلاثاً ثَلاثاً وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ وَظَهْرِ قَدَمَيْهِ ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَ لأَصْحَابِهِ أَلا تَسْأَلُونِي عَمَّا أَضْحَكَنِي فَقَالُوا مِمَّ ضَحِكْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا بِمَاءٍ قَرِيباً مِنْ هَذِهِ الْبُقْعَةِ فَتَوَضَّأَ كَمَا تَوَضَّأْتُ ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَ أَلا تَسْأَلُونِي مَا أَضْحَكَنِي فَقَالُوا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَعَا بِوَضُوءٍ فَغَسَلَ وَجْهَهُ حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ خَطِيئَةٍ أَصَابَهَا بِوَجْهِهِ فَإِذَا غَسَلَ ذِرَاعَيْهِ كَانَ كَذَلِكَ وَإِنْ مَسَحَ بِرَأْسِهِ كَانَ كَذَلِكَ وإِذَا طَهَّرَ قَدَمَيْهِ كَانَ كَذَلِكَ»، أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث رقم ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤١٠، ٤٢٩، ٤٤٨، ٤٩٦؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب الوضوء، حديث رقم ١٥٥، ١٥٩، الصوم، حديث رقم ١٧٩٨؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٣٣١ـ٣٤١؛ النسائي، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٨٣، ٨٤، ١١٥، ١٤٥، ١٤٦، الإمامة، حديث رقم ٨٤٧؛ أبو داود، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٩٦ـ٩٨؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الطهارة وسننها، حديث رقم ٢٨١، ٤٥٢؛ مالك بن أنس، **الموطّأ**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٥٤؛ الدارمي، **السنن**، كتاب الطهارة، حديث رقم ٦٩٠.

والمواقف الهازلة وقام يُضحك الناس ويمتّعهم بملح الكلام وأعاجيب الأمور ويبني بينهم علاقات قائمة على المداعبة والطرفة.

١ ـ الرسولُ والصحابةُ والفَكَهُ

لم تخلُ الأحاديث من بسط لهذا الأمر، من ذلك ما ورد في الحديث التالي: «عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فِي تِجَارَةٍ إِلَى بُصْرَى قَبْلَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ بِعَامٍ وَمَعَهُ نُعَيْمَانُ وَسُوَيْبِطُ بْنُ حَرْمَلَةَ وَكَانَا شَهِدَا بَدْراً وَكَانَ نُعَيْمَانُ عَلَى الزَّادِ وَكَانَ سُوَيْبِطُ رَجُلاً مَزَّاحاً فَقَالَ لِنُعَيْمَانَ أَطْعِمْنِي قَالَ حَتَّى يَجِيءَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ فَلأُغِيظَنَّكَ قَالَ فَمَرُّوا بِقَوْمٍ فَقَالَ لَهُمْ سُوَيْبِطٌ تَشْتَرُونَ مِنِّي عَبْداً لِي قَالُوا نَعَمْ قَالَ إِنَّهُ عَبْدٌ لَهُ كَلامٌ وَهُوَ قَائِلٌ لَكُمْ إِنِّي حُرٌّ فَإِنْ كُنْتُمْ إِذَا قَالَ لَكُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ تَرَكْتُمُوهُ فَلا تُفْسِدُوا عَلَيَّ عَبْدِي قَالُوا لا بَلْ نَشْتَرِيهِ مِنْكَ فَاشْتَرَوْهُ مِنْهُ بِعَشْرِ قَلائِصَ ثُمَّ أَتَوْهُ فَوَضَعُوا فِي عُنُقِهِ عِمَامَةً أَوْ حَبْلاً فَقَالَ نُعَيْمَانُ إِنَّ هَذَا يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ وَإِنِّي حُرٌّ لَسْتُ بِعَبْدٍ فَقَالُوا قَدْ أَخْبَرَنَا خَبَرَكَ فَانْطَلَقُوا بِهِ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخْبَرُوهُ بِذَلِكَ قَالَ فَاتَّبَعَ الْقَوْمَ وَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْقَلائِصَ وَأَخَذَ نُعَيْمَانَ قَالَ فَلَما قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَخْبَرُوهُ قَالَ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنْهُ حَوْلاً»(٤).

إنّ هذا الحديث يُمثّل القصّة الإطار التي تتحرّك في فضائها الشخصياتُ حسب الظهور والغياب، فتلعب كلّ شخصيّة دورها في تعميق الحدث الدرامي، فنقف على شخصيات متباينة. فهذا سُوَيْبِطٌ جعلته القصة الواردة في الحديث رجلاً مزّاحاً، وهذا نُعَيْمَانُ جعلته أميناً على الزاد. فاختلف الرجلان منذ البداية، ولما تطوّرت الأحداث ظهر التباين بينهما جليّاً، فإذا الأول لا غاية له غير الهزل والمزاح، وإذا الثاني حريصاً على الزاد يمارس على من كان معه سلطانه الذي مكّنه منه أبو بكر، فبدا رمزاً للجدّ والوقار.

---

(٤) ابن ماجة، السنن، كتاب الأدب، حديث رقم ٣٧٠٩؛ أحمد بن حنبل، المسند، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٥٤٦٥.

كان بطلا القصة إذن شخصيتيْن مختلفتيْن من حيث الطبع، واحدة مازحة والأخرى جادة، فبشّر ذلك بصراع بين الشخصيّتيْن، لا محدّد له في بداية النص، فقد يولِّد مأساة وقد يولِّد ملهاة. ولكنّ المؤشّرات المبدئيّة في القصة، التي تدور حول شخصيّة سويبط المزّاح تدلّ على أنّ أحداث القصة ستسير بنا نحو الملهاة لا المأساة، وأنّ الإطار العامّ سيتمّ في عالم من المزاح والسخرية.

جاء سُويبطٌ نُعيمانَ يطلب شيئاً من الزاد قبل الأوان، فرفض نُعيمانُ الطلب. لم يثر سُويبطٌ الجوعانُ على نُعيمانَ المكلّف بالزاد. ولم ينشب بينهما خصام، ولم يظهر عنف أو سبّ أو شتام. بل انقلب الموقف ضرباً من الثأر للنفس عن طريق السخرية والهزل وهو ما اشتهر به سُويبطٌ بين الناس. قال سُويبطٌ: «لأغِيظَنَّكَ»، وانطلق يُنفِّذ ما عزم عليه من أمر، فما هي إلاّ لحظة أو بعض لحظة حتى نفّذ سُويبطٌ مشروعه: مرّوا بقوم فقال لهم سُويبطٌ في غياب نُعيمانَ: «تَشْتَرُونَ مِنِّي عَبْداً لِي؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: إنَّهُ عَبْدٌ لَهُ كَلامٌ وَهُوَ قَائِلٌ لَكُمْ إنِّي حُرٌّ فَإِنْ كُنْتُمْ إذَا قَالَ لَكُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ تَرَكْتُمُوهُ فَلا تُفْسِدُوا عَلَيَّ عَبْدِي»، فكانت المرحلة الأولى التي ضمن فيها سُويبطٌ بيع نُعيمانَ، إذ رغّب فيه القوم دون أن يُظهر حرصاً شديداً على بيعه، فقالوا: «بَلْ نَشْتَرِيهِ». فاشتروه بعشر قلائص(٥)، ووضعوا في عنقه حبلاً أو عمامة، فحاجّهم نُعَيْمَانُ «العبد» بمقالته التي أخبر بها سُويبطٌ القوم، فلم يأبهوا به، وانطلقوا به غانمين بعبد متكلّم.

انتصر إذن سُويبطٌ على نُعيمانَ بما دبّر من مكيدة لم يستطع أنْ ينجو منها رغم كلامه واحتجاجه. سخر من نُعيمانَ وضحك منه على مرأى ومسمع من

---

(٥) قلائص جمع قلوص، «والقلوص من الإبل الشابة أو الباقية على السير»، الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مادة قلص.

الناس الذين كانوا في القافلة. ولم يُنكر هؤلاء فعل سُويبط ولا سارعوا إلى نجدته، بل لعلّهم التذّوا بالمشهد الساخر وربّما صادف فعل سويبط هوى في نفوسهم فضحكوا من نُعيمانَ، فانقلب بذلك الفَكَهُ فَكَهاً جماعيّاً والضحك أمراً مشتركاً بينهم يعمّ صداه الصحراء.

إنّ الفَكَهَ في هذا الحديث يتمثّل في انقلاب الأدوار الحاصل على السواء في شخصيّتيْ سُويبط ونُعيمانَ. فقد انقلب الأوّل من مازح إلى سيّد الموقف، ومن سائل بعض الزاد إلى حرّ فيه بالكلّية، وانقلب الثاني من حرّ إلى عبد ومن آمر إلى مأمور ومن صاحب جدّ إلى محلّ للهزء والخسرية. فبعدما كان نُعيمان أميراً على الزاد يتهادى فوق دابّته شامخاً ويُمارس سلطانه على مَنْ كان في القافلة من العباد، انقلب إلى عبد يُقاد بحبل من عنقه ويتبع أسياده الذين اشتروه ببعض القلائص. وبعدما كان سُويبط يجري وراء نُعيمان ليفوز ببعض الزاد صار سيداً على نُعيمان والزاد. وإنّ هذا المشهد ليُثير في نفس سُويبط والجماعة الضحك، ويجد فيه سُويبط زيادة على ذلك لذائذ عديدة. فهو يتلذّذ بإغاظته صاحبه، ويتلذّذ بالزاد الذي أصبح لا آمر عليه، ويتلذّذ بغفلة الجماعة عنه، ويتلذّذ بانطلاء حيلته على القوم الذين باعهم نُعيمانَ وإنْ مزحاً، ويتلذّذ بالقلائص العشر وإنْ مؤقّتاً.

ولما بلغ المشهد قمّة سخريته سارعت القصّة إلى إيقافه حتى لا يكون فيه ضرر وإيلام. فقد جاء أبو بكر بعد غيبة ليُعيد الأمور إلى نصابها والنظام إلى المجموعة ويُمكّن نُعيمانَ من الفرج. ما إنْ أُخبر أبو بكر الخبر حتى سارع متعقّباً القوم الذين ابتاعوا نُعيمان، فردّ عليهم قلائصهم واستردّ نُعيمانَ وأقامه من جديد على دابته آمراً على الزاد. ولكن اللافت للانتباه أنْ لا شيء في النصّ يدلّ على أنّ أبا بكر غضب أو وبّخ سُويبطاً أو عرض له بعقاب ما، وكأنّ الأمر فسحة للضحك والسخرية اتفقت المجموعة بشأنها لتضحك وإنْ لبرهة وجيزة.

كان سُويبط في النصّ واسطة المجموعة إلى الضحك. كان المزّاح الذي يُستعان به على تجاوز مشقّة الرحلة. كان مثل المُهرّج في قصور الأمراء والسلاطين والسادة، يرفّه عنهم وعن ضيوفهم، ويبعد عنهم الكآبة والحزن.

ولم يقف أمر القصّة عند هذا الحدّ، بل تواصلت بعد انتهاء الرحلة. فقد عادت القافلة تُخبر الرسول وصحبه بالأمر الذي حصل، فيضحك ويضحكون حولاً كاملاً. صارت القصة قصتهم جميعاً. وصار نُعيمانُ الجادّ محلاًّ للسخرية الجماعية فيتفكّه الناس بأمره الذي شاع بينهم وبذكاء سُويبط وقدرته على الحيلة والمزح. وإذ ضحك الرسول من القصّة ولم يوبّخ ولم يُنكر الأمر فإنّها تكتسب شرعية لم تكن لها، ويكتسب بذلك الهزل شرعية ليس لها مثيل. وقد عبّرت القصّة عن نهاية الفَكَهِ وانتصابه إطاراً تتحرّك فيه المجموعة وتستطيب أمرها فيه بأنْ أدامته حولاً كاملاً، وهي طريقة في القصّ تريد أنْ تُشير إلى أنّ الأمر بلغ أقصاه وأنّ الناس تلذّذوا به كأنْ لم يتلذّذوا بشيء مثله وأنّ الرسول شارك في ذلك وأحبّه فأضفى عليه من الشرعية عالماً كبيراً.

إنّ هذا الأمر ليُذكّرنا بأحاديث أخرى في الفَكَهِ الجميل، منها هذا الحديث الذي قام فيه سليمان النبي، مثل محمد هنا، ضاحكاً مشجّعاً على النكتة والدعابة والهزل التي قام على أمرها هدهده عنبر. «حُكي أنّ الهدهد قال لسليمان عليه السلام: أريد أنْ تكون في ضيافتي. قال: أنا وحدي؟ قال: لا بل العسكر كلّه في جزيرة كذا وكذا، في يوم كذا. فحضر سليمان عليه السلام بجنوده هناك، فصاد الهدهد جرادة خنقها ورماها في البحر وقال: كلوا يا نبيّ الله، مَنْ فاته اللحم ناله مِنَ المرق. فضحك سليمان وجنوده مِنْ ذلك حولاً كاملاً»[٦].

---

(٦) القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص ٣٨٢؛ وحيد السعفي، العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص ٣٨٢.

إنّ الأنبياء من طينة واحدة، فذلك سليمان النبيّ وجنده يضحكون لقول الهدهد حولاً من الزمان، وهذا محمد خاتم الأنبياء وصحبه يضحكون من فعل سُويبط بنعيمان حولاً آخر من الزمان، فتراهم يقبلون على الحياة بأطايبها وملذّاتها، بهزلها وجدّها، تميّزهم روح الفَكَهِ وحبّهم الدعابة، يعيشون الحياة الدنيا مثلما يبحثون عن الحياة الأخرى. فما أجمل أنْ يضحك الأنبياء حولاً من الزمان وإنْ على المجاز، فإنّ حولاً إنّ دلّ على شيء فهو يدلّ على امتداد الضحك وتواصله، فيشعر الإنسان بالفَكَهِ متواصلاً دون انقطاع منذ سليمان حتى الرسول، وإلى الآن، ويشعر بالهزل قريباً من كلّ النفوس.

٢ ـ الفَكَهُ في الغزوات

إنّ المتأمّل في كتب الحديث ليعثر على الفَكَهِ في مختلف مجالات الحياة. فهو حاضر في العبادات والمعاملات وحياة الرسول الخاصّة والعامّة وفي الظروف الطارئة على حياة الناس، حتّى إنّ الغزوات والحروب التي تبدو للوهلة الأولى أكثر الأشكال صرامة وجدّاً لم تخلُ هي الأخرى من هَزْلٍ وضَحِكٍ ودُعابةٍ ونُكتةٍ. فالفَكَهُ اجتاح تلك الفضاءات ودخل ساحة الوغى وصار خير أنيس يُجنّد النفس ويدفع عنها الخوف ويملأها بالإيمان. وهذا حديث في الغزو فلنتبيّنه: «[...] عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لما كَانَ يَوْمُ الْخَنْدَقِ وَرَجُلٌ يَتَتَرَّسُ جَعَلَ يَقُولُ بالتُّرْسِ هَكَذَا فَوَضَعَهُ فَوْقَ أَنْفِهِ ثُمَّ يَقُولُ هَكَذَا يُسَفِّلُهُ بَعْدُ، قَالَ: فَأَهْوَيْتُ إِلَى كِنَانَتِي فَأَخْرَجْتُ مِنْهَا سَهْماً مُدَمّىً فَوَضَعْتُهُ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَلما قَالَ هَكَذَا يُسَفِّلْ التُّرْسَ رَمَيْتُ فَمَا نَسِيتُ وَقْعَ الْقِدْحِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِنَ التُّرْسِ قَالَ وَسَقَطَ فَقَالَ بِرِجْلِهِ، فَضَحِكَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ [...] حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ قُلْتُ لِمَ؟ قَالَ: لِفِعْلِ الرَّجُلِ»(٧).

(٧) أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث رقم ١٥٣٤.

يدور الحديث حول حدث وقع في غزوة الخندق التي تُعدّ من أيام الإسلام المشهودة. رابط المسلمون يومها في الخندق أياماً وهم ينتظرون العدوّ حتى يقتحم إليهم المسالك فيُخدع. في هذا الإطار الذي يُنبئُ بالجدّ واليقظة والتأهّب الكامل للانقضاض على العدوّ وضربه الضربة القاضية، نُفاجأُ بالقصّة التي جاء هذا الحديث يُكرّسها. كان بعضهم في هذا الجوّ الذي كنّا ننتظر فيه كلّ شيء إلاّ اللعب، يلعب ويلهو، فيلاعبه آخر ويلهو معه، وتجري العدوى في الجند جميعاً فيضحكون ويتفكّهون.

كان بعضُ الجنود يتباهى باستعمال الترس فيتترّس به. مرّة يضعه فوق أنفه، ويقول به هكذا، ومرّة يُسفّله، ويقول به هكذا. كان يُبدي البأس والشدّة وحسن استعمال الترس، فلفت إليه انتباه الجند. باغته مَنْ كان أحذق منه وأكثر براعة في المجال، فرماه بسهم مُدمّىً أصاب به ترسه. ولكنّ الرجل، وقد رأى السهم مُدمّىً، ظنّ الدم دمه وأنّ السهم بلغه فسقط صائحاً خائفاً يتألّم من رجله.

كان هذا الموقف الذي طغى عليه اللعب والتباهي ثمّ الخدعة والكذب موقفاً جُعل للفَكَهِ والتخفيف من حدّة أمر الحرب. لذلك نرى الرسول قد ضحك منه حتى بدت نواجذه. كان يضحك من فعل الرجل الذي تألّم لأمر لم يكن وذلك لخوفه من أنْ يكون قد أُصيب وهو لم يُصَب، أو للمراوغة والكذب حتى يلفت إليه من جديد انتباه الجند المتفرّجين. فإنْ كان الأوّل فالرجل يُظهر ما ليس فيه. كان يتباهى بالشجاعة والبراعة في حذق الرمي فإذا به يخاف سهماً لم يمسّه، فكيف لو هجم عليه العدوّ؟ وإن كان الثاني، فالرجل لم يتوقّف عن اللعب وواصل الكذب والبهتان. وفي الحالتين تتعرّى النفس البشرية عن مفارقة جليّة تخدم غرض الفَكَهِ وتكشف الذات الإنسانية، فإذا هي هشّة خوّافة جزعة، أو هي ميّالة بطبعها للضحك والهزل وإنْ في أحلك الظروف وزمن الشدّة والحرب.

إذا كان الرسول قد ضحك حتى بدت نواجذه من الموقف الهزليّ، فإنّ الجنود قد ضحكوا مثله، ونسوا للحظة هول الحرب والخوف والانتظار المقيت. كان الضحكُ هنا وسيلة لإشاعة روحِ الفَكَهِ في جنود المسلمين، فيؤدّي دوراً فعّالاً في تقوية عزائمهم ودفع الخوف عنهم. فالضحك في مثل هذه المواقف يدلّ على جَلَدٍ وقُوّةٍ ثقةٍ بالنفسِ يُعزّزها الإيمان بالانتصار على العدوّ، فيتبوّأ الفَكَهُ منزلةً عالية، إذ إنّه يُصبح آلية دفاعيّة لاختراق صفوف العدوّ وإحباط عزائمه. وقد كان الانتصار حليف المسلمين في غزوة الخندق، فجاء الحديث يُكرّس الفَكَهَ وسيلةً ناجعةً لمثل هذه الظروف.

٣ ـ الفَكَهُ والصحابةُ وزواجُ المُتعة

رأينا في ما سبق من عملنا أنّ الفَكَهَ في الثقافة العربية الإسلامية ليس حكراً على مجالات دون أخرى، بل هو حاضر في كلّها تقريباً، حتى تلك التي اشتهرت بالجدّ عند المسلمين. وتأكيداً لذلك نعرض في ما يلي لمسألة الفَكَهِ في الجهاد. فالجهاد في سبيل الله، وهو أكثر الأمور ارتباطاً بالحياة الأخرى، لا يخلو من عناصر فَكِهَةٍ تندسّ بين عناصره الجادّة الرسمية. ولنا في الحديث التالي ما يقوم حجّةً على ما ذهبنا إليه: «[. . .] عَنْ قَيْسٍ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ يَقُولُ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ لَنَا نِسَاءٌ فَقُلْنَا أَلا نَسْتَخْصِي فَنَهَانَا عَنْ ذَلِكَ ثُمَّ رَخَّصَ لَنَا أَنْ نَنْكِحَ الْمَرْأَةَ بِالثَّوْبِ إِلَى أَجَلٍ [. . .]»(٨).

إنّ الفَكَهَ في هذا الحديث فَكَهٌ طريفٌ برز من خلال قصّة حاكها أصحاب

---

(٨) مسلم، **الصحيح**، كتاب النكاح، حديث رقم ٢٤٩٣؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٢٤٩، كتاب النكاح، حديث رقم ٤٦٨٣، ٤٦٨٦؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، حديث رقم ٣٤٦٨، ٣٥٢٢، ٣٧٨٩، ٣٩٠٤، ٤٠٧٥.

الرسول. وهي قصّة الاستخصاء والمتعة. لما طالت بهم الإقامة للغزوة بعيداً عن الأهل وألمّت بهم الشهوة فكّروا في الاستخصاء. فنهاهم الرسول عن ذلك ودعاهم إلى الصبر، فهم في حالة جهاد، والجهاد يتطلّب كبت النفس عن كلّ أمر لا يخدم ذلك الغرض. ولكنّ الأمر ازداد عليهم وطأة وأحسّ الرسول ذلك فيهم فأخرج إليهم مناديه «فَنَادَى إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ فَاسْتَمْتِعُوا يَعْنِي مُتْعَةَ النِّسَاءِ»[(٩)]. فأدخل تحليل مُتعة النساء البهجة والفرحة على نفوس الجند، وأزال الغمّ عنهم، ورفع عنهم هول الإخصاء، فجروا في كلّ حدب وصوب باحثين عن النساء ملجأً، يعرضون عليهنّ أنفسهم مقابل قبضة تمر أو حفنة دقيق أو بُرد جديد أو خلِق. وقد قبلت بعض النساء بقبضة التمر، وقبلت بعضهنَّ بحفنة الدقيق، وقبلت بعضهنّ بهذا الثوب أو ذاك مفضّلة رجلاً على آخر[(١٠)].

كانت الأحاديث في هذا الباب تصف بدقّة وجُرأة حياة المجاهدين في سبيل الله زمن الرسول. كانت تصف شوقهم الشديد إلى المتعة وإرضاء الشهوة زمن الغزوة والفتح. وكانت تصف ذلك بطرافة وحذق فتضفي على القصة كثيراً من الفَكَهِ، وتقيم المشاهد الضاحكة التي لا غاية لها غير بثّ روح من الهزل الخفيف، حتى لنرى المجاهدَ يغالب أخاه المجاهدَ للفوز بالمرأة والمتعة. وقد روى أحدهم: «أَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُتْعَةِ فَانْطَلَقْتُ أَنَا

---

(٩) أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المدنيين، حديث رقم ١٥٩٣٧؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب النكاح، حديث رقم ٤٧٢٥؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب النكاح، حديث رقم ٢٤٩٤، ٢٤٩٥.

(١٠) «[...] أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ قَالَ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ: كُنَّا نَسْتَمْتِعُ بِالْقَبْضَةِ مِنَ التَّمْرِ وَالدَّقِيقِ الأَيَّامَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، مسلم، **الصحيح**، كتاب النكاح، حديث رقم ٢٤٩٧؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب النكاح، حديث رقم ٤٧٢٥؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المدنيين، حديث رقم ١٥٩٠٧، ١٥٩٣٧، ١٥٩٥٦. وانظر القصّة وتحليلها في: وحيد السعفي، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص ٣٤٧.

وَرَجُلٌ إلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ فَعَرَضْنَا عَلَيْهَا أنْفُسَنَا فَقَالَتْ مَا تُعْطِينِي فَقُلْتُ رِدَائِي وَقَالَ صَاحِبي رِدَائِي وَكَانَ رِدَاءُ صَاحِبي أجْوَدَ مِنْ رِدَائِي وَكُنْتُ أشَبَّ مِنْهُ فَإِذَا نَظَرَتْ إلَى رِدَاءِ صَاحِبي أعْجَبَهَا وَإِذَا نَظَرَتْ إلَيَّ أعْجَبْتُهَا ثُمَّ قَالَتْ أَنْتَ وَرِدَاؤُكَ يَكْفِينِي فَمَكَثْتُ مَعَهَا ثَلاثاً»[١١].

في هذا العالم الطريف يشعر قارئ الحديث بأنّ المجاهدين هبّوا جميعاً إلى زواج المتعة مُعرضين عن الجهاد في سبيل الله والغزوة لثلاثة أيام متتالية. وكان يُمكن أنْ يطول بهم زمن المتعة أكثر لولا خروج منادي الرسول عليهم يقول: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ هَذِهِ النِّسَاءِ اللاتِي يَتَمَتَّعُ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهَا»[١٢]. فكان هذا القول بمثابة الإعلان عن وقف فُسحة الفَكَهِ والعودة إلى عالم الجدّ والجهاد والغزوة.

إنّ الجمعَ بين طرفيْ الحديث يمكّن من الوقوف على الفنّية التي خضع لها في صياغته. فهو مراوحة بين الجدّ والهزل، بين زينة الدنيا وقد ظهرت من خلال زواج المتعة وزينة الآخرة وقد ظهرت من خلال الجهاد في سبيل الله الذي لا يخلو هو الآخر من متعة. فكانت حياة الناس حسب هذا الحديث قسمة بين المتعة التي توفّرها الحياة الدنيا والمتعة التي يعمل الإنسان جاهداً على الفوز بها في الآخرة.

كانت القصة تروي حدثاً تاريخيّاً يتمثّل في فتح مكّة، ثمّ خرج منه إلى حدث عارض قائم على قصّة فَكِهَةٍ تدور في مدار الرغبة في الاستخصاء

---

(١١) النسائي، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ٣٣١٥؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب النكاح، حديث رقم ٢٥٠٠؛ أبو داود، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ١٧٧٤، ١٧٧٥؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ١٩٥٢؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند المكيين، حديث رقم ١٤٧٩٦، ١٤٨٠٥؛ الدارمي، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ٢٠٩٨، ٢٠٩٩.

(١٢) بقية الحديث السابق.

وحمل الرسول بطريقة ذكيّة على السماح بالتمتّع بالنساء زمن جهاد، والتمتّع بذلك الأمر، ثمّ تعود القصة إلى الجهاد وفتح مكّة الذي يُعدّ أهمّ حدث عرفه الإسلام وهو يشقّ طريقه في الجزيرة آنذاك. فالفَكَهُ هنا قصّة طريفة تتوسّط قصة جادّة، فيكون بذلك ترويحاً عن النفس حتى لا تملّ أمور الجدّ التي نجدها في النص عالماً من المتعة أيضاً. فكأنّ النص يجمع بين لذّتين، لذّة التمتّع بالنساء ولذة الانتصار والفتح.

هنا يظهر الرسول مرّة أخرى عارفاً بحياة الناس، قادراً على تلبية الرغبات. كان تصرّفه مع جنوده تصرّفاً معقولاً، فلا هو منعهم من المتعة فكبت فيهم حاجة جموحاً، ولا هو أباح الاستمتاع بالنساء إلى آخر الزمان فيكون ذلك سبباً في صدّهم عن الفتح. كان فهمه لطبائعهم مساعداً على تصريف شؤونهم. كان في سبيل فوزه في عالم الدين والانتصار على المشركين لا يُبالي من تمكينهم من حقّهم كاملاً في الدنيا وفتح أبواب السماء لهم في الآخرة.

٤ ـ الشكُّ طريقٌ إلى الفكَهِ

لما كانت المرأة في الأخبار القديمة تُباشِر من الرجال اثنيْن أو ثلاثة أو حتى أربعة، استحال إذ ذاك معرفة والد المولود إنْ هي أنجبت. وكان على القائم على أمر الرعيّة أنْ يجتهد في إيجاد الحلّ إذا ما عُرضت عليه مثل هذه القضايا. وكانت القضايا في هذا المجال طريفة لا تخلو حلولها هي الأخرى من طرافة. وفي الحديث التالي شيء من هذا: «عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَمَنِ فَقالَ إنَّ ثَلاثَةَ نَفَرٍ مِنْ أهْلِ الْيَمَنِ أَتَوْا عَلِيّاً يَخْتَصِمُونَ إلَيْهِ فِي وَلَدٍ وَقَدْ وَقَعُوا عَلَى امْرَأةٍ فِي طُهْرٍ وَاحِدٍ فَقَالَ لاثْنَيْنِ مِنْهُم طِيبَا بِالْوَلَدِ لِهَذَا فَغَلَيَا ثُمَّ قَالَ لاثْنَيْنِ طِيبَا بِالْوَلَدِ لِهَذَا فَغَلَيَا ثُمَّ قَالَ لاثْنَيْنِ طِيبَا بِالْوَلَدِ لِهَذَا فَغَلَيَا فَقَالَ أَنْتُمْ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ إنِّي مُقْرِعٌ بَيْنَكُمْ فَمَنْ

قُرِعَ فَلَهُ الْوَلَدُ وَعَلَيْهِ لِصَاحِبَيْهِ ثُلُثَا الدِّيَةِ فَأَقْرَعَ بَيْنَهُمْ فَجَعَلَهُ لِمَنْ قُرِعَ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَضْرَاسُهُ أَوْ نَوَاجِذُهُ»(١٣).

بؤرة هذا الحديث خصومة نشبت بين ثلاثة رجال حول ابن ادّعاه كلّ واحد منهم. فقد وقع ثلاثتهم على المرأة نفسها فأنجبت فجاء كلّ منهم يُطالب بالابن ظنّاً منه أنّه له. وقد رفعوا أمرهم إلى عليّ بن أبي طالب فانتصب قاضياً بينهم وهو الذي عُرف بحكمته وسداد رأيه. حاول عليّ في بادئ الأمر أنْ يوفّق بين النفر وأنْ يجعل بينهم اتفاقاً يقتضي رضى اثنين منهم بمنح الثالث الولد. ولكنّه كلما خاطب اثنين في الأمر طالباً منهما الرضى بما أراده من قضاء رفضا وازداد الخصام والصراع وكان الغليان. فلما استحال أمر القسمة بالرضى بين الشركاء المتشاكسين، التجأ إلى القرعة، «فَجَعَلَ الولدَ لِمَنْ قُرِعَ ولِصَاحِبَيْهِ عَلَيْهِ ثُلُثَا الدِّيَةِ». ورضي النفر المتخاصمون بالحكم، وصار أمر الحُكم بينهم قصّة تُروى للتندّر فيتناقلها الناس ويتفكّهون بها ويُخبرون بها رسولهم «فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَضْرَاسُهُ أَوْ نَوَاجِذُهُ».

إنّ الحديث يقدّم وضعية على غاية من التركيب أساسها استحالة إقامة علاقات سليمة بين أفراد المجموعة المتخاصمين في أمر على غاية من الأهمية تسعى القصة من خلاله إلى إبراز أزمة تُنبئ بحدوث مأساة بين أفراد المجموعة. ولكنّ هذه الوضعية المتأزّمة ـ رغم أنّها تُبسط في عالم من الجدّ وقد انتصبت لها محكمة للحكم ونُصّب عليها صحابيّ من خيرة الصحابة للقضاء وجاءها متقاضون للتقاضي ـ لا تخلو من فَكَهٍ واضح. فالنصّ رغم أنّه يُريد أنْ يَبرزَ في شكل تراجيديا ليس هو في نهاية الأمر إلاّ كوميديا قوامها

(١٣) أبو داود، السنن، كتاب الطهارة، حديث رقم ١٩٣٢؛ النسائي، السنن، كتاب الطلاق، حديث رقم ٣٤٣٤، ٣٤٣٥؛ ابن ماجة، السنن، كتاب الأحكام، حديث رقم ٢٣٣٩.

الضحك والهزل. فانقلاب الولد موضوع الخصام سلعة للقرعة، وانقلاب القاضي قائماً على أمر القرعة، ورضى المتخاصمين بالقرعة، كلّها أمور جُعلت للتخفيف من حدّة المسألة وإضفاء عالم من اليسر عليها. وعندما تحدث القرعة ويتمّ الأمر وفق ما اختار النصّ من وجهة، تكتسب القرعة شرعيّة وتُصبح قانوناً سنّه الصحابيّ الحكيم لا سبيل إلى النزاع فيه أو الطعن، إذ هو كالشرع الإلهيّ.

إنّ هذا الإطار العامّ هو المسيّر لأمر الفَكَهِ في النصّ، لذلك ضحك الناس وضحك الرسول حتى بدت نواجذه. فمجرّد اعتبار خصومة الرجال حول إثبات انتساب الولد لعبة تخضع للقرعة يقلب موازين الأمور، فتخرج بذلك المسألة من جدّ الجدّ إلى هزل الهزل، ويتحوّل الموقف العاصف إلى بركان خامد. في هذا الإطار يحسّ أفراد المجموعة أنّ القضاء والقدر تدخّلا لاختيار الأب الشرعيّ للولد، وأنّ عليّاً ليس إلاّ واسطة في ذلك، فيدخل الناس في عالم الغيب دخولاً تامّاً، ويؤمنون أكثر بالقوى الأخرى التي تسهم في تسيير حياتهم.

كانت القُرعة هي المحدّد الرئيسيّ للفصل في المسألة فصلاً حاسماً لا عوْد فيه. وقد تمّت القُرعة بين رجال ثلاثة ادّعى كلّ منهم البنوّة. وهذا هامّ في حدّ ذاته، إذ كثيراً ما كان الرجل ـ في مثل هذه الحالات ـ متهرّباً من المسؤولية وإلحاق الابن الذي كان نتيجة زنى بنسبه. وتغيب من الحديث المرأة الوالدة، فلا هي تُستشار ولا هي يُحكم لها بالرضيع أو النفقة أو الرعاية. كانت مومس القصّة فغيّبتها حتى لا تُشوّش العالم الذي لا غاية له غير نشر النكتة والنادرة الفَكِهَةِ.

ولا يتساءل القارئ في هذا الحديث عن السبب الذي جعل عليّاً يقيم القُرعة حكماً بين الناس دون أنْ ينظر في ملامح الولد أو يُجرّب عاطفة الأبوّة مثلما جرّب سليمان عاطفة الأمومة لما قضى بين امرأتيْن متنازعتيْن في ولد.

فسليمان في مثل هذه الحالة لم تنطل عليه حيلة المرأة الكاذبة التي ادّعت الولد، بل جرّب فيها عاطفة الأمومة، فظهر خداعها وكذبها. فقد جاء في الحديث أنّه «[...] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَانِ لَهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَأَخَذَ أَحَدَ الابْنَيْنِ فَتَحَاكَمَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا فَدَعَاهُمَا سُلَيْمَانُ فَقَالَ هَاتُوا السِّكِّينَ بَيْنَهُمَا فَقَالَتِ الصُّغْرَى يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا لا تَشُقَّهُ فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى»(١٤).

إنّ الحديث الأوّل الذي كان فيه عليّ قاضياً رشّح عامل القرعة حكماً بين المتقاضين، فجعل الحدث الموغل في الجدّية عملاً مسرحيّاً كوميديّاً فانتمى بذلك إلى عالم الفَكَهِ وكان الغرض منه الهزل وحده. أمّا الحديث الثاني الذي كان فيه سليمانُ قاضياً فقد نحا منحى جدّيّاً أريد من خلاله إبراز حكمة سليمان مقارنة بأبيه داود الذي أخطأ في الحكم. فصياغة الحديث في حدّ ذاتها مؤشّر من المؤشّرات الدالة على الفَكَهِ أو على غيره من فنون الخطاب.

٥ ـ الفَكَهُ والشِّعرُ

إنّ الأحاديث في الشعر كثيرة. وقد ذكرنا في ما مضى من عملنا أنّ الرسول وضع في المسجد منبراً لحسان بن ثابت يعتليه ليقول الشعر الذي كثيراً ما روت الأخبار من بعد أنّه كان محظوراً، وأنّه من عمل الشيطان الذي لا يتبعه إلاّ الغاوون(١٥). وكان الرسول يقول في حسّان الشاعر «إنّ الله تعالى

---

(١٤) أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٧٩٣١؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣١٧٣، كتاب الفرائض، حديث رقم ٦٢٧١؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الأقضية، حديث رقم ٣٢٤٥؛ النسائي، **السنن**، كتاب آداب القضاء، حديث رقم ٥٣٠٧-٥٣٠٩.

(١٥) انظر عملنا أعلاه، ص ص ١١٩-١٢٠.

يؤيّد حسّاناً بروح القدس ما يُفاخر عن رسول الله»[١٦]. وقد دلّ مثل هذا الأمر على أنّ الرسول كان مُحبّاً للشعر، مُستزيداً في سماعه، تركنُ إليه نفسه، فلم يكن ينهى عنه أو يتتبّع الشعر، بل إنّ كثيراً من أصحابه كانوا شعراء[١٧]. والمتتبّع لكتب السيرة النبويّة يلاحظ ما حظي به الشعر فيها من مكانة، إذ خصّته بفضاء واسع في النص للدفاع عن حرمة الإسلام أو لهجاء قريش أو لمدح الرسول، أو حتى للغزل أحياناً.

كان مدار أغلب هذه الأشعار في فضاء المسجد الحرام حيث يتحوّل منبر الصلاة ركحاً لإلقاء أجود الكلام. وكان حسّان بن ثابت، لقربه من الرسول وتفضيله له على غيره، يُسيطر أكثر من غيره على المكان. كان «يُفَاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ يُنَافِحُ». كان صوتَ الدعاية عن جدارة، يجهر بمحاسن النبيّ ويُخاصم أعداءه ويُناضل من أجله. ولكنّ حسّاناً ـ وإنْ كان المفضّل عند النبيّ ـ لم يكن ليحظى وحده بإنصاته إلى شعره وحبّه له. بل كان أمية بن أبي الصلت يحظى لديه بمنزلة عالية أيضاً. وقد جاء في الحديث: «[. . .] قَالَ الشَّرِيدُ: كُنْتُ رِدْفاً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: أَمَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَ: أَنْشِدْنِي. فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتاً فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ لِي كُلما أَنْشَدْتُهُ بَيْتاً إِيهِ حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ»[١٨].

---

(١٦) «[. . .] عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضَعُ لِحَسَّان مِنْبَراً فِي الْمَسْجِدِ يَقُومُ قَائِماً يُفَاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ قَالَ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّاناً بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا يُفَاخِرُ أَوْ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، الترمذي، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٢٧٧٣.

(١٧) منهم حسّان بن ثابت وكعب بن زهير وعباس بن مرداس ومالك بن عوف وبجير بن زهير وأمية بن أبي الصلت.

(١٨) أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند الكوفيين، حديث رقم ١٨٦٤٨؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الشعر، حديث رقم ٤١٨٥؛ ابن ماجة، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٣٧٤٨.

يبدو الرسول في هذا الحديث ملتذّاً بالشعر حتى إنّه لا يسأم من سماع مائة بيت كاملة. وفي هذا دلالة على أهمية الشعر ورواجه في عهد الرسول. وكان الصحابة يتناشدون الشعر ويتذاكرون أخبار الجاهلية والرسول جالس يبتسم تارة ويسكت عنهم أخرى. وقد جاء في الحديث: «[...] عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ جَالَسْتُ النَّبيَّ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ فَكَانَ أَصْحَابُهُ يَتَنَاشَدُونَ الشِّعْرَ وَيَتَذَاكَرُونَ أَشْيَاءَ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ سَاكِتٌ فَرُبَّمَا تَبَسَّمَ مَعَهُمْ»(١٩).

كان الشعر إذن أمراً مُباحاً، طبيعيّاً، يُتناشد في المساجد، وفي حلقات الصحابة، وفي مجالس هزلهم ولهوهم، فتراهم يتراشقون بالقوافي، ويركبون بحور الشعر، فيحضر فيهم المدح، ويحضر الهجاء، ويحضر الغزل، وتحضر أخبار الجاهلية بأصنامها ومحرّماتها، وتُصبح مُتعةً للسامع والمتكلّم وأخباراً وقصصاً طريفة يتناقلها الناس في الإسلام وتدلّ على اهتمامها بالفنّ ومُلح الأخبار والشعر الجميل واللهو الذي لا يصدّ عن الجدّ.

كان الرسول في كل المواقف يُجيز مثل هذا الأمر رغم قيام عمر في وجه كلّ فنان وشاعر ومازح ووقوفه لهم بالمرصاد يرفض كلام هذا ويردّ فنّ ذاك ويضرب الآخر إذا ما تعنّت وواصل المزاح. وقد جاء في ذلك أحاديث كثيرة، نذكر منها هذا الحديث: «[...] عَنْ أَنس أَنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَمْشِي وَهُوَ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
الْيَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

---

(١٩) الترمذي، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٢٧٧٧؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند البصريين، حديث رقم ٢٠٠٩٦، ٢٠١٠٢.

ضَــرْبــاً يُــزِيــلُ الْــهَــامَ عَــنْ مَــقِــيــلِــهِ
وَيُــذْهِــلُ الْــخَــلِــيــلَ عَــنْ خَــلِــيــلِــهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي حَرَمِ اللَّهِ تَقُولُ الشِّعْرَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ»[٢٠].

هنا يبدو الشعرُ كالسهم يُطيح بالعدوّ ويُحبط عزائمه. وهو يبدو كذلك طريقة من طرق الذوْد عن حُرمة الإسلام وتهديد الكفّار بالضرب المبرّح الذي «يُذهل الخليل عن خليله».

لقد وعى الرسول بلاغة الكلمة وسلطتها في التأثير على السامع، ولذلك شجّع الشعر، فكان له خير سند على نشر الدعوة الإسلامية وهي في بداية طريقها إلى الناس. وقد جعلت الأحاديثُ الرسولَ مثل أهل عصره مُحبّاً للشعر ميّالاً إلى الاستماع إليه. ولكنّ الطريف في الأمر أنّها حافظت مع ذلك على نزعة خفيّة تتمثّل في السعي إلى إبراز الرسول لا يتمثّل إلاّ بشيء قليل من الشعر[٢١] ولا يحفظ الشعر إلاّ حفظاً رديئاً[٢٢] ولا يقوله إلاّ بسيطاً

---

(٢٠) الترمذي، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٢٧٧٤؛ النسائي، **السنن**، كتاب مناسك الحجّ، حديث رقم ٢٨٢٤.

(٢١) «[...] عَنْ عَائِشَةَ قِيلَ لَهَا هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنَ الشِّعْرِ قَالَتْ كَانَ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ ابْنِ رَوَاحَةَ وَيَتَمَثَّلُ وَيَقُولُ: وَيَأْتِيكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ»، الترمذي، **السنن**، كتاب الأدب، حديث رقم ٢٧٧٥؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٣٩٢٠.

(٢٢) «قال ابن هشام: وحدّثني بعض أهل العلم أنّ عبّاس بن مرداس أتى الرسول ﷺ فقال له رسول الله ﷺ أنت القائل:

«فأصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة»، فقال أبو بكر الصدّيق: بين عيينة والأقرع. فقال رسول الله ﷺ: هما واحد. فقال أبو بكر: أشهد أنّك كما قال الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾» ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤، ص ١٤٢، والآية: **يس** ٣٦/ ٦٩.

ساذَجاً[٢٣] أو ساعة المزح والفرح والطرب لا الجدّ[٢٤]. وهي في ذلك لها عذرها الشرعي: أنْ تُبرز الرسول بعيداً عن قول الشعر حتى لا يُقال فيه كان ذا شيطان يبثّه الشعر، فيُعتبر قرآنه شعراً كشعر الشعراء. كانت الأحاديث وهي تُبرز جهله بالشعر أو قوله له بسيطاً ساذجاً لا تخلو من فَكَهٍ وطُرفة ودُعابة لطيفة. ولم يكن ذلك فيه نقيصة، بل هو ينضاف إلى جهله بأمور أخرى لإبراز أمّيته. وقد تظافرت في هذا المجال جهود العلماء للتنظير للمسألة وجعل الأمر فيها ميزة ميّزه الله بها على غيره من العباد: «إن الله إنّما جعل نبيّه أُمّياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ولا يقرض الشعر ولا يتكلّف الخطابة ولا يتعمّد البلاغة، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة، ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر والبشر والعلم بالأنواء وبالخيل، وتكلّف قول الأشعار، ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم، وتكلّم بالكلام العجيب، كان ذلك أدلّ على أنّه من الله»[٢٥].

---

(٢٣) «[...] بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَمْشِي إذْ أَصَابَهُ حَجَرٌ فَعَثَرَ فَدَمِيَتْ إِصْبَعُهُ فَقَالَ: هَلْ أَنْتِ إلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ»، البخاري، **الصحيح**، كتاب الأدب، حديث رقم ٥٦٨٠؛ مسلم، **الصحيح**، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٣٥؛ الترمذي، **السنن**، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٣٢٦٨؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، كتاب مسند الكوفيين، حديث رقم ١٨٠٤٤، ١٨٠٥٤.

(٢٤) «[...] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ أَنْكَحَتْ عَائِشَةُ ذَاتَ قَرَابَةٍ لَهَا مِنَ الأَنْصَارِ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَهْدَيْتُمُ الْفَتَاةَ قَالُوا نَعَمْ قَالَ أَرْسَلْتُمْ مَعَهَا مَنْ يُغَنِّي قَالَتْ لا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ الأَنْصَارَ قَوْمٌ فِيهِمْ غَزَلٌ فَلَوْ بَعَثْتُمْ مَعَهَا مَنْ يَقُولُ: أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيَّانَا وَحَيَّاكُمْ»، ابن ماجة، **السنن**، كتاب النكاح، حديث رقم ١٨٩٠.

(٢٥) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ص ٣٢.

الخاتمة

جاءَ في مجاميعِ الحديثِ:

«[. . .] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: أغْفَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إغْفَاءةً، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّماً فَقَالُوا لَهُ: لِمَ ضَحِكْتَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ. فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ حَتَّى خَتَمَهَا، فَلَمَّا قَرَأَهَا قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: هُوَ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَعَلَيْهِ حَوْضٌ يَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ الْكَوَاكِبِ».

أغفى الرسولُ إغفاءةً، نزل عليه وحيٌ. ابتسم. كان الوحيُ الذي نزل على الرسولِ خفيفاً لطيفاً. أوَيُمكنُ ألاَّ يكون الوحيُ كذلكَ وقد جاءَ يَعِدُ الرسولَ نهراً في الجنّة آنيتُهُ عَدَدُ الْكَوَاكِبِ، تردُ عليهِ أمّتهُ فتشربُ من النهرِ الكوثرِ. كان وحياً يُناسبُ المقامَ. انظُره تَجدْهُ يسيراً سمحاً، يُخالفُ ما ساد في أذهانِ الناس من أنّ الوحيَ ارتعاشةٌ ورعدةٌ وصلصلةٌ كصلصلةِ الحديدِ، وهولٌ يدكُّ الناقةَ والرسولَ دَكّاً، وبردٌ يشلُّ الحركةَ، ومُدَّثِرٌ تُدَثِّرُهُ امرأةٌ. لم يكن الوحيُ هنا كالوحيِ الذي عهدناه، بل كان وحياً يُكرِّسُ مقولةَ الدينِ اليُسرِ وينفي العسرَ الذي كرّستهُ الثقافةُ العربيةُ الإسلاميةُ في باب الوحي. إنّهُ

وحيٌ يرسمُ ملامحَ حالمٍ أفاقَ من حُلْمٍ لذيذٍ وقد ارتسمتْ على وجههِ تبسُّمةُ الرضى والغبطةِ. إنّهُ وجهٌ آخرُ للوحيِ.

كذلك هو الفَكَهُ وجهٌ آخرُ من الدينِ، عملنا على إبرازه في هذا العملِ. لقد تشكّل الدينُ في الثقافة العالمة وجهاً صارماً قاتماً، فبحثنا فيها عن قفاً لهذا الوجه لعلّه يكون يسيراً ضاحكاً.

لقد نظرنا في الأحاديث الكثيرة وقصرنا نظرنا فيها على ما سمّيناهُ الفكَهَ وقد بدا لنا فنّيةً من فنّياتِ الدينِ بها يُبلّغُ الخطابَ إلى الناس في ظلّ اليُسرِ.

لم تكنْ غايةُ اشتغالِنا بالفكَهِ في الحديثِ النبويِّ تجميعَ الأحاديثِ الفَكِهَةِ أو التفكُّهَ بها، بل كانت أبعدَ من ذلك، إذ تعلّقت بتقريبِ العالمِ المقدّسِ ـ الذي كثيراً ما وُصفَ بالهولِ وغلبَ عليه الترهيبُ ـ إلى الإنسانِ المؤمنِ فيبدو له الدينُ مجالاً لليُسرِ يرتعُ فيه ويُحسّهُ قريباً. «إنّهُ الانتصارُ لحقِّ الإنسانِ في الحياةِ وحقِّهِ بأنْ يحفَلَ بما هو يوميٌّ وعاديٌّ وبسيطٌ بساطتَهُ المُبينَةَ عن وجوهِ ضَعفِهِ وما طُبِـعَ عليه من نقصٍ وفسادٍ وتهالُكٍ في مقابلِ كلِّ ما هو شريفٌ عالي الطبقةِ مجلّلٌ بالوقارِ متعلّقٌ بجليلِ الحوادثِ وعظيمها [...] غرضه من ذلك الوقوفُ في وجه المقدّسِ حتى لا يُغَلِّفَ كلُّ شيءٍ فتستحيلُ الحياةُ شدّةً قاتمةً وعبئاً يَثقُلُ حملُهُ ويصيرُ الإنسانُ عبداً لثقافةٍ غالبةٍ».

لقد مكّننا هذا البحثُ من أنّ نرتفعَ بالفَكَهِ إلى فضاءاتٍ أرحبَ من تلك التي أرادتها الثقافة العالمةُ حيث ربطته بكلّ ما هو مدنّسٌ دنيويٌّ وارتفعت بالجدّ إلى عالَمِ المقدّسِ. فإذا الفكهُ عالَمٌ تؤثّثُهُ العباداتُ والمعاملاتُ ويميّزُ علاقةَ الرسولِ بمختلفِ طبقات المجتمعِ، وإذا الفَكَهُ في عالم المقدّس مجالٌ رحبٌ رحابةَ صدرِ الرسولِ.

طوّفنا بالفَكَهِ وطافَ بنا في عوالمه المختلفة التي احتواها الحديثُ، فبدا لنا وجهاً جميلاً ناصعاً في دين ساده الجدُّ حتى طغى. لقد ألفينا اللّهَ في الحديث ضاحكاً مبتسماً، وألفيناهُ متعجّباً ساخراً مازحاً. ونشعر ونحن نقرأ

الأحاديث الكثيرة التي جعلت الله ضاحكاً، أنّ الدين قد سعى بأسلوب جريء وفنّية عالية إلى بثّ المسرّة والحبور في عالم الناس العسير. لم يكن ضحك الله في الأحاديث اعتباطاً أو للذّة خاصة، بل كان من أجل أنْ يضحكَ الإنسانُ وتعمَّ حياتَه المسرّاتُ. فإذا ضحك الله ضحك بالضرورة رسول الله. وإذا ضحك رسول الله ضحك بالضرورة صحابة رسول الله. وإذا ضحك صحابة رسول الله ضحك بالضرورة تابعوهم وتابعو تابعيهم والمسلمون الذين اقتدوا بهم ونسجوا على منوالهم. وقد روت الأخبار أنّ عبد الله بن مسعود مثلاً كان ينفجر ضاحكاً كلما روى حديثاً جاء فيه أنّ الله يضحك. ثمّ كان يسأل مَنْ حوله: ألا تسألوني مِمَّ أضحك؟ فيسألونه مِمَّ يضحك؟ فيجيب: كذلك فعل الرسول، ضحك وسأل الناس أنْ يسألوه مِمَّ يضحك ولما سألوه أجاب: أضحك مِنْ ضَحِكِ رَبِّي.

إنّ الأحاديث التي يظهر الله فيها ضاحكاً تؤدّي دوراً فعّالاً في ترسيخ العالَم الفَكِه وتنهض بوظيفة فنّية غايتها انتقال الضحك من مُلْهِم الضحك الذي هو الله إلى المسلمين عامة عبر الرسول والصحابة. فإذا الضحك الواحد يُصبح متعدّداً، ويتضاعف شيئاً فشيئاً عبر الرواية حتى يعمّ الأمّة قاطبةً.

لقد ساد الاعتقاد في الثقافات على اختلاف أنواعها بأنّ الدينَ والفَكَهَ عالمان متقابلان متضادّان[1]، فحظي الدينُ فيها بالتبجيل والتكريم ولاقى الفَكَهُ الرفضَ والازدراءَ. لقد عُدَّ الدينُ في كلّ زمان ومكان مقدّساً على علاقة بالسماء، ورُبط ربطاً وثيقاً بالإله أو الآلهة، وعُدّ إطاراً لنشر الثقافة العالمة، ومجالاً للتربية الخيّرة، فبدا جدّاً خالصاً. أمّا الفَكَهُ فقد عُدَّ شيئاً مدَنّساً على علاقة بالشيطان والكفر، من فعل العامّة والطبقات الوضيعة تستعمله لتزيّن به ثقافتها الشعبية التي كثيراً ما عُدّت عديمة الفائدة من باب ما لا يُحتاج إليه وما

---

(١) انظر مثلاً: B. Sarrazin, «Humour et religions», in *Humoresques*, n° 12. p. 5.

«لا يؤول إلى تحصيل وتحقيق»[٢]، فارتبط الفَكَهُ بالشرّ وعُدّ محظوراً من المحظورات.

كان عملُنا ـ كما بدا في ما تقدّم من فصول هذا البحث ـ محاولة للجمع بين الفَكَهِ والدينِ في الثقافة العربية الإسلامية وقد ظهرا لنا فيها على طرفيْ نقيض. وقد زاد في تعميق الهوّة بينهما سعي الثقافة العالمة إلى الفصل الدائم بينهما، فعُتّم الجانبُ الفَكِهُ في الدين أو سُكِتَ عنه سكوتاً مثيراً للتساؤل، وبرز الجانبُ الجدّي فيه إيجابيّاً صالحاً رغم صرامته وقيوده. فرُحنا ننفض الغبار عن وجه الفَكَهِ الذي عُتّم في الدين، وانبريْنا نحفر في هذا الجانب المسكوت عنه حتى يأخذَ حقّه من البروز ويستوي ابناً شرعيّاً للثقافة العربية الإسلامية، وحتى يدخلَ في دائرة الاهتمام والدرس ويخرج من دائرة التهميش والإقصاء.

وقد مارسنا هذا الجمع بين الفَكَهِ والدينِ في إطار الحديث النبويّ الذي يُعدّ في السنّة الثقافية العربية الإسلامية نصّاً مقدّساً يسير في رحاب القرآن ويضاهيه ويساويه أحياناً[٣]. وقد تتبعنا في الحديث النبوي الفَكَهَ في مختلف استعمالاته، وحاولنا الإحاطة بما يُضفيه على الشخصية المحمّدية من ملامح، وسعينا إلى ضبط وظائفه المتنوّعة.

فماذا أصبنا من هذا العمل الذي سعى إلى الجمع بين المتضادّيْن والموازاة بين المتقابليْن؟

لقد وقفنا من خلال هذا العمل على انتشار الفَكَهِ في الحديث النبويّ انتشاراً كبيراً، فجمعنا مادّة غزيرة لم نستغلّ منها في هذا البحث المحدّد الغاية والزمن إلاّ الجزء الذي يفي بالحاجة، عسى أنْ نعود إلى بقيّة المادّة في

(٢) أبو حيان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، الليلة الأولى، ج١، ص ٢٣.
(٣) انظر عملنا أعلاه، ص ١٩.

استغلالات أخرى لتأكيد الظاهرة وإغناء البحث. ولكنّ هذه المادّة الوفيرة لا تعني أنّ مجاميع الحديث كانت فَكَهاً كلّها وفضاءً للضحك وإطاراً للهزل. إنّ مجاميع الحديث، شأنها شأن كلّ العلوم العربية الإسلامية، دوّنت كلّ شيء، ما ترادف من أخبار وتوازى، وما تقابل منها وتضادّ، فوجدنا فيها أحاديث الفَكَهِ تجانب أحاديث الجدّ يسند بعضها بعضاً دون حرج أو نفور. فالقول بوجود الفَكَهِ لا يعني عندنا تغليبه على الجدّ الصارم الذي شكّل دائماً وجه الدين، بل هو محاولة لتمكينه من البروز بعد أنْ أسهمت عوامل كثيرة في السكوت عنه وإغفاله.

إنّ الفَكَهَ في الحديث النبويّ، وفق الصور المختلفة التي ضبطناها في بحثنا، يرسم للرسول بوصفه المثال الأنموذج المؤسّس للدين ملامحَ شخصيةٍ فَكِهَةٍ لا تتحرّج من معالجة أمور الدين والدنيا بطريقة واعية ذكية قائمة على المزاح والضحك والهزل أحياناً، فتسهم في وضع أسس الدين اليُسر. ولكنّ هذه الصورة التي رسمت له في البدايات، كثيراً ما غُيّبت من بعدُ في الثقافة العالمة وسُكت عنها. فإذا وجدنا الآن أنّ الأحاديثَ التي ظهر فيها الرسول ضاحكاً مازحاً ساخراً فَكِهاً كثيرةٌ وتمّ السكوت عنها وتجاهلها، فهمنا بالضرورة أنّ مسألة تحريم الفَكَهِ وعناصره المختلفة من ضحك ومزاح وهزل وسخرية لم تكن مطروحة في عهد الرسول، بل هي متأخّرة النشأة وتعود دون شكّ إلى الزمن الذي شعر فيه المسلمون بالضعف وخافوا من كلّ شيء فأسرعوا يَحْتَمُونَ بدروع واهية تَقيهم شرّ العاصفة التي كانوا يرونها في الفَكَهِ لأنّهم قرنوه باللهو الذي هو عندهم من عمل الشيطان(٤).

وقد بَيَّنّا في هذا البحث أنّ الفَكَهَ في الدين كان طريقةً في الحياة (un mode de vie) يُعالج بها الرسول أمر الرعيّة ويُسيّر أحوال الناس بعيداً

(٤) انظر مثلاً: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص ١٢٨.

عن كلّ تزمّت أو تعصّب أو فظاظة أو غلظة. ولذلك رَوى عنه الصحابة أحسن الأحاديث، وسمحوا لأنفسهم بالتفكّه والتندّر. كان الفَكَهُ محبّباً إلى النفوس تهشّ إليه وترغب فيه، وكانوا جميعاً يتلذّذون بالفَكَهِ حتى في أعسر الأمور وأقربها إلى الجدّ مثل مجال العبادات. فاكتسح الفَكَهُ الصوم والحجّ والصلاة، فإذا هي يسيرة طيّعة لمتلقّيها والقائم بها.

وقد اضطرّت هذه الحالةُ النيّرةُ التي ظهر عليها الدين في بداياته الرافضين للفَكهِ إلى التأويل والاحتجاج واللفّ والدوران أحياناً. فكثرة الأحاديث النبوية الفَكِهَة، وظهور الرسول ضاحكاً هازلاً مازحاً أمام الناس، وأخبار الصحابة الذين اقتدوا بالرسول في هذا المجال، اضطرّتهم إلى محاولة التوفيق بين حياة الرسول التي لا شيء فيها يدعو إلى النهي عن الهزل والمزاح والضحك، وتنظيرهم الذي يقتضي التحريم والنهي. فاعتبروا الرسول وحده ـ بفضل عصمته ـ قادراً على المزح وملازمة الحقّ بينما غيره من الناس لا يستطيع ذلك أبداً. وقد عبّر الغزالي ـ وهو أشدّ المحرّمين للمزح والضحك والهزل والاستهزاء ـ بقوله: «رُويَ عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّي لأمزح ولا أقول إلاّ حقّاً» إلاّ أنّ مثله يقدر على أنْ يمزح ولا يقول إلاّ حقّاً، وأمّا غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أنْ يُضحك الناس كيفما كان»(٥). وقد تمّ الفصلُ وفق هذا التأويل بين الرسول والمسلمين، فحُرّم الفَكَهُ على هؤلاء من دونه، وتغيّر وجه الدين، وآلت الأحوال إلى التزمّت والتعصّب والانغلاق على الذات وغلق باب الاجتهاد، بعدما كانت عهدَ الرسول فضاءً لليُسر والتسامح.

وقد لازمت هذه الحالة السيّئة المجتمعات الإسلامية منذ ذلك الحين الذي تمّ فيه القطع مع عهد الرسول، فتغيّر الإسلام من إسلامٍ منفتحٍ على الآخر، آخذٍ بمعارفه وثقافته ولغته، مستوعبٍ إيّاه بغضّ النظر عن جنسه أو

---

(٥) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ١٢٣.

لونه أو دينه أو مذهبه ـ وهو ما رأيناه في الأحاديث التي عالجناها في بحثنا ـ إلى إسلام يرفض الآخر ويُقصيه من دائرته، رغم أنّ الآخر كان قد مثّل أسّاً من أسس الحضارة العربية الإسلامية في أوج قوّتها وعطائها، وطبعها بطابع خاصّ كان له دور فعّال في الفتوحات الإسلامية ومأسسة دار الإسلام وظهور مختلف التصانيف والمؤلّفات في شتّى الميادين.

إنّ اختيارنا الفَكَهَ موضوعاً للبحث يمثّل محاولةً منّا للإسهام في الاهتمام بهذا الجانب الذي لم يحظ في الثقافة العربية الإسلامية قديماً بمنزلة رفيعة، وهو جانب مسكوتٌ عنه الآن في ما يُقالُ ويكتبُ حول الإسلام، فبدا الإسلامُ وجهاً قاتماً وديناً عنيفاً، وصورةً للكبتِ، وموطناً للإرهابِ. فعُدنا إلى الحديث نبحثُ للدين عن ذاك الوجهِ المشرقِ الذي درس بمرور الزمان، وغاب من واقع الناس، وسكت عنه العلماءُ.

لقد بدا لنا الرسولُ في هذه الرحلة مع الفَكَهِ شخصيّة فريدة من نوعها. كان يدعو إلى حياة بسيطة قوامها الإخاء وحسن العشرة وصلة الرحم والعدل والمساواة والسعادة التي لا تكون إلاّ إذا استقبل المؤمن الحياة الدنيا بالفرح والضحك والمزح واستقبل الحياة الأخرى بمثل تلك الأمور. كان يرى أنّ سعادة المرء في قدرته على التواصل مع الغير. وكان التواصل مع الغير عنده نظاماً اجتماعيّاً يقتضي البشاشة والتعامل مع الناس وفق ما يشتهونه، وهم لا يشتهون إلاّ الفرح والسرور. كان يُعلّم أهله والناسَ أنْ يتركوا ما من شأنه أنْ يُفسد عليهم حياتهم وأنْ يلوذوا بعالم المسرّات فيعيشونها أو يستشرفون بها مستقبلهم. كان حتّى إذا ما تعلّق الأمر بالحلم والرؤيا يدعو إلى تفسير ذلك وفق مبدأ يقتضي استشراف المستقبل استشرافاً خيّراً. وقد جاء في الحديث(٦)

---

(٦) «[. . .] عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ كَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَهَا زَوْجٌ تَاجِرٌ يَخْتَلِفُ فَكَانَتْ تَرَى رُؤْيَا كُلَّمَا غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَلَّمَا يَغِيبُ إلا تَرَكَهَا حَامِلاً فَتَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَتَقُولُ إنَّ زَوْجِي خَرَجَ تَاجِراً فَتَرَكَنِي حَامِلاً فَرَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ أَنَّ سَارِيَةَ بَيْتِي انْكَسَرَتْ

أنّ امرأةً جاءته مرّات عديدة تقول له: «رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ أَنَّ سَارِيَةَ بَيْتِي انْكَسَرَتْ وَأَنِّي وَلَدْتُ غُلاماً أعْوَرَ». فيقول لها في كلّ مرّة: «خَيْرٌ يَرْجِعُ زَوْجُكِ عَلَيْكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى صَالِحاً وَتَلِدِينَ غُلاماً بَرّاً [...] فَيَرْجِعُ زَوْجُهَا وَتَلِدُ غُلاماً». وعندما غاب الرسول ذات مرّة ووجدت مكانه عائشة، فسّرت لها رؤياها قائلة: «لَيَمُوتَنَّ زَوْجُكِ وَتَلِدِين غُلاماً فَاجِراً»، فكان الذي قالت: مات زوجها وولدت غلاماً فاجراً. فقال الرسول معاتباً: «إِذَا عَبَرْتُمْ لِلْمُسْلِمِ الرُّؤْيَا فَاعْبُرُوهَا عَلَى الْخَيْرِ فَإِنَّ الرُّؤْيَا تَكُونُ عَلَى مَا يَعْبُرُهَا صَاحِبُهَا».

لقد استعمل الرسول في تفسير هذه الرؤيا مبدأ يقتضي منطق الضدّ، فقلب عناصر الحلم ورموزه، وفسّر السيّئ بالحسن، فكان الذي أراد. أمّا عائشة فاستعملت في تفسير الرؤيا نفسها مبدأ يقتضي منطق التناظر والتشابه، وفسّرت السيّئ بالسيّئ، فكان الذي أرادت. ومن خلال التفسيرَيْن ندرك مغزى الحديث العميق. لقد جُعل للقول إنّ حياة الإنسان تسير على هدي ما ارتأى الإنسان، فلا تدخّل لقوى خارقة في العملية، ولا صدفة تؤطّرها. فإذا نظر الإنسان إلى غده نظرة ملؤها التشاؤم والقتامة كان غده قاتماً أسود، وإذا نظر إليه نظرة ملؤها الأمل والتفاؤل كان غده سعيداً يسيراً.

= وَأَنِّي وَلَدْتُ غُلاماً أعْوَرَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرٌ يَرْجِعُ زَوْجُكِ عَلَيْكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى صَالِحاً وَتَلِدينَ غُلاماً بَرّاً فَكَانَتْ تَرَاهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً كُلُّ ذَلِكَ تَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُ ذَلِكَ لَهَا فَيَرْجِعُ زَوْجُهَا وَتَلِدُ غُلاماً فَجَاءَتْ يَوْماً كَمَا كَانَتْ تَأْتِيهِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَائِبٌ وَقَدْ رَأَتْ تِلْكَ الرُّؤْيَا فَقُلْتُ لَهَا عَمَّ تَسْأَلِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَا أَمَةَ اللَّهِ فَقَالَتْ رُؤْيَا كُنْتُ أَرَاهَا فَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسْأَلُهُ عَنْهَا فَيَقُولُ خَيْراً فَيَكُونُ كَمَا قَالَ فَقُلْتُ فَأَخبرِينِي مَا هِيَ قَالَتْ حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَعْرِضَهَا عَلَيْهِ كَمَا كُنْتُ أَعْرِضُ فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهَا حَتَّى أَخْبَرَتْنِي فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَئِنْ صَدَقَتْ رُؤْيَاكِ لَيَمُوتَنَّ زَوْجُكِ وَتَلِدِينَ غُلاماً فَاجِراً فَقَعَدَتْ تَبْكِي وَقَالَتْ مَا لِي حِينَ عَرَضْتُ عَلَيْكِ رُؤْيَايَ فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي فَقَالَ لَهَا مَا لَهَا يَا عَائِشَةُ فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ وَمَا تَأَوَّلْتُ لَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَهْ يَا عَائِشَةُ إِذَا عَبَرْتُمْ لِلْمُسْلِمِ الرُّؤْيَا فَاعْبُرُوهَا عَلَى الْخَيْرِ فَإِنَّ الرُّؤْيَا تَكُونُ عَلَى مَا يَعْبُرُهَا صَاحِبُهَا فَمَاتَ واللَّهِ زَوْجُهَا وَلاَ أَرَاهَا إلا وَلَدَتْ غلاماً فَاجِراً»، الدارمي، **السنن**، كتاب الرؤيا، حديث رقم ٢٠٦٩.

كان عملنا فرصة لإبراز أنّ الفَكَهَ حاضر في الحديث النبويّ حضوراً مكثّفاً جعله يكتسب شرعيّةً وقداسةً. وقد برز الرسول من خلال ذلك رجلاً فَكِهاً يضحك ويمزح ويلعب. وهذه كلّها خصال لا تكون في الأنبياء والرسل الذين جُعلوا للزهد والتزمّت والصرامة والجدّ. ولو قارنّا محمداً بعيسى مثلاً لظهر لنا بوضوحِ الفرق بينهما على هذا الصعيد. ففيما كان محمد دائم الابتسام، يضحك حتى تبدو نواجذه، أو يضحك الحول كاملاً، لم يشاهَد عيسى قطّ ضاحكاً أو حتى مبتسماً[(٧)]. ولكنّ اللافت للانتباه أكثر هو أنّ الحديث النبويّ لم يتحرّج في نسبة الفَكَهِ إلى الله فجعله يبتسم ويضحك ويسخر، وهو شيء لم تألفه الأديان الشبيهة بالإسلام من قبلُ. فربّ النصارى لم يضحك ابتهاجاً بشعبه قَطّ، ولم تكن له بالفَكَهِ علاقة منذ قام آباءُ الكنيسة ينظّرون لها حتى اليوم[(٨)]. أمّا ربّ اليهود فلا يضحك إلاّ غضباً[(٩)] حتى كان وجه الفَكَهِ في اليهودية قاتماً حالكاً سلبيّاً. وقد اتخذ الحقل الدلالي للفَكَهِ ـ من ضحك وعجب ومزح وهزل ـ في الكتاب المقدّس خطة أخرى نهضت بمهمّة التقريع والنهي والزجر، حيث فُضّلت هناك الكآبة والحزن على الفرح والضحك[(١٠)]، وورد الضحك بمعنى الاستهزاء والسخرية وعلامة على غضب الربّ وعقابه. وقد كان من آثار ذلك أنْ طغى الحزن على اليهود، وخلت

---

(٧) انظر ذلك في:
J. Le Goff, «Jésus a-t-il ri?», in *L'Histoire*, n° 158, sep. 1992; B. Sarrazin, «Jésus n'a jamais ri», in *Recherches de Science religieuse*, n° 2 avril 1994.

(٨) M. Borch-Jakcobson, «Bataille et le rire de l'être», in *Critique*, n° 488-489, p. 30.

(٩) «الساكنُ في السماواتِ يَضحكُ. الربُّ يسْتهْزئُ بهمْ. حينئذٍ يتكلَّمُ عَليْهُمْ بغضبهِ ويرْجُفُهمْ بغَيْظهِ»، **الكتاب المقدّس**، العهد القديم، مزامير ٢/ ٤-٥.

(١٠) «الحُزنُ خَيرٌ من الضَّحِكِ لأنَّهُ بكآبةِ الوَجهِ يُصْلَحُ القلبُ»، **الكتاب المقدّس، العهد القديم**، الجامعة، ٧/ ٣.

حياتهم من الأمل[١١]، وشعروا بالاضطهاد الذي صار فيهم تعلّة إلى مآرب أخرى، وأصبح فيهم أداة دفاع، فلا يضحكون إلاّ ليبكوا، أو لعلّهم يضحكون كي لا يبكوا[١٢]، فوظّفوا الفَكَهَ توظيفاً يختلف عمّا رأيناه في الثقافة العربية الإسلامية التي شكّلت محور اهتمامنا.

إنّ الفَكَهَ ليس موضوعاً جديداً في الثقافة العربية الإسلامية، بل هو ـ كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأوّل من عملنا ـ بابٌ من أبواب الأدب، وفنّيةٌ من فنّيات الكتابة، وخصلةٌ من خصال الخطيب والمتكلّم، ترسّخ فيها بفضل الجاحظ والتوحيدي والحصري وأبو الفرج الأصبهاني وابن الجوزي وغيرهم ممّن كتبوا في الهزل والظَّرف. وليس الفَكَهُ في الدين إلاّ تواصلاً للفَكَه في الأجناس الأخرى[١٣]، فالثقافات التي نحت في آدابها منحى فَكِهاً كثيراً ما كرّست الفَكَهَ في الدين. وقد بدا لنا أنّ الثقافة العربية الإسلامية كانت من هذا القبيل، ميّالةً بطبعها إلى الفَكَهِ فاستعملته من ثمّةَ في دينها وزيّنته زينة الإيمان حتى لا يبدو مخالفاً للتعاليم.

لقد كان عملُنا إبرازاً لقيام الفَكَهِ سنداً للحديث في مجال تبليغ الدين للناس، فكان بذلك محاولةً للجمع بين الفَكَهِ والمقدّسِ في الثقافة العربية الإسلامية التي كثيراً ما فُصلَ بينهما فيها. وإنّنا لنعتقدُ أنّ الفَكَهَ حاضرٌ في كلّ مجالات الدين. ففي القرآن[١٤] فَكَهٌ، وفي الحديثِ فَكَهٌ، وفي التفسيرِ فكَهٌ،

---

(١١) «في الضَّحكِ يَكْتئبُ القلبُ وعاقبةُ الفرحِ حُزنٌ»، **الكتاب المقدّس، العهد القديم**، أمثال، ١٤/١٣.

(١٢) J. Klatzmann, *L'humour juif*, p. 115.

(١٣) انظر مثلاً الكتب التالية:

A. Nahum, *Humour et sagesse judéo-chrétiens; Humour et sagesse judéo-arabes;*
R. Sansen, *Le sourire de dieu dans l'histoire des hommes.*

(١٤) وهو ما ذهب إليه مستنصر مير إذ اعتبر النصّ القرآنيّ نصّاً فَكِهاً بامتياز. انظر مثلاً ما يرويه =

وفي كتب التاريخِ فكَهٌ، وفي القصصِ فكَهٌ. فإذا بحثنا في هذه النصوص عن الفَكَهِ سال فيها مدراراً. فعسى أنْ نهتمّ بذلك من بعدُ فنبرز خصائص الفكَهِ في الثقافة العربية الإسلامية ونقارنَه بالفكَه في الثقافات الأخرى التي أولته اهتمامها وحظي فيها بدراسات كثيرة(١٥). فدراستها من هذه الناحية قد تقوم سنداً لبحثنا هذا وتمكّننا بصفة أوضح من الوقوف على وظائف الفَكَهِ في فضاء المقدّس، فنسهم بذلك في رصد بعض ملامح المخيال العربي الإسلامي من خلال النصوص الحافّة بالقرآن.

= بخصوص قصّة الملائكة التي جاءت تبشّر سارة بإسحاق وقصّة سليمان مع النمل في مقاله:

Mir, Mustansir, «Humor in the Qur'ân», in *the Muslum world,* VLXXXI, july-october, n° 3-4, 1991.

(١٥) وقد أكّد مثل هذا الأمر من قبلُ كلّ من فرنتز روزنتال وشارل بلا، انظر:

F. Rosenthal, *Humor in early Islam;* Ch. Pellat, «Seriousness and humor in early Islam», in *Etudes sur l'histoire socio-culturelle de l'Islam,* pp. 353-362.

المصادر والمراجع

١ ـ المدوّنة

ابن أنس (مالك)، **الموطّأ**، بيروت، دار إحياء العلوم، ١٩٨٨.

ابن حنبل (أحمد بن حنبل الشيباني)، **المسند**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩١.

ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن ماجة)، **السنن**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٥.

أبو داود (أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني)، **السنن**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

البخاري (محمد بن إسماعيل)، **الصحيح**، بيروت، دار القلم، ١٩٨٧.

الترمذي (محمد بن عيسى)، **السنن**، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٣.

الدارمي (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمان الدارمي)، **السنن**، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٧.

مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحجّاج)، **الجامع الصحيح**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٢.

النسائي (أحمد بن شعيب النسائي)، **السنن**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

اعتمدنا بالإضافة إلى هذه الكتب القرص المرن **موسوعة الحديث الشريف** ويحتوي على الكتب التسعة.

* * *

٢ ـ المصادر

الأبشيهي (شهاب الدين بن أحمد أبو الفرج الأبشيهي)، **المستطرف في كلّ فنّ مستظرف**، القاهرة، المكتبة التوفيقية. د.ت.

ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمان بن الجوزي)، **أخبار الحمقى والمغفّلين**، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٠.

ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمان بن الجوزي)، **كتاب الأذكياء**، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر. د.ت.

ابن حجر العسقلاني (أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني)، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، بيروت، دار الفكر، ١٩٩١.

ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي)، **الاشتقاق**، بغداد، مكتبة المثنّى، ١٩٧٩. [تحقيق وشرح عبد السلام هارون].

ابن عراق الكناني، **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٩. [حقّقه وراجع فصوله وعلّق عليه عبد الوهاب عبد اللطيف عبد الله محمد الصديق].

ابن فورك (أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك)، **كتاب مشكل الحديث وبيانه**، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦٢هـ.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة)، **تأويل مختلف الحديث**، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٢.

ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو بكر بن محمد الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية)، **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٩٧٠. [حقّقه وخرّج نصوصه وعلّق عليه عبد الفتّاح أبو غداة].

ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي)، **البداية والنهاية**، م٧، ج١٤ (+ مجلد ثامن للفهارس)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨ـ١٩٩٣.

ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي)، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، بيروت، دار الجليل، ١٩٩٠.

ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي)، **السيرة النبوية**، ج٤، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٦.

ابن المرزبان (أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان)، **ذمّ الثقلاء**، كولن/ ألمانيا، منشورات الجمل، ١٩٩٩.

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم بن منظور الإفريقي المصري)، **لسان العرب**، م١٠، ج٢٠، بولاق، المطبعة الأميرية، ١٣٠٠ـ١٣٠٧هـ.

البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي) [ت. ٤٥٨هـ]، **الأسماء والصفات**، بيروت، دار التراث العربي، د.ت.

البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي)، **دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٠. [تحقيق أحمد صقر].

الترمذي (محمد بن عيسى الترمذي)، **الشمائل المحمّدية**، بيروت، دار ابن حزم، ١٩٩٧.

التهانوي (محمد علي بن علي التهانوي)، **كشّاف اصطلاحات الفنون**، م٣، ج٣، استانبول، دار قهرمان للنشر، ١٩٨٤.

التوحيدي (أبو حيان التوحيدي)، **الإمتاع والمؤانسة**، م١، ج٣، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت. [تقديم أحمد أمين].

التوحيدي، أبو حيان، **البصائر والذخائر**، بيروت، دار صادر، ١٩٨٨. [تحقيق وداد القاضي].

التوحيدي (أبو حيان التوحيدي)، **المقابسات**، بيروت، دار الآداب، ١٩٨٩. [تحقيق محمد توفيق حسن].

التوحيدي (أبو حيان التوحيدي)، **المقابسات**، سوسة، دار المعارف للطباعة والنشر، ١٩٩١. [تحقيق وتعليق حسن السندوبي].

التيفاشي (أحمد)، **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب**، تونس، دار الأخلاّء، ١٩٦٧ [تحقيق جلول عزونة].

الثعالبي (أبو منصور إسماعيل الثعالبي)، **فقه اللغة وسرّ العربية**، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

الثعلبي (أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري)، **قصص الأنبياء المسمّى عرائس المجالس**، بيروت، المكتبة الثقافية، د.ت.

الجاحظ، (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ)، **البخلاء**، بيروت، دار صادر، د.ت.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ)، **البيان والتبيين**، م١، ج٣، بيروت، دار صعب، د.ت.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ)، **الحيوان**، م٢، ج٧، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٢. [شرح وتحقيق يحيى الشامي].

الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، **جمع الجواهر في الملح والنوادر**، بيروت، دار الجيل، ط٢، ١٩٨٧ [حققه علي محمد البجاوي].

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي)، **مسند أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها**، من جوامع الكبير في الحديث، مطبوعات الدار السلفية، ط١، ١٩٩١. [صححه وعلّق عليه محمد غوث الندوي].

الطبرسي (أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي)، **الاحتجاج**، م١، ج٢، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٣.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري)، **تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك**، م٨، ج٨، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ط٤، ١٩٨٣.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري)، **تفسير الطبري المسمّى جامع البيان في تأويل القرآن**، م١٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢.

الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد الغزالي)، **إحياء علوم الدين**، ج٥، بيروت، دار القلم، ١٩٨٥.

الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي)، **القاموس المحيط**، ج٤، بيروت، دار الجيل/المؤسسة العربية للطباعة والنشر، د.ت.

القرآن الكريم، القاهرة، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ١٩٦٧.

القزويني (زكرياء بن محمد بن محمود القزويني)، **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، بيروت، دار الشرق العربي، د.ت.

الكتاب المقدّس، كتب العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، ١٩٩٨.

المنذري (الحافظ زكي الدين بن عبد القوي المنذري)، **كتاب الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، ج٣، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٧، [ضبط أحاديثه وعلّق عليه مصطفى محمد عمارة].

* * *

٣ ـ المراجع باللغة العربية

إبراهيم (زكريا)، **سيكولوجية الفكاهة والضحك**، القاهرة، دار مصر للطباعة، د.ت.

إبراهيم (زكريا)، **أبو حيان التوحيدي**، القاهرة، مكتبة مصر، د.ت.

أرسطو، **فنّ الخطابة**، ترجمة عبد الرحمان بدوي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامّة، ١٩٨٦.

أرسطو، **فنّ الشعر**، ترجمه وحقّقه عبد الرحمان بدوي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٣.

الألباني (محمد ناصر الدين)، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمّة**، ط٥، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥.

إيكو (أمبرتو)، **اسم الوردة**، ترجمة أحمد الصمعي، تونس، دار التركي للنشر، ١٩٩١.

بن عامر (توفيق)، **الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة**، ج٢، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٦، ١٩٩٨.

الجابري (محمد عابد)، **نقد العقل العربي ٢، بنية العقل العربي**، دراسة تحليلية

نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، بيروت/ الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٢، ١٩٩١.

حمزة (محمد)، **السنّة النبويّة، إشكالية التدوين والتشريع**، تونس، المركز القومي البيداغوجي، ١٩٩٧.

حمزة (محمد)، **علوم الحديث**، تونس، المركز القومي البيداغوجي، ١٩٩٩. [سلسلة دراسات ١٥].

حنون (عبد المجيد)، «النكتة جنساً أدبيّاً»، في **مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم**، أعمال الندوة التي نظّمها قسم العربية من ٢٢ إلى ٢٤ أفريل ١٩٩٣ بمنوبة، تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، سلسلة ندوات، ١٩٩٤.

الحوفي (أحمد محمد)، «أبو حيان التوحيدي»، **مجلّة العربي**، عدد ١٦٥.

السعفي (وحيد)، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، تونس، تبر الزمان، ٢٠٠١.

السعفي (وحيد)، **القربان في الجاهلية والإسلام**، تونس، تبر الزمان، ٢٠٠٣.

شاكر (عبد الحميد)، **التفضيل الجمالي، دراسة في سيكولوجية التذوّق الفنّي**، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠١، عدد ٢٦٧.

شاكر (عبد الحميد)، **الفكاهة والضحك**، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٣، عدد ٢٨٩.

الشرفي (عبد المجيد)، **الإسلام والحداثة**، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٩٠.

الشرفي (عبد المجيد)، **الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/ العاشر**، تونس، الدار التونسية للنشر/ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦.

الشيخ (محمد عبد الغني)، **أبو حيان التوحيدي: رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد**، ج٢، تونس/ ليبيا، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣.

صمّود (حمادي)، **بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ**، تونس، دار شوقي للنشر، ٢٠٠٢.

صمّود (حمادي)، **التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السادس**، (مشروع قراءة)، تونس، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١. [كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، السلسلة السادسة: الفلسفة والآداب، مجلّد ٢١].

عبد الله (صلاح الدين)، **الفكاهة الدينية**، مجلّة الهلال، أغسطس ١٩٩٦.

العطري (عبد الغني)، **أدبنا الضاحك**، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر، ١٩٩٤.

العقّاد (عباس محمود)، **جُحا الضاحك المُضحك**، بيروت، المكتبة العصرية، د.ت.

مرتاض (عبد الملك)، **فنّ المقامات في الأدب العربي**، الجزائر، ١٩٨٨.

مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم، أعمال الندوة التي نظّمها قسم العربية من ٢٢ إلى ٢٤ أفريل ١٩٩٣ بمنوبة، تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، سلسلة ندوات، ١٩٩٤.

الموسوي (محسن جاسم)، **مجتمع ألف ليلة وليلة**، تونس، مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٠.

اليعلاوي (محمد)، «محطّات فكاهية في لسان العرب»، **رحاب المعرفة**، عدد ٢، تونس، مارس ١٩٩٨.

* * *

٤ ـ المراجع الأجنبية

ARISTOTE, *Poétique*, Paris, Gallimard, Coll. Tel, 1996. (Traduit par J. Hardy).

ATTARDO S., *Linguistic theories of Humor*, Berlin, Mouton de Gruyter, 1994.

BORCH-JAKCOBSON Mikkel, «Bataille et le rire de l'être», in *Quatre essais sur le rire*, in *Critique*, n° 488-489, janvier-février 1988, n° spécial: *Quatre essais sur le rire*, Publié avec le concours du Centre National des Lettres.

BERGSON Henri, *Le rire. Essai sur la signification du comique,* Paris, PUF, Coll. Quadrige, 2002. (1ère ed. 1940).

BREMOND Claude, *Logique du récit*, Paris, Seuil, Coll. Poétique, 1973.

CLAPIER-VALLADON Simone, «l'homme et le rire», in *Histoire des moeurs*, t. 2, Paris, Gallimard, 1991.

CRITIQUE, n° 488-489, janvier-février 1988, n° spécial: *Quatre essais sur le rire*, Publié avec le concours du Centre National des Lettres.

DARWIN Charles, *The expression of the emotions In man and animals,* New York, Appleton, 1999.

DELUMEAU J., *La piété populaire au Moyen-Âge*, Paris, Bibliothèque Nationale, 1977.

FEUERHAHN Nelly, *Le comique et l'enfance*, Paris, PUF, 1993.

FEUERHAHN Nelly, «La mécanique psychosociale du rire chez Bergson», in *Humoresques* n° 7, 1994.

FREUD Sigmund, *Le mot d'esprit et sa relation à l'inconscient*, Paris, Gallimard, Coll. Folio essaia, 1993. (Traduit de l'allemand par Denis Messier).

GIMARET Daniel, *Dieu à l'image de l'homme, Les anthropomorphismes de la Sunna et leur interprétation par les théologiens*, Paris, Le Cerf, 1997.

GOUREVITCH Aron I., « Le comique et le sérieux dans la littérature religieuse du Moyen-Age », in *Diogène*, n° 90, Paris, Gallimard, 1975. (Traduit du russe par Maïa Minoutschine).

GRIMAL Pierre, *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine*, Paris, PUF, 1996.

HISTOIRE DES MOEURS, ouvrage collectif, sous la direction de Jean Poirier, t. 2, Paris, Gallimard, 1991.

HOMERE, *L'Iliade*, Paris, Garnier, 1988.

HUMORESQUES, Revue publiée par l'Association pour le developpement des recherches sur le Comique, le Rire et l'Humour, Centre de recherche interdisciplinaire sur l'Humour, Université Paris VIII.

KLATZMANN Joseph, *L'humour juif*, Paris, PUF, Coll. Que sais-je ?, 1998.

LASSOUAD Sadok, «Le comique et le sérieux dans la littérature arabe d'avant la Nahda», in *Revue du CERES*, Université de Tunis, 1978.

LE GOFF Jacques, «Jésus a-t-il ri ?», in *L'Histoire*, n° 158, sep. 1992.

L'HUMOUR, Numéro spécial de la revue *Autrement*, Série Mutations, n° 131, Paris, 1992.

MAJROUH Sayd Bahodine, *Rire avec Dieu. Aphorismes et contes soufis*, Paris, Albin Michel, 1995. (Texte français de Serge Sautreau).

MAROL Jean-Claude, *Le rire du sacré*, Paris, Albin Michel, 1999.

MAZOUER Charles, «Rire et religion dans le théâtre médiéval», in *Humoresques*, n° 12, juin 2000.

MIR Mustansir, «Humor in the Qur'ân», in *the Muslum world*, VLXXXI, july-october, n° 3-4, 1991.

NAHUM André, *Humour et sagesse judéo-chrétiens*, Paris, Desclée de Brouwer, 1998.

NAHUM André, *Humour et sagesse judéo-arabes*, Paris, Desclée de Brouwer, 1998.

NYSENHOLC Adolphe & SZAFRAN A. Willy, (sous la direction de), *Freud et le rire*, Paris, Métaillé, 1994.

PELLAT Charles, «Seriousness and humor in early Islam», in *Etudes sur l'histoire socio-culturelle de l'Islam*, London, Varioum Reprints, 1976.

PLATON, *La République*, Paris, Garnier Flammarion, 1966.

POIRIER Jean, (sous la direction de), *Histoires des moeurs*, t. 2, Paris, Gallimard, 1991.

PRICE Lucien, *Dialogue of Alfred North Whitehead*, A Mentor book, New American Library, 1956.

PROPP Vladimir, *Morphologie du conte*, Paris, Seuil, Collection Points, 1973.

ROECKELEIN Jone, *The psychology of Humor, a reference guide and annotated bibliography*, London, Greenwood press, 2002.

ROSENTHAL Franz, *Humor in early Islam*, Leiden, E.J. Brill, 1956.

RUCH W., *The sense of humor, explorations of a personality characteristic*, Berlin, Mouton de Gruyten, 1998.

SAINT AUGUSTIN, *Les confessions*, (Traduction, préface et notes par Joseph Trabucco), Paris, GF-Flammarion, 1993.

SANDERS B., *Sudden Glory: Laughter as subversive history*, Boston, Beacon Press, 1995.

SANSEN Raymond, *Le sourire de Dieu dans l'histoire des hommes*, Paris, Cerf, 2002.

SARRAZIN Bernard, «Humour et religions», in *Humoresques*, n° 12, juin 2000.

SARRAZIN Bernard, «Jésus n'a jamis ri», in *Recherches de Science religieuse*, n° 2, avril 1994.

SCHOPENHAUR Arthur, *The world as will and idea*, London, Roultdge & Kegan Paul, 1906.

SMADJA Eric, *Le rire*, Paris, PUF, Coll. Que sais-je ? 1996.

SZAFRAN A. Willy & NYSENHOLC Adolphe, (sous la direction de), *Freud et le rire*, Paris, Métaillé, 1994.

TERTULLIEN, *Traités sur l'ornement des femmes, les pectacles, le batême et la patience*, (Traduction de M. Caubère, SJ-Rolin fils), in Borie Monique, De Rougement Martine & Scherer Jacques, *Esthétique théâtrale. Textes de Platon à Brecht*, Paris, CDU et CEDES réunis, 1982.

TODOROV Tzvetan, «L'origine des genres littéraures», in *Problèmes de littérature arabe*, Tunis, CERES, Université de Tunis, 1978.

THEORIES DES GENRES, (Collectif), Paris , Seuil, Coll. Points, 1986.

WEBER Samuel, «Le temps d'un rire», (Traduction Hélène Vilavella-Johnson & Mikkel Borch-Jacobson), in *Critique*, n° 488-489, janvier-février 1988.

الفهارس

فهرس الحديث النبوي

الترتيب	رأس الحديث (حسب وروده في عملنا)	الموضوع	الصفحة
١	[...] أنّ الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة	التوحيد، صفة الجنّة	٦٥
٢	[...] عن أبي رزين قال: قال رسول الله ﷺ ضحك ربّنا من قنوط عباده	ضحك الله	٦٩
٣	[...] عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر	الجهاد	٦٩
٤	[...] عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة يضحك الله إليهم	الجهاد	٦٩
٥	[...] قال الشيخ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله عزَّ وجلَّ يُنشئ السحاب فينطق أحسن المنطق	قدرة الله	٧٠
٦	[...] فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني ممّا أضحك	الإيمان	٧١
٧	[...] عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: يجمع الله عزَّ وجلَّ الأمم في صعيد يوم القيامة	التوبة	٧١

الترتيب	رأس الحديث (حسب وروده في عملنا)	الموضوع	الصفحة
٨	[...] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن ما معنا إلاّ الماء	الإيثار، باب الأشربة	٧٥
٩	[...] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: عجب ربّنا عزَّ وجلَّ من رجل غزا في سبيل الله	الجهاد	٧٦
١٠	[...] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: عجب الله من قوم يدخلون الجنّة في السلاسل	الجهاد	٧٦
١١	[...] قال رسول الله ﷺ: لَلَّه أشدّ فرحاً بتوبة أحدكم من أحدكم بضالّته	التوبة	٧٧
١٢	[...] للّه أشدّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوّيّة مهلكة	التوبة	٧٧
١٣	[...] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ما توطّن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر إلاّ تبشبش الله له	الصلاة والذكر	٨٠
١٤	[...] عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمّد أو يا أبا القسم، إنّ اللّه تعالى يُمسك السماوات يوم القيامة على إصبع	صفة القيامة والجنّة والنار	٨٢
١٥	[...] عن عبد الله بن عمر أنّه رأى رسول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس	صفة القيامة	٨٤
١٦	[...] عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: يأخذ الجبّار سماواته	صفة القيامة	٨٩

الترتيب	رأس الحديث (حسب وروده في عملنا)	الموضوع	الصفحة
١٧	[...] عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ سقط عن فرسه	سقوطه عن فرسه	٩١
١٨	[...] عن عبد الله بن عبّاس قال حدّثني عمر بن الخطّاب قال: لمّا كان يوم بدر	سقوط الرداء	٩٢
١٩	[...] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل النبيّ ﷺ فقال: هلكتُ، وقعتُ على أهلي في رمضان	الصيام	٩٣
٢٠	[...] عن ابن عبّاس قال: إنّ الناس كانوا قبل أنْ ينزل في الصوم ما نزل فيهم	الصوم	٩٥
٢١	[...] استأذن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه على الرسول ﷺ وعنده نسوة من قريش	الأدب	١٠١
٢٢	[...] عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ جالساً فسمعنا لغطاً وصوت صبيان	المناقب	١٠٤
٢٣	[...] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبيّ ﷺ: رأيتُني دخلتُ الجنّة فإذا أنا بالرميصاء	فضائل الصحابة	١٠٦
٢٤	[...] عن عائشة رضي الله عنها أنّه كان بينها وبين رسول الله ﷺ كلام	فضائل الصحابة	١٠٧
٢٥	[...] حدّث رسول الله ﷺ ذات ليلة نساءه حديثاً فقالت امرأة منهنّ	حديث السمر	١١١
٢٦	[...] روت عائشة قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبيّ ﷺ	الأدب	١١٦

الترتيب	رأس الحديث (حسب وروده في عملنا)	الموضوع	الصفحة
٢٧	[. . .] دخل عليّ أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنّيان	العيد، صلاة العيدين	١١٦
٢٨	[. . .] بينما الحبشة يلعبون عند رسول الله ﷺ بحرابهم إذ دخل عمر	صلاة العيدين	١١٧
٢٩	[. . .] قالت عائشة: والله لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون	صلاة العيدين	١١٧
٣٠	[. . .] وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب فإمّا سألتُ النبيّ	العيد	١١٨
٣١	[. . .] أنّها قالت للعّابين وددتُ أنّي أراهم فقام رسول الله ﷺ وقمتُ على الباب	العيد	١١٨
٣٢	[. . .] عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسّان منبراً في المسجد	الشعر في المسجد	١٢٠
٣٣	[. . .] عن أنس بن مالك قال: كان لأهل الجاهلية يومان في كلّ سنة يلعبون فيهما	في العيدين	١٢٠
٣٤	[. . .] [فقال رسول الله يا أبا بكر] إنّ لكلّ قوم عيداً وهذا عيدنا	العيد	١٢١
٣٥	[. . .] قال رسول الله ﷺ خذوا يا بني أرفدة حتى يعلم اليهود أنّ في ديننا فسحة	الرقص يوم العيد	١٢١
٣٦	[. . .] عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: قلتُ يا رسول الله أرأيتَ لو نزلتَ وادياً وفيه شجرة	النكاح	١٢٢
٣٧	[. . .] فقدت النبيّ ﷺ ذات ليلة فظننتُ أنّه قام إلى جاريته مارية	عشرة النساء	١٢٣

الترتيب	رأس الحديث (حسب وروده في عملنا)	الموضوع	الصفحة
٣٨	[...] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة فصنعتُ خزيراً	اللعب	١٢٤
٣٩	[...] عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيتُ امرأة أحب إليّ أنْ أكون في مسلاخها من سودة	النكاح	١٢٥
٤٠	[...] قالت عائشة: خرجتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية	السفر	١٢٦
٤١	[...] عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنْ كان رسول الله ﷺ ليقبّل بعض أزواجه وهو صائم	الصوم	١٢٨
٤٢	[...] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتوضّأ ثمّ يخرج إلى الصلاة فيقبّلني	الوضوء	١٢٨
٤٣	[...] عن عائشة زوج النبي ﷺ أنّها قالت: كنتُ أنام بين يديْ رسول الله	الصلاة	١٢٩
٤٤	[...] عن عائشة رضي الله عنها قالت: أوّل سورة تعلّمتها من القرآن طه	الدعاء	١٢٩
٤٥	[...] عن حنظلة قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فوعظنا فذكر النار	الترويح عن النفس	١٣٠
٤٦	[...] قال لي رسول الله ﷺ ناوليني الخُمرة من المسجد فقلتُ: إنّني حائض	الطهارة/ الحيض	١٣٠
٤٧	[...] عن عائشة أنّها قالت: كان رسول الله ﷺ يتّكئ في حجري وأنا حائض	الحيض	١٣١

الترتيب	رأس الحديث (حسب وروده في عملنا)	الموضوع	الصفحة
٤٨	[. . .] عن عائشة أمّ المؤمنين قالت: ما رأيتُ أحداً أشبه برسول الله من فاطمة	الاحتضار	١٣٢
٤٩	[. . .] حدّثنا أبو اليمان [. . .] أنّ أبا بكر كان يُصلّي لهم في وجه النبي ﷺ الذي توفيّ فيه	الصلاة	١٣٤
٥٠	[. . .] قال ﷺ يا مُعاذ إنّك عسى أنْ تلقاني بعد عامي هذا	الموت، البكاء	١٣٥
٥١	[. . .] عن عمر بن الخطّاب أنّ رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يُلقّب حماراً	إقامة الحدّ	١٣٥
٥٢	[. . .] قال رسول الله ﷺ مَنْ أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً	الجزاء الجنّة، الثواب	١٣٦
٥٣	[. . .] عن أبي هريرة قال: كنّا نُصلّي مع رسول الله ﷺ العشاء	الصلاة	١٣٩
٥٤	[. . .] عن عائشة أمّ المؤمنين قالت: أتي رسول الله ﷺ بصبيّ فبال على ثوبه	الوضوء	١٤٠
٥٥	[. . .] حدّثنا أبو اليمان قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي	الأدب، البرّ والصلة	١٤١
٥٦	[. . .] عن أبي قتادة أنّ رسول الله ﷺ كان يُصلي وهو حامل أمامة	الصلاة	١٤٢
٥٧	[. . .] عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله أحسن الناس خلقاً	الأدب	١٤٣
٥٨	[. . .] عن رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثيراً من بني العبّاس	اللعب	١٤٤

الترتيب	رأس الحديث (حسب وروده في عملنا)	الموضوع	الصفحة
٥٩	[...] عن أنس أنّ ابناً لأمّ سُلَيْم صغيراً كان يُقال له أبو عُمير	التلطّف مع الصغار	١٤٥
٦٠	[...] عن أنس قال: مرّ علينا النبيّ ﷺ ونحن نلعب فقال: السلام عليكم	اللعب، الاستئذان	١٤٦
٦١	[...] عن مالك قال: إنّ رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً	المزاح	١٤٦
٦٢	[...] جاء أعرابيّ فأناخ راحلته ثمّ عقلها ثمّ دخل المسجد فصلّى	الأدب	١٤٩
٦٣	[...] أنّ أبا هريرة قال: قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه فقال أعرابيّ	الأدب	١٥٠
٦٤	[...] عن أنس بن مالك قال: كنتُ أمشي مع النبيّ ﷺ وعليه برد نجرانيّ	الزكاة	١٥١
٦٥	[...] عن أسَيْد بن حُضَيْر رجل من الأنصار قال بينما هو يُحدّث القوم وكان فيه مِزاحُ	الأدب	١٥٣
٦٦	[...] عن أبي هريرة قال: قالوا يا رسول الله إنّك تُداعبنا	المزاح	١٥٣
٦٧	[...] عَنْ عُمرَ بْنِ الخَطَّابِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: ألا أخْبِرُكُمْ بِخِيَارِ أمَرَائِكُمْ وَشِرَارِهِمْ	الإمارة	١٥٦
٦٨	[...] يا رسول الله ادعُ الله أنْ يُدخلني الجنّة، فقال: يا أمّ فلان، إنّ الجنّة لا تدخلها عجوز	دخول الجنة	١٥٦
٦٩	[...] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال له: أَنَطأُ في الجنّة؟	النكاح	١٦١

الترتيب	رأس الحديث (حسب وروده في عملنا)	الموضوع	الصفحة
٧٠	[. . .] قال رسول الله ﷺ إنّ الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء	النكاح	١٦٢
٧١	[. . .] وقال: فيدخل الرجل منهم على اثنتيْن وسبعين زوجة	النكاح	١٦٢
٧٢	[. . .] عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنّه دعا بماء فتوضّأ	الوضوء	١٦٥
٧٣	[. . .] عن أمّ سلمة قالت: خرج أبو بكر في تجارة إلى بصرى قبل موته ﷺ بعام	التجارة	١٦٦
٧٤	[. . .] عن عامر بن سعد عن أبيه قال: لمّا كان يوم الخندق ورجل يتترّس	الجهاد	١٧٠
٧٥	[. . .] عن قيس قال: سمعتُ عبد الله يقول: كنّا نغزو مع رسول الله ﷺ ليس لنا نساء	الجهاد	١٧٢
٧٦	[. . .] فنادى إنّ رسول الله قد أذن لكم فاستمتعوا يعني متعة النساء	النكاح	١٧٣
٧٧	[. . .] أخبرنِي أبو الزُّبَيْر قال سَمِعْتُ جابر بن عبد الله يقول: كنّا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق	النكاح	١٧٣
٧٨	[. . .] أذن رسول الله ﷺ بالمتعة فانطلقتُ أنا ورجل إلى امرأة من بني عامر	النكاح	١٧٣
٧٩	[. . .] مَنْ كان عنده من هذه النساء اللاتي يتمتّع فليخل سبيلها	النكاح	١٧٤
٨٠	[. . .] عن زيد بن أرقم قال: كنتُ جالساً عند النبيّ ﷺ فجاء رجل من اليمن	الأحكام	١٧٥

الترتيب	رأس الحديث (حسب وروده في عملنا)	الموضوع	الصفحة
٨١	[. . .] عن أبي هريرة قال: قال عن رسول الله ﷺ بينما امرأتان معهما ابنان لهما جاء الذئب	آداب القضاء	١٧٨
٨٢	[. . .] عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسّان منبراً في المسجد	الأدب	١٧٩
٨٣	[. . .] قال الشريد: كنتُ ردفاً لرسول الله ﷺ فقال لي: أمعك من شعر أميّة بن أبي الصلت بشيء؟	الشعر	١٧٩
٨٤	[. . .] عن جابر بن سمرة قال: جالستُ النبيّ ﷺ أكثر من مائة مرّة فكان أصحابه يتناشدون الشعر	الأدب	١٨٠
٨٥	[. . .] عن أنس أنّ النبي ﷺ دخل مكّة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي	مناسك الحجّ	١٨٠
٨٦	[. . .] عن عائشة قِيل لها: هل كان النبي يتمثّل بشيء من الشعر قالت: كان يتمثّل بشعر ابن رواحة	الشعر	١٨١
٨٧	[. . .] قال ابن هشام: وحدّثني بعض أهل العلم أنّ عبّاس بن مرداس أتى الرسول ﷺ فقال له الرسول ﷺ	الشعر	١٨١
٨٨	[. . .] بينما النبي يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت إصبعه	الأدب	١٨٢
٨٩	[. . .] عن ابن عبّاس قال: أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار	النكاح	١٨٢
٩٠	[. . .] عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت كانت امرأة من أهل المدينة لها زوج تاجر	الرؤيا	١٨٩

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	السورة	رقمها	الصفحة
﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾	٢٥٦	البقرة	٢	٨٥
﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾	٦٤	المائدة	٥	٨٦
﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾	٣٧	مريم	١٩	٨٦
﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾	١٦٤	آل عمران	٣	٩٢
﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا[. . .] أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾	٩٠-٩٣	الإسراء	١٧	٩٢
﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾	١٨٧	البقرة	٢	٩٥
﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ [. . .] وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٣-٤	المجادلة	٥٨	٩٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾	٢٨	الحديد	٥٧	٩٨
﴿طه * مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾	١-٢	طه	٢٠	١٢٩
﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ * فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا * عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾	٣٥-٣٧	الواقعة	٥٦	١٥٦، ١٥٨، ١٦١
﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾	٦٩	يس	٣٦	١٨١

فهرس الأعلام

روت الأخبار أنّ الرسول «كان من أفكه الناس» مع الصبية والأهل والأصحاب.

اختارت المؤلّفة الحديث النبوي الشريف متناً لتثبت أن للفَكَه في الإسلام مكانة عالية إلى جانب الجدّ. وأنّ الدين لم يكن زهداً وتزمّتاً وطقوساً وعبادةً متواصلة، بل كان أيضاً فُسحة للترويح عن النفس وطرفة ونادرة ومزاحاً وضحكاً. وأنّ الفَكَهَ لم يكن ضدّاً للمقدّس وطعناً فيه ورفضاً، بل هو يعمل في رحابه ويسير في ركبه.

اعتمدت المؤلّفة كتب الأحاديث التسعة التي تحظى بالإجماع والوثوق. ونهجت في تناول الأحاديث المختارة في موضوع الفكه منهجاً جديداً، فركّزت الاهتمام على متون الأحاديث، وبناها التركيبية والفنّية والقصصية، معتمدة أسلوب التفكيك والاستنطاق، بحثاً عن المعنى المصرّح به أو المسكوت عنه.

ليلى العبيدي باحثة تونسية وأستاذة متعاقدة في المعهد العالي للعلوم الإنسانية، جامعة المنار في تونس. شاركت في العديد من الندوات المحلّية والدولية. وهي عضو في وحدة بحث حول قراءة الخطاب الديني. صدر لها مقال في كتاب جماعي بعنوان *Women's Rights in Islamic Settings*, Institute for peace and justice at university of San Diego.

ISBN 978-1-85516-511-3

DAR AL SAQI
دار الساقي